

مركز براهين لدراسة الإلحاد ومعالجة النوازل العقدية

العودة إلى الإيمان

د. هيثم طلعت

دار الكاتب للنشر والتوزيع
Elkateb for Publishing and Distribution



تأليف

د. هيثم طلعت



العودة إلى الإيمان

تأليف:
د. هيثم طلعت

الطبعة الأولى: ديسمبر ٢٠١٤
رقم الإيداع: ٢٥٦٣١ / ٢٠١٤
الترقيم الدولي: ٩-٧-٨٥١٦٥-٩٧٧-٩٧٨

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر (دار الكاتب) أو (مركز براهين) وإنما عن وجهة نظر المؤلف.

دار الكاتب للنشر والتوزيع - الإسماعيلية - مصر
٠١٢٧١٠٣١٢١٨(٠٠٢) - ٠١٠١٥٥٧٧٤٦٠(٠٠٢)

العودة إلى الإيمان



«مركز براهين» لدراسة الإلحاد ومعالجة النوازل العقدية هو مركز بحثي مستقل، يعمل بشكل رسمي من خلال موقعه على شبكة الإنترنت ويُعنى فقط بالعمل في المجال البحثي الأكاديمي لتوفير إصدارات متعددة (كتابية - مرئية - سمعية) على درجة عالية من الدقة والموضوعية والتوثيق يسعى من خلالها لتحقيق رسالته.

• رؤية المركز: عــالم بــلا إلـحـاد.

• رسالة المركز: المساهمة النوعية في تفكيك الخـطاب الإلـحــادي ونقد مضـامينه العلميـة والفلسفية وأبعاده التاريخية والأخلاقية والنفسية والاجتماعية وبناء التصورات الصحيحة عن الدين والإنسان والحياة ومعالجة النوازل العقدية انطلاقاً من أصول الشريعة ومحكمات النصوص كل ذلك بلغة علمية رصينة وأسلوب تربوي هادف.

المشرف العام: أ. عبد الله بن سعيد الشهري

مدير المركز: م. أحمد حسن

اللجنة العلمية: د. هيثم طلعت - أحمد يحيى - مصطفى قديح

الإدارة التنفيذية: تتولى إدارة (دار الكاتب للنشر والتوزيع) مهام الإدارة التنفيذية للمركز.

مستشار الشؤون القانونية: أ. محمود بسيوني عبد الله

الموقع الرسمي: www.braheen.com

للتواصل والاستفسارات: info@braheen.com

فيسبوك: fb.braheen.com

تويتر: t.braheen.com

يوتيوب: y.braheen.com

هذا الكتاب

لأنَّ الحياةَ واسعةٌ وأعمارَنا قصيرة، ولأنَّ الإحاطةَ بقضايا الدين والعلم مما يفنى دونه العمر ومما لم يكتبْ لأحد، وفي ظل المتغيرات السريعة التي تعصف بنا يومًا بعد يوم؛ يأتي هذا الكتاب.

حيث يطوف بنا الباحثُ سريعًا في رحلة زادها العلم والفكر،[1] يبدأها بالسير بنا عبر دروب الإلحاد الوعرة، فيعرض في الباب الأول مختصرًا للفرق الإلحادية الأشهر الثلاث، وينتقل بنا بعدها إلى فقرة سؤال وجواب مع أشهر الأقوال التي يرددها الملحدون، ليصل بنا أخيرًا إلى محطته الأخيرة، العودة إلى الإيمان.

عدائية الإلحاد، أسبابه النفسية، التوظيف الإلحادي للمعطى المادي، اللاأدرية، الربوبية، تأخر ظهور الكون، السببية والخالق، هل الكفر كالإيمان؟، هل الإلحاد قوام تجربة فكرية محضة؟، هل الدين يعيق العلم؟، ما هو مصدر القيمة؟، ما هي الغاية من الوجود؟، المعايرة الدقيقة للكون، ظهور الحياة على الأرض، الإنسان والدين، انبثاق الفلسفة.. والكثير من المحطات الأخرى التي يتوقف عندها البحث، وقد جعل شرطه الاختصار مع حسن البيان وقوة الحجة.

الشكر موصول للدكتور الفاضل/ هيثم طلعت، على جهده في إخراج هذا المصنف، وكذلك إلى كل من ساهم من فريق العمل بالتنسيق والإعداد والمراجعة، حتى خرج هذا العمل إلى النور. غير أن أعمال البشر كتب عليها النقصان -شهادة باقية على أن الكمال هو لرب العزة سبحانه وتعالى وحده-، فإنَّ مثل هذا العمل لن يخلو من نقص أو خطأ، والأملُ الحَسَنُ في القراء أنْ يلتمسوا العذر، ويُهدونا عيوبنا على طبَق النُصح كي نستدرك ما يحتاج إلى استدراك أو تصحيح في طبعات مستقبلية إن شاء الله.

والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل..

مركز براهين

---

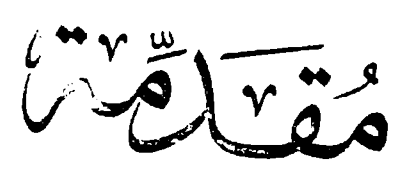
[1]- يجدر بنا الإشارة إلى أن هذا الكتاب ترتيبه الثالث بين مصنفات الباحث، لذا فإن من أراد التوسع في القراءة عن مباحث الإلحاد واللادينية وما يتعلق بهما، فإنه يجد ذلك مبسوطا في الكتابين الآخرين (موسوعة الرد على الملحدين العرب) و(كهنة الإلحاد).

عن المؤلف

من الصعب أن لا يكون اسمه قد مر عليك خلال بحثك على الشبكة العنكبوتية عن كثير من النقاط المتعلقة بالحوار الدائر بين الإيمان والإلحاد، حيث أن بدايته في هذا المجال تعود إلى أكثر من عشرة سنوات، لم يترك خلالها بابا لتوصيل رسالته إلا وطرقه.

ورغم أن عمله الأساسي هو الطب، لكن البحث في قضايا الإلحاد واللادينية وما يتعلق بهما هو شغله الشاغل منذ سنوات. قدم خلالها الكثير من المقالات والأبحاث المنشورة عبر الشبكة العنكبوتية، وبدأ رحلته مع الكتب، بكتاب (موسوعة الرد على الملحدين العرب) أتبعه بعد ذلك بكتاب (كهنة الإلحاد: هل تحولت دعاوى اللادينيين إلى ديانة كهنوتية؟) ثم مسك الختام (العودة إلى الإيمان).

أيضًا كان من المشاركين في مجلة "منتدى التوحيد"، وهي أول مجلة متخصصة في الحوار الإلحادي الإيماني، وكذلك شارك في تأسيس مركز ومجلة براهين –وحاليا هو عضو اللجنة العلمية للمركز–، بالإضافة إلى مناظراته التي لا تتوقف مع الكثير من منظري الإلحاد العربي. هذا بالإضافة إلى موقعه الشخصي (الإلحاد في الميزان) والذي يحتوى على كثير من المواد النقدية للإلحاد واللادينية، وبرنامج (وهم الإلحاد) الذي يقدمه على قناة البينة على اليوتيوب، والكثير والكثير مما قد لا يتسع المجال لذكره، فقط ندعوا الله له أن يجعل عمله كله في موازين حسناته إلى يوم يبعثون.


مُقَدِّمَة

مُقَدِّمَة

لأنَّهُ من المحال أنْ نعيشَ بلا مغزى، ولأنَّك إنْ فقدت القيمةَ فقد فقدتَ كلَّ شيء، ولأنَّ تلك اللحظة التي تشعر فيها أنَّ حياتك بلا معنى هي نفسُها التي تتمنى فيها أنْ يواريك التراب.

لأنَّنا لسنا أبناءَ هذا العالم الخُلص، إذ لو كنَّا كذلك لما شعرنا بالمعاناة ولا الاغتراب ولا كان لهذه الكلمات معنى. لو كنّا أبناءَ هذا العالم لما بدا فيه شيءٌ نجس أو طاهر. إنَّ وجودنا يستمد معناه من عالم آخر، إنَّنا دخلنا هذا العالم برأس مالٍ قيميّ معرفيّ أخلاقيّ مبدئي هائل، وليس في هذا العالم ما يبرر شيئًا من ذلك.

أذكر تلك القصة القديمة لذلك الرحالة الذي رأى رؤيا أنَّه سيجد كنزًا عظيمًا يومًا ما تحت الأرض، وظلّ الرجل يجوب البلاد ويقطع الوديان ويخرق الفجاج باحثًا عن كنزه، وبعد أن أمضى السنوات عابثًا في سعيه، أرهقته الأيام وعاد إلى بيته منكسرًا مهمومًا حزينًا، يصارع العبثية والشؤم والحسرة، والضياع واللامعنى واللاغاية، وبينما هو كذلك إذ سقط القدح من يده على الأرض فأحدث رنّة عظيمة، فحفر بيده ليجد كنوزًا من ذهب لا أول لها في قعر بيته.

إن كنز الإنسان يوجد داخل ذاته وخارج ذاته، في العالم المادي لن يجد إلا ما هو مادي، لن يجد إلا غذاء جسده، أمَّا غذاء روحه فليس من هذا العالم، ولن يصبح الإنسانُ إنسانًا ولن يؤسس لقيمته ومبادئه وأخلاقياته إلَّا بالعودة إلى الإيمان.

لماذا؟ ما الأسباب؟ ما الأدلة؟ ما الحجج؟

كل هذا وأكثر أضعه بين يديكم في هذا الكتاب، والذي نبدأه بعرض مختصر لـ(طريق الهاوية)، عسى أحدًا ينتبه أن لا تزلّ قدمُه. نتبعه بعد ذلك بـ(ماذا يقول الملحدون؟!)، وفيه استعراض لأشهر الأقوال المنتشرة بينهم مع الرد عليها. ثم أخيرًا طريق العودة، العودة إلى الإيمان.

إلى الكتاب...

الباب الأول

طريق الهـــاوية

(الإلحــاد)

ظهور الإلحاد

لا يوجد تاريخ محدد يمكن من خلاله إثبات بداية زمنية للإلحاد، **فهو ظاهرة طفيلية عبر الزمان**، لا توجد لها جذور حتى عند السوفسطائيين اليونانيين القُدامى، وحتى (أبيقور) مؤسس مذهب المُتعة ومؤسس المدرسة الأبيقورية المُنحلة عاش عيشة متقشفة، وكان رواقيًا ساميًا في أخلاقه، عاش ومات على مذهب أهل الأديان في تبني الأخلاق، وترَك الانغماس في الملذات واتخذ زوجة ومزرعة، وعاش بما تُدره عليه دروس العلم التي كان يُلقيها لتلامذته، وفولتير أول المُلحدين والأب الروحي للإلحاد -كما يُسميه ويل ديورانت صاحب "قصة الحضارة"-، مع أنه لم يكن ملحدًا بالمعنى المعاصر، وإنما كان ربوبيًا، كان يشرح فلسفته الإلحادية لزملائه، وفي نفس الوقت كان يشرح الأخلاق في إطار الدين لخدامه، ويخشى على خدامه من الإلحاد، فيدفعهم إلى الإيمان بالأخلاق في إطار ديني، وكان يقول كلمته الشهيرة: "لو لم يكن هناك إله لخانتني زوجتي وسرقني خادمي"، بل قام فولتير الملحد في أواخر حياته ببناء كنيسة بالقرب من قصره، نقش على مدخلها "يارب اذكر عبدك فولتير"، وادعى أنها الكنيسة الوحيدة المخصصة لله وحده على هذه الأرض، أما الكنائس الأخرى فهي مخصصة للقديسين، وكان يرسل خدمه إلى الكنيسة بانتظام ويدفع أجور تعليم أبنائهم قواعد الديانة.[1]

فالإلحاد كفلسفة مُستقلة لا توجد له جذور عبر التاريخ؛ لذا يقول المؤرخ الإغريقي بلوتارك: "لقد وجدت في التاريخ مدنًا بلا حصون، ومدنًا بلا قصور، ومدنًا بلا مدارس، لكني لم أجد أبدًا مدنًا بلا معابد". ويقول ويل ديورانت في كتابه (قصة الحضارة): "ولا يزال الاعتقاد القديم بأن الدين ظاهرة تعم البشر جميعًا اعتقادًا سليمًا، وهذه في رأي الفيلسوف حقيقة من الحقائق التاريخية والنفسية".[2]

أما في بلادنا الإسلامية فلم يوجد ملحد واحد في تاريخ الإسلام كله، وما يُروى عن ابن الراوندي وابن المقفع وابن سينا وأبي حيان التوحيدي وغيرهم فعلى قلتهم الشديدة لم يكونوا ملحدين الإلحاد الاصطلاحي المعاصر، وإنما كانوا أتباع فلسفات باطنية.

---

(1) ويل ديورانت، "قصة الحضارة"، المجلد ٣٨ ص٢١٤.

(2) المصدر السابق، المجلد الأول ص٩٩.

وفي عصرنا الحديث يصعب بشدة ضبط تاريخ محدد لظهور الإلحاد المُعاصر، لكن أغلب المؤرخين الغربيين يؤرخون لبداية الإلحاد في أعقاب هدم سجن الباستيل سنة ١٧٨٩م مع بداية الثورة الفرنسية، ولم يظهر الإلحاد فعليًا على الساحة العالمية إلا بوصول البلاشفة للحكم في روسيا، في أعقاب ثورة ١٩١٧م، وقد حارب البلاشفة الدين حربًا شعواء، وبـا لمجلة التايم في عددها الصادر يوم ١/١/١٩٥٦م فإن: "عدد الكنائس تقلص في الاتحاد السوفيتي من ٤٦ ألف كنيسة سنة ١٩١٧م إلى ٤ آلاف كنيسة سنة ١٩٥٦م"، إلا أنّ البلاشفة الشيوعيين لم يكن إلحادهم إلحادًا علميًا أو فلسفيًا أو فكريًا بقدر ما كان إلحادًا سياسيًا، فالدين من منظور ماركسي هو أحد البنى الفوقية بما في ذلك الفِكر والاجتماع والسياسة والتقاليد والقيم، بينما الاقتصاد هو البنية التحتية الوحيدة للمجتمع الماركسي، وكل البنى الفوقية هي انعكاس لهذا البناء التحتي، ولا توجد بنية فوقية واحدة مُستقلة، وهذا يعني أن الدين عامل عارض يتم إزالته في مرحلة لاحقة حتى ينفرد العامل الاقتصادي بإدارة الأمة الماركسية، لذا فإنَ أغلب إحصاءات أعداد الملحدين حول العالم هي إحصاءات مزيفة وغير دقيقة بالمرة؛ لأن أي دولة تُعلن الحُكم الاشتراكي يتم تحويل عدد سكانها في جداول البيانات من خانة الدين إلى خانة الإلحاد، وهذا ما ذهب إليه صامويل هنتنجتون في كتابه (صدام الحضارات) إذ يقول: "يُشكل الصينيون حوالي ٩٢% من الملحدين حول العالم، فمع مجيء الشيوعية إلى الصين تم تحويل كل أصحاب الديانات الأرضية إلى لادينيين، في كل الدراسات الإحصائية لأصحاب الأديان في العالم".[٣] وهذا تحويل قسري غير موضوعي بالمرة.

الشاهدُ؛ أنّ إلحادَ هذه الأمم هو إلحادٌ سياسيٌّ لا أكثر. ولذا يرى المؤرخون أن الإلحاد انتهى بصورته المؤسسية من العالم مع انهيار الاتحاد السوفيتي سنة ١٩٨٩م، فالفترة بين عامي ١٧٨٩م و١٩٨٩م يمكن اعتبارها العصر الذهبي للإلحاد The Twilight Of Atheism، إذًا الإلحاد في الأصل فلسفة طفيلية بلا جذور، أغلب أبعاده سياسية مجردة.

أمريكا ما زالت تصنف الملاحدة على أنهم غير مقبولين في المجتمع الأمريكي، وكان هذا واضحًا جدًا في الكلمة التي قالها جورج بوش الأب حين سأله صحفي أمريكي في عام ١٩٨٧م: هل يمكن اعتبار الملحد الأمريكي متساويا في الجنسية والمواطنة مع غيره من الأمريكان؟ واشتهر ردُّ بوش حين قال: "لا أعرف إذا كان من الممكن اعتبار أن الملحدين مواطنون أو حتى اعتبارهم محبين للوطن، هذه أمة موحدة تحت راية الله".

---

[٣] صامويل هنتنجتون، "صدام الحضارات"، ص١٠٧.

وطبقًا للواشنطون بوست في بحث آخر مستقل: "فإنه على الرغم من حصول الشواذ جنسيًا على بعض الحقوق، ونالوا بعض الاحترام من المجتمع الأمريكي، ما زال الملحدون الأمريكيون يمثلون أكثر فئات أمريكا احتقارًا وكراهية بسبب ما يبدونه من انعدام للأخلاق وعدم الثقة ورعونة في مبادئهم، فإن المجتمع الأمريكي سريعاً ما يلفظهم، ويتردد كثيرًا الأمريكيون في إقامة علاقة مع ملحد أو مجرد تولي منصب وظيفي أو حتى المشاركة في فرق الكشافة الشبابية، خاصة لما يبدونه من صفات عدم تحمل الأمانة في اختبارات التأهيل العسكري الذي تُجريه المؤسسات النفسية العسكرية بأمريكا".(٤)

ولذا يرى جون لوك مؤسس الدولة المدنية في رسالته "في التسامح" أن الملحد غير مقبول في المجتمع المدني يقول: "لا يمكن التسامح على الإطلاق مع الذين ينكرون وجود الله، فالوعد والعهد والقسم من حيث هي روابط المجتمع البشري ليس لها قيمة بالنسبة الى الملحد، فإنكار الله حتى لو كان بالفكر فقط يفكك جميع الأشياء".(٥)

عدائية الإلحاد الجديد

مما سبق يتضح أنَّ الاستعدادَ الإدراكيَّ العام، والسجل الأحفوري المتطاول لبني الإنسان، يؤكدان أن الإلحاد ظاهرة طارئة، ولا شيء يشفع للوجود الإلحادي بطابعه التبشيري الذي نشهده اليوم عند دعاته.

إن الإلحاد الجديد أصبح يحمل همَّ التبشير بالدوجما الجديدة، وجدول دعاه الإلحاد الجديد مليء بالزيارات التبشيرية في كل مكان، لقد صار الإلحاد الجديد الدين الخفي الأحدث!

ومقولة (الالحاد دين متخفٍّ)؛ أصبحت حقيقة واقعة كما يقرر الملحد التطوري ديفيد سلون David Sloan، فالإلحاد طبقًا له "يملك كل سمات الدين المتخفي، بما في ذلك حالة الاستقطاب التي تُشخص نظامه الاعتقادي، بالإضافة إلى سلطة قادته المتعالية على النقد".(٦)

ومع بداية الإلحاد على يد جاك هربرت وجاك كلود بيرنارد، بعد الثورة الفرنسية، شجع هؤلاء الهربرتيون –كما كانوا يُسمون– على تحويل كنائس فرنسا –بعد تدنيسها والاعتداء

---

(4) Gregory Paul and Phil Zuckerman, "Why do Americans still dislike atheists?", Washington Post, Published: April 30, 2011.

(٥) جون لوك، "رسالة في التسامح"، ص٥٧.

(6) Sloan, D. (2012) "Atheism As A Stealth Religion", Hoff-Post, Posted 12/14/07.

العنيف على آبائها، وتمزيق رموزها- إلى ما كان يُعرف بمعابد العقل Temples Of Reason، وقد قال توماس باين Thomas Paine بعد أن كفر بالإله: "عقلي هو كنيستي".

فالإلحاد أصبح دينًا متكاملًا، ويقدم أجوبته الجاهزة لكل الأسئلة! لقد تجاوز الإلحاد الجديد التبشير؛ ليظهر عدائية صريحة تجاه كل ما هو ديني، وتجاه دعاة الأديان أنفسهم، بل ويعادي جميع المؤمنين. ويدعو الملحد الشهير سام هاريس -وهو أكثر الملحدين حديثًا عن الأخلاق في كتاباته، وأحد فرسان الإلحاد الأربعة كما يُسمى في الغرب- إلى ضرب المسلمين بقنبلة نووية تستأصل شأفتهم إلى الأبد، إذا تطلب الأمر ذلك.[٧] ويزعم الصحفيُّ الملحد كريستوفر هيتشنز أنَّ الدين يسمم كل شيء! إنّ قراءة التاريخ تجعل هذا الادعاء هشيمًا تذروه الرياح، بل إنّ ظهور النظام الرأسمالي -الذي يفخر به دعاة الإلحاد الجدد- كان على يد الحركة البروتستانتية الدينية.

كذلك "لم يكن انحسار العصور المظلمة في أوروبا إلا على يد الإسلام" كما يقول بيتر أوبراين Peter O`Brien.[٨] فبينما كان القضاء الغربي يتوصل لأحكام الإدانة والبراءة عن طريق تعريض المتهم لصنوف التعذيب المختلفة؛ فإن اجتازها حكموا ببراءته وإن أخفق أدانوه، كان للمسلمين نظام قانوني فقهي منقطع النظير! لذا يقرر مارسيل أ. بويسارد Marcel A. Boisard -في دراسة مستقلة- أن أصول القانون الدولي الحديث مستمدة من دواوين الفقه الإسلامي، وتشريع نابليون French Civil Code (Napoleonic Code) مُستمد من الفقه المالكي.

إنَّ الدينَ -كما يقول علماء الإنسانيّات- أصلٌ حضاريّ أساسيّ. في واقع الأمر إن الذي يُسمم كل شيء هو الإلحاد؛ فوالدة كريستوفر هيتشنز -نفسه- ماتت منتحرة مع عشيقها، وأخوه مات منتحرًا أيضا، بسبب بعدهم عن الدين!

لكن رؤية دعاة الإلحاد الجديد هي رؤية دوغمائية حاقدة على كل دين، وغير محايدة على الإطلاق؛ يقول كلٌّ من ويل واريل ديورانت: "حتى المؤرخ المتشكك لديه احترام متواضع للدين؛ ذلك أنه يراه مؤديًا لوظيفته، وأنه لا غنى عنه في كل أرضٍ وجيل".[٩] بل إن تشارلز داروين نفسه يقرر أن الدين قضية عقلية محترمة، يتبعها عقلاء ومفكرون عبر كل العصور،

---

[7] Harris, S. (2006) The End Of Faith, The Free Press, P.129

[٨] في مقال يحمل نفس الاسم، نُشر في دورية The Medieval History رقم ٢ ص ٣٨٧.

[9] Will & Ariel Durant, The Lesson Of History P.43

فيقول: "أما وجود حاكم للكون؛ فهذا مما دانت به جموع من أعظم العقول التي وُجدت على الإطلاق".[10]

لقد كان داروين أفضلَ حالاً بكثير من تلامذته، وقد اعتزم -كما نقل التطوري ستيفن جاي جولد- الكف عن الخوض في الدين وأسئلة الغاية، وقرر التفرغ للعلم الطبيعي فقط. بينما نرى دعاة الإلحاد الجديد -أمثال دوكينز- يتحدثون في كل شيء وينتقدون كل شيء، يقول الناقد البريطاني الكبير تيري إيغلتون Terry Eagleton: "ريتشارد دوكينز أحد علماء اللاهوت الإلحادي؛ يسهب في الحديث عن علم البيولوجيا، ومبلغه فيه لا يتجاوز ما ورد في كتاب (الطيور البريطانية)".[11]

وفي مناظرة ريتشارد دوكنز الشهيرة مع ديباك شوبرا -مترجمة للعربية، وموجودة على اليوتيوب- يتحدث عن كونه هو العلم والعلم هو! إنها عجرفة الإلحاد الجديد المعهودة، مع أن ديباك شوبرا أعلى منه قدمًا على المستوى الوظيفي، فنحن أمام إنتاجٍ إلحاديّ متوقع، طمعًا في الوصول بالانحلال إلى محطته الأخيرة.

تعريف الإلحاد

الإلحاد هو رؤية دينية متكاملة للحياة والكون والوجود. ذلك لأنه يرتكز في رؤيته للكون والوجود على أدلة ميتافزيقيه، غير مدعومة بمنطق أو عقل أو حُجة أو سند علمي، فهو يزعم أن اللاشيء انضافَ إلى اللاشيء فصار شيئًا عظيمًا من أروع ما يكون، وبمنتهى المعايرة الدقيقة، وأن العشوائية أنتجت حياة، بينما العقل المادي في قمة جبروته الآن لا يستطيع أن يُنتج أبسط صور الحياة، وأن كل القيم الأخلاقية والتأصيلات القيمية التي نُسلم بصحتها -والتي يسير أغلبها في اتجاه مضاد للمادة تمامًا- هي من معطيات المادة ومنتجاتها.

إن الإلحاد -بمنتهى الدقة- اتجاه أعمى، يبحث في غرفة مظلمة عن قطة سوداء لا وجود لها؛ ظلمات بعضها فوق بعض.

إنْ القضيةُ إلّا سفسطة أخطأت طريقها فأنتجت دينًا جديدًا يسمى إلحاد، الإلحاد؛ تلك المحاولة الفاشلة للوصول بطرق ملتوية إلى ما لا ينفع. لذا ظهر كهنة الإلحاد الجدد ممن يبررون الشيء ونقيضه، وصار للإلحاد اليوم سماسرة مكرة، وشمامسة يبشرون به في كل مكان،

[10] Darwin, Charles (1902) The Descent Of Man, P.131

[11] Terry Eagleton, Lunging, Flailing, And Mispunching, (2006) Vol.28, No.20,

وقمامصة يلوون عنق كل معطى علمي جديد يتناقض مع رؤيتهم الدينية، فظهرت مؤتمرات تثبيت العقيدة الإلحادية، وندوات الدفاع عن الداروينية، وتنطع آبائهم الكهنة إلى بحث قضايا الوجود دون وسيلة منهجية مناسبة لذلك، فحاربوا قانونًا كونيًا -مثل قانون السببية- بأدلة سفسطية، حتى تستقيم لهم دوجما الإلحاد، وحاربوا أدلة النظام والغائية والقصد والعناية، وتجاهلوا القضايا العقلية الكبرى؛ مثل الإيجاد من اللازمان واللامكان، ودليل الحدوث، ومعجزة خلق الحياة، والنبوات والدين والفطرة والأخلاق، والمعايرة الدقيقة لحظة الخلق الأولى لكل الموجودات، والمعايرة الدقيقة في كل شيء حولنا وداخلنا، ومعضلة استيعاب الخير والشعور بالامتنان.. وما لا يمكن حصره من الأدلة.

لقد صار الإلحاد إهدارًا متواصلًا للعقل البشري، يتطلب من أتباعه باستمرار إنكار بدهيات عقلية ومنطقية، إنه أقسى من أشد الديانات إغراقًا في الوثنية. وصارت القضية الإلحادية اليوم حبلى بالإشكاليات المعرفية والنظرية والمادية، ومليئة بالتناقضات العقلية، وصارت تُبرر المستحيل العقلي -مثل إيجاد الزمان والمكان والعالم بمنتهى المعايرة الدقيقة من اللازمان واللامكان، وإيجاد الحياة من اللاحياة- من أجل تسويغ وجودها الدوجمائي.

كان هذا مجرد تعريف مختصر للإلحاد الجديد، الذي نبت في الغرب بدواعي سياسية حينًا -كما حدث في الاتحاد السوفيتي السابق-، وبدواعٍ انتقامية حينًا آخر -كما حدث إبان الثورة الفرنسية-، ولم يظهر إطلاقًا كمبرر عقلي مستقل لأية قضية علمية أو فكرية أو مُعطى عقلي، وألحد على صيته الساذج هذا بعض الشباب. لقد أصبح الإلحاد اليوم قالبًا جاهزًا لأي شاب يمر بأزمة نفسية أو مادية أو شبهة وقتية، وصار الإلحاد يولد باستمرار من رحم حُب الظهور والسخط على الوضع الاجتماعي أو السياسي أو المستوى المادي أو العلمي للدول العربية، وصارت القضية نفسية في المقام الأول والأخير، وبحاجة إلى حلول نفسية ومنطقية وإعادة تأهيل قبل أن تكون بحاجة إلى حشد حجج أو أدلة أو سياقات معرفية عقلية.

إنها حالة إدراكية لم تتمتع بأي رسوخ نوعي لدى الوعي الجمعي الإنساني؛ حالة تعاود الظهور كزعانف سمك القرش وسط بحر الدين الهادر، على حد تعبير أ. عبدالله الشهري.

دعونا نستفتي الواقع فنسأل: لو كنّا حقًا أبناء الطبيعة الخُلّص، وأحفاد الكون الشرعيين المنحدرين من صلبه، هل سيحتاج الإلحاد إلى كل هذا العناء؟ وهل كنّا سنجد في طرد فكرة الإيمان أدنى مشكلة؟

والسبب الرئيس في عدم رسوخه على أرض الواقع ليس خطأ أدلته -فما أكثر الوثنيات الخاطئة-، وإنما عدم وجود أدلة أصلًا. ولو كان الإلحاد ينفع الناس أو يملك أجوبة لَمَكَثَ في الأرض، لكنه يبدأ دائمًا وينتهي تحت هجير الحقد على الدين أو تركه لا أكثر، من خلال لعبة عقلية تجري على مستوى قشرة الدماغ الـ Cortex والسفسطة الإنكارية السالبة.

فالإلحاد لا يقدم أي حل لظاهرة الوجود الإنساني ولا يستوعب تعقيداتها. ليكتشف الإنسانُ في نهاية مشروعه الحضاري أنه يبني تابوتًا لا صرحًا، وكلما زاد ابتعادًا عن الدين كلما تفاقمت أزمة الحضارة بشكل متسارع. وبحسب ريتشارد هاينبرج: "الأُسس التي تقوم عليها حضارتنا فاسدة ومفسدة".[١٢]

"لقد أفرزت تلك الصورة ذاتًا إنسانية سريعة التقلبِ وشديدة التفلت؛ فلم يعد للمعنى قرار، ولا للقيمة مرتكز. في عالم كهذا يحط الإلحاد رحاله ويستقر، فعندما تدرك أنك جئت صدفة -وبلا غاية- يصيبك الدوار والغضب الشديد، وتتملكك الرغبة في تحطيم كل شيء حولك".[١٣]
هذا هو التحليل الأقرب للظاهرة الإلحادية وانتشارها حول العالم.

هل للإلحاد أسبابٌ نفسية؟

هذا أمر بَدَهِيّ؛ فالإلحاد فكرة متبلورة كأية فكرة أخرى، يدخل في تشكيلها عوامل موضوعية وذاتية ونفسية لا حصر لها.

وهنا يمكننا قدح زناد العقل لتحرير عدد لا نهائي من الأسباب النفسية للإلحاد، لكن الحقيقة التي لا ننازع فيها هي (أسبقية الرؤية الإلحادية على معطيات العلم الخام)، حيث تمَّ تسليط الأولى على الثانية، ليظهر التوظيف المؤدلج للعلم، على يد دعاة الإلحاد الجديد.

أيضًا يمكننا تحرير حقيقة أن دعاة الإلحاد الجديد تنكروا لأصولهم، في سبيل الدعوة إلى الكهنوت الإلحادي، فأدخلوا في الإلحاد [illegible] من المصطلحات الجديدة مثل الإنسانية والإرادة البشرية والخير للجميع والمثالية والفردوس الأرضي والسعادة الإنسانية، وهذه كلها مصطلحات تسبح في حقول دلالية ومجالات تداولية متفلّتة.

يحذرُ علمُ إدارة المشاريع الخبراءَ مما يسمونه مشكلة تفلت النطاق (Scope Creep)، فهذه (المصطلحات المتفلتة) يكتنفها غموضٌ شديد عند التدقيق، حيث أنها تظل في حالة

---

(12) Heinberg, R. (2005) Memories And Visions Of Paradise, P.196.

(١٣) نانسي هيوستن، "أساتذة اليأس: النزعة العدمية في الأدب الاوربي"، ترجمة: وليد السويركي، دار كلمة، ص٤١.

تماس مع مضامين ميتافيزيقية. ولطالما حذّر أرباب الإلحاد الجديد أنفسهم من إنشاء أيّة صلة بهذا العالم الميتافيزيقي!

فكلمة (إنسانية) تعتبر كلمة ملوثة ميتافيزيقيًا، وهذا ينطبق على بقية المصطلحات أيضًا – يمكن الاطلاع على مقالي (الهيومانية كبديل عن الدين)، حيث قمت بتفنيد هذه المصطلحات من منظور مادي–.[14]

واقع الأمر أن دعوى الإلحاد ليست من أجل الخير أو الإنسانية، بل هي مجرد نزعة الإنسان البروميثية لتحرير ذاته؛ تلك النزعة الموجودة منذ بدء الخليقة، والتي تسببت في أول معصية عند الأكل من الشجرة، ثم اغترار قوم عاد بقوتهم، ثم قارون بماله، وفرعون بعلمه، وبني إسرائيل بعجلهم، فأصل الكفر والإلحاد هو محاربة الله –لا الكفر بوجوده–: ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيراً﴾.[15]

وهذا الاستعداد يزداد كلما شعر الكافر أن بإمكانه تغيير مسار التاريخ، ظنًا منه أنه سيجعل من التاريخ شيئًا آخر غير الذي في علم الله!

الإلحاد مشروع فاوستي قديم لتحرير الإنسان مما يكبِّلُ إرادته الأبولونية الديونيسية؛ إرادة القوة والخلود والسيطرة والعلم الكلي. وبالتالي سنعود إلى أزمة (تقدم تأثير الإرادة على الدليل)؛ فالإلحاد يعتقد أولًا ثم يستدل، وليس العكس. إنّ بنية الإلحاد تعتمدُ على نمط من التجانس الثقافي السابق على معطيات العلم والمادة، فلا يمكن إذًا الاتكاء على فساد الدين للوصول إلى الإلحاد –كما يروج البعض–.[16]

الإلحاد ليس مشكلة مع الجزء الفاسد من الدين، إنما مع الدين ككل. ومن نافلة القول أن فساد الدين مهما تضخم فهو مُستوعب داخل إطار ثقافي ومحتوى مجتمعي، يهضمه ويعيد ضبطه أو يلفظه ويتبرأ منه. فالإلحاد طبقًا لهذا الإطار يظهر كأيّ منتج ثقافي وثني مستقل بناه الإنسان عبر التاريخ.

وفي هذا الإطار نستطيع نحن –المؤمنين– تحليل فكرة تجاهل الإلحاد لكل الأسئلة الوجودية الكبرى، التي لا يملك في جعبته أجوبة عليها؛ يقول دوكينز: إنَّ الغاية من وجودنا

---

[14] د. هيثم طلعت، "الهيومانية كبديل عن الدين"، مجلة براهين، العدد الثاني.

[15] سورة الفرقان: ٥٥.

[16] للأسف يروج حتى بعضُ الإعلاميين السذج لمقولة أن فسادَ الدين سببٌ في الإلحاد، مع أن الواقع العملي يؤكد خطأ تلك المسألة، فأغلب الملحدين هم من الطبقة المترفة التي لم تطلع أصلًا على الدين ولم تعرفْ عنه شيئًا.

مجرد سؤال تافه بلا قيمة، هذا هو إلحاد الشفافية الفجة، لقد وصل الإلحاد الآن لمرحلة يُستبعد أن تدوم طويلًا، إذ أنه من شأن المشروع الذي يلقي جميع أوراقه في وقت وجيز ألا يدوم طويلًا، ثم مَن يملك حق التمييز بين الأسئلة الوجودية المشروعة والأسئلة التافهة؟ هل كون الإلحاد عاجز عن الإجابة يصبح السؤال تافهًا بلا معنى؟

لكن يبقى شيء آخر عصيّ على الفهم وهو؛ كيف يتمرس الملحد على مقاومة شعوره للمعاني الجمالية والقيم المطلقة والأخلاق اللامادية؟ كيف يستمر في سعيه الحثيث نحو التوفيق بين (الضمير والمصلحة) في كل لحظة من حياته؟ كيف يستطيع الملحدُ إخراسَ الأسئلة الوجودية الكبرى الأهم والأعظم في حياته؟!

الإلحاد ليس فطريًا، وإنما يقتضي تقدير وتفكير من جنس تقدير الوليد بن المغيرة ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾[١٧]، ويقتضي بحثًا عن الاستقلال النفسي ﴿فَلَمَّا جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون﴾[١٨]، وهنا تخرج الفطرة عن طورها إلى حالة صناعية، بقدر ما يعتري المرء من تكلف ومعالجة واستثناءِ للعامل العاطفي الوجداني من العقل، وتجريده من أحد أهم خصائصه، ثم بعد ذلك إفساده بحالة صناعية تقديرية، ليخرج من كل هذا بفكرته الإلحادية.

إنَّ القرارَ الإلحاديَّ نفعيٌّ مصلحيٌّ في المقام الأول، وهذا يعرفه من سَبَرَ الإلحادَ وتعمق في أغوار نفس الملحد ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّواْ الْحَيَاةَ الْدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾.

بل وأصلُ الإلحاد –في الواقع– أنَّه ذو مرتكزٍ نفسيٍّ لا يعدو أن يكون لاأدرية أو لادينية ضحلة، تتشح بزيِّ الإلحاد. هذه حقيقة يعرفها الملحدُ في نفسه! فهو إلحادٌ ناشئ عن شعور بالتفكك المعرفيِّ وضياع الهُويّة، والشعور بالعدمية وهي تأكل الشخصية Corrosion Of Character، حيث يوجد عجزٌ مطْبِقٌ عن سبكِ تبرير منهجي متكاملٍ للإلحاد.

وأحد مبررات الإلحاد أيضًا أنه يؤمِّن للملحد الانضمام للمجتمعات والفئات المتحررة، وبالتالي يوفرُ نوعًا من الانتماء لثقافة جديدة، يظنها أكثرَ رحابة واتساع أفق.

---

(١٧) سورة المدثر: ١٨.

(١٨) سورة غافر: ٨٣.

إذا كان صحيحًا فهو غير صحيح!

الذي يزعم أنّ الإلحادَ فلسفة عقلية هو أجهلُ الناس بالعقل، لأن لازم قوله بإلحاده هو تطوره عن كائنات أدنى، وبالتالي ليس لعقله ثقة ولا لمعرفته قيمة. يقرر ذلك تشارلز داروين فيقول: "ولكن هنا يراودني الشك الآتي؛ هل يمكن أن يكون عقلُ الإنسان –والذي أؤمن إيمانًا جازمًا أنه تطور عن عقلٍ كذلك الذي تمتلكه أدنى الكائنات– محلًا لثقتنا؛ وهو يُدلي بتلك الاستنتاجات العظيمة؟".(١٩) وقال داروين في موضع آخر: "ينتابني دائمًا شكٌّ فظيعٌ حول ما إذا كانت قناعاتُ عقل الإنسان –والذي بدوره تطور من عقول كائنات أدنى– تتمتع بأيّة قيمة أو تستحق أدنى ثقة".(٢٠)

وبالتالي فلا يكون العقل عقلًا إلا بإثبات الخالق، أو بمعنى أدق العاقل الوحيد هو المؤمن، وغير المؤمن بلا عقل، باعترافه هو وبلازم إلحاده، ففي واقع الأمر التطور أصم أبكم أعمى؛ غيرُ آبه بالقيمة المعنوية للعقل، ولا بالأحكام التي يُصدرها العقل، ولا يلزم منه أن يعطي العقل قيمًا لها أحكام مطلقية. وهذا يلزم عنه ألا يتمسك ملحد ولا يثق بأيٍ من أحكامه العقلية، بل كل حكم عقلي أو تقييم معرفي يراه يجب أن يفترض أنه لغو فارغ بلا معنى. وكلّ ما يؤيده أو يعارضه من أحكامٍ (قيمية أو أخلاقية أو معرفية أو منطقية) يجب عليه أن يوقن أنها مجرد وهم وهلاوس غير واقعية.

وكما يقول المفكر الأيرلندي سي إس لويس C. S. Lewis: "**لنفترض أنها مجرد ذرات داخل جمجمتي تُعطي ناتجًا ثانويًّا يسمى (الفكر)، إذا كان الأمر كذلك فكيف أثق أنّ تفكيري صحيح؟ إنه مثل إبريق الحليب الذي عندما تخضه تأمل أن الطريقة التي تتناثر بها بقع الحليب ستعطيك خريطة لمدينة لندن! ولكن إذا لم أستطع أن أثق بتفكيري أو بالحجج التي تؤدي إلى الإلحاد؛ بالتالي لن يوجد سببٌ لأكون ملحدًا أو أيُّ شيء آخر، إلا إذا كنت أؤمن بالله، لا أستطيع أن أؤمن في الفكر، حيث لا يمكن أبدًا أن أستخدم الفكر لعدم الإيمان بالله**".

فلن يُلحد الإنسانُ إلا إذا قرر مسبقًا أنه مخلوقٌ لله، وأن عقله يُصدر أحكامًا مُطلقة؛ في هذه اللحظة وحسب يمكنه أن يثق في أحكام عقله وما يصدر عن هذه الأحكام.

والبشر يتملكهم شعور اضطراري أنه يجب عليهم أن يثقوا في قيمة أحكامهم، ولا يتأتى ذلك إلا بافتراض تميز موقعهم الإدراكي من أصله، يقول الناقد الأيرلندي الشهير كليف لويس

(19) Francis Darwin, "The Life and Letters of Charles Darwin", Charles Darwin To W. Graham, Vol.1, p282.
(20) Ibid p285.

C. S. Lewis: "لا يمكن لاقتناعنا بأن (الطبيعة تعكس نظامًا) أن يكون محلَّ ثقتنا إلا إذا اعتبرنا نوعًا خاصًا من الميتافيزيقيا صحيحًا".[٢١]

وهذا ما قصده إدموند هوسرل حين قال: "ما المانع أن تكون القوانينُ المنطقية سمة عارضة للعقل البشري، وأنها فقط صارت كذلك في سياق التطور". وبالتالي خطأ كل معرفة تنبني عليها.[٢٢]

إذًا لازم قول الإلحاد هو عدم العقل، وهذا خطأ الإلحاد؛ إنَّ الذي يزعمُ أنه ملحد يقرِّرُ سلفًا انه مخلوق لله، ولذا فالإلحاد بهذه الصياغة ليس صحيحًا حتى لو كان صحيحًا.

متناقضة الإلحاد

إذا كان الإلحادُ يملك أجوبة عن (الأسئلة الكلية، الأسئلة الوجودية الكبرى، أسئلة النشأة، الغاية، الحكمة، المعنى) فهو دين متكامل الأركان، وننتظر من الملحد أن يخبرنا عن سنده الميتافيزيقي. وإذا كان الإلحاد لا يملك أجوبة عن الأسئلة الكلية، فهو لا يصلح بحال للإنسان، ولا يعنى بتحليل ظاهرة الوجود الإنساني، بالتالي لا معنى لاعتناقه عقليًا أو منطقيًا.

يقول الفيزيائي الملحد ستيفن واينبرج: "مهما تقدمنا في العلم، سوف نظل مع سؤال لماذا (ما الغاية؟)، يظهر أن هناك معضلة متأصلة لن يتمكن العلم من اجتثاثها".[٢٣]

يقول الأستاذ عبد الله الشهري: "في الواقع الأسئلة الوجودية الكبرى تعني البشر جميعًا؛ لأنها أسئلة مشروعة وطبيعية، ناشئة عن العلاقة التلقائية بين الوعي ومطلق الوجود، لذا أنا أقول –دائمًا– إنّ الإيمانَ هو ردة فعل تلقائية تجاه الكون والحياة، أما الإلحاد فهو ردة فعل غير تلقائية تجاه التدين، فضلًا عن أن يكون ردة فعل غير تلقائية تجاه الكون والحياة، لكن محاولات الإلحاد الجديد تجعله يبدو تلقائيًا، مع أن أبسط التحليلات للقضية الإلحادية تبين مدى المعاناة والمعالجة والتجشم التي يعانيها الملحد حتى يستطيع أن يهضم الإلحاد".[٢٤]

---

[21] Nathan, N. M. L. , "Naturalism And Self-Defeat", P.135.

[٢٢] إدموند هوسرل، "فكرة الفينومينولوجيا"، ترجمة: د. فتحي إنقزو، ص٥٤.

[23] Weinberg, S. (1999) A Designer University? Vol.46, No.16

[٢٤] عبد الله بن سعيد الشهري، "ثلاث رسائل في الإلحاد والعلم والإيمان"، مركز نماء للبحوث والدراسات، الطبعة الأولى٢٠١٤، ص١٠٣ بتصرف.

الإلحاد يعاني من صمت مطبق وجهل كليّ أمام أسئلة الوجود الكبرى، المنبثقة عن وعي الإنسان ومكانه في العالم، مثل؛ لماذا نحن هنا؟ ما الغاية من الوجود؟

هذا الصمت المطبق والجهل الكلي بالإجابة، لا يعني عدم أهمية الأسئلة -كما يحاول الكاهن ريتشارد دوكينز أن يبرر جهل الإلحاد بالأجوبة- بل يعني خطأ الأصل الفلسفي الذي نحاول أن نستقي منه الأجوبة، والأصل الفلسفي هنا هو الإلحاد.

الدين يحدد بالضبط مكان كل فرد منّا في هذا العالم، بينما ينتهي الإلحاد بالعجز عن تفسير ذاته، كل ما يفعله الإلحاد بالضبط هو تكثير المفاهيم حول الأصول والثوابت، حتى يُربك الهوية، ويشلّ القدرة على تحديد البدهيّة العقلية والرؤية الفضلى للعالم، وهذا مدخله الأشهر على السُذج، فالإلحاد لا يصلح لكائن مثل الإنسان، إنّه لا يحمل ولا يُعنى بحمل أيّة أجوبة، هذه حقيقة لا علاقة لها بكونك مؤمنًا أو ملحدًا، عندما تصل إلى هذه الحقيقة تكون قد قطعت نصف الطريق نحو الإنسان، (نحو الإيمان).

التوظيف الإلحادي للمعطى المادي

من المعلوم للباحثين أن داروين كان لا يطيق الإلحاد، وكذلك بعض كبار منظري التطور - أمثال فرانسيس كولينز ومايكل دنتن- يرون أن التطور سُنة الخالق السببية في إخراج أشكال الحياة من العدم إلى الوجود.[٢٥]

وللبعض أن يوظف مسألة فيزياء الكم توظيفًا إلحاديًا في مقابل أفذاذ العلماء ممن يوظفونها توظيفًا إيمانيًا يُستدل به على عظيم علم الله ودقيق صنعه وإبهار خلقه، وضعف الإدراك البشري وقصوره وتحجمه، فما أعمق الهوة بين العقل وبين الأشياء في الخارج -كما يقول كانط-، بل إن مؤسس نظرية الكم ماكس بلانك كان من أكثر الناس تدينا، ومن كلماته: "المكون الديني شيء جوهري ليعيش الإنسان في تناغم مع ذاته".[٢٦]

وللبعض أن يوظف مسألة الخير والشر توظيفًا إلحاديًا، فنقول له: هذا توظيف أملاه عليك موقفك الانفعالي وليس موقفك العقلاني، وإلا فقد وظفها آخرون توظيفًا إيمانيًا، ورأوا أسرارًا أخلاقية بعيدة الغور ودروسًا من الحكمة تُعطي تجليات نورانية للعقل والروح.

---

(٢٥) المصدر السابق ص٦٧.

(26) Planck, Max (2001) The Mystery Of Being, P.161

وللبعض أن يوظف الاستدلال بالسببية على بواطن عالم الغيب توظيفًا إلحاديًا، مع أن عالم الشهادة المادي لا يحكم على عالم غيبي لا نعرف عن قوانينه شيئًا!

فالتوظيف شيء والحقيقة ذاتها شيء آخر تمامًا.

مهما كانت الهيئة التي يمكن أن نتخيلها للوجود المادي، فإنه لا دليل فيها على عدم وجود خالق، بل ما دام للوجود المادي هيئة تستحث الإدراك وتتيح نفسها للفهم بطريقة محددة، فالأصل في ميزان الخبرة البشرية أنها دالة على خالق يعلم ويفعل، هذا ما يقضي به المنطق الطبيعي، وهو المتسق تمام الاتساق مع إملاءات خبرتنا، إذ لسنا مُكلفين لا قدرًا ولا شرعًا بأكثر مما تأذن به خبرتنا، فما الباعث على التنكر لها؟ ولِمَ التعنتُ في إبطال دلالتها؟

حقًا؛ (الأصل في الاستصحاب بقاء ما كان على ما كان) قاعدة أُصولية رائعة، طبقها الملحد فافترض بناء على شرطه في النظر ألا خالق، حتى يكون الدليل على وجود الخالق، ونُطبقها نحن فنستصحب أن هيئة الوجود معنى زائد على مجرد الوجود، وأن هذا المعنى الزائد أصل دليلنا على خالق مريد حتى يرد الدليل على انتفاء ذلك الأصل. الموقف الثاني – الديني– أسلم وأحكم وأعلم؛ لأن المثبت مقدم على النافي، لأن المثبت معه زيادة علم؛ فلله ما أروع أصولنا وقواعدنا وما أمتن ديننا![٢٧]

لكن ما الذي يجعل الالحاد يعاود الظهور ويقاوم الضمور على نحوٍ لمْ يسبقْ له مثيل في سالف العصور، على رغم هشاشته تلك؟

كل حجج الإلحاد –على الإطلاق– حمالة أوجه، ولا تفضي بمجموعها –فضلًا عن آحادها– إلى الإلحاد. كل حججه توظيفية لا واقعية، وبالتالي تُقَدِمُ تأثير الإرادة على الدليل، وهذا ليس سبيلنا.

بين الدين والإلحاد

الدين: منظومة معرفيّة مثقلة بمضامين غيبية، تدعي الشمولية وامتلاك الحق، تتسم بنظام قيمي واضح المعالم، وتأبى تقديم التنازلات في الفروع المستقرة فضلاً عن الأصول والثوابت. والإسلام –كأصل للأديان– يأبى تقديم التنازلات، ولا يعني ذلك أنه في حالة انفصام عن السياسة أو الحرية أو التملك، لكنه في حالة مواجهة مع صورٍ محددة من تلك الأنظمة.

---

[٢٧] المصدر السابق ص٧٠-٧١.

في المقابل يميل الإلحاد بطبيعته إلى تكثير المفاهيم حول الأصول والثوابت، حتى يُربك الهوية ويشلَّ القدرة على تحديد البدهيّة العقلية والرؤية الأفضل للعالم، وهذا مدخله الأشهر على الشباب الصغار. وهنا نجد أن الإسلام يتميز بصرامة توحيدية شديدة وتصور واضح لسمو الذات الإلهية –كما يقول المؤرخ أرنولد توينبي–، فالإسلام هو أنقى أديان التوحيد.

بينما نجد أن الإلحاد بصيغته العربية –مثلًا– هو رضوخ كامل للمناخ الثقافي المتغلب، وهو الآن المناخ الغربي، بالتالي نحن أمام ردة فعلٍ مغلوبة مسحورة لا فعل ناشئ عن استقلال بصر وحسن تقدير للأمور، وحسٍّ نقديٍّ متوازن.

الإلحاد هو وعي طارئ، مرهون بفرضيات صاغتها شروط ثقافية وحضارية طارئة؛ فهو ظاهرة تمدد وتنكمش، وغول يصحو ويغفو، في حين يبقى الدين جزء لا يتجزأ من التكوين النفسي العام. فالدين مبنيّ على عقيدة الأمل والنجاة، بينما الإلحاد بنيَ على عقيدة الغرور والاكتفاء، الدين يُطمئن كل فرد على موقعه من هذا العالم، بينما يقوم الالحاد على شهوة مسبقة لدى البشر لحب التملك والسيطرة ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾.[٢٨]

إنه فقط شعور بالاقتدار؛ ومصدر هذا الشعور الحادث الجديد هو السيطرة التقنية على العالم ﴿ حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.[٢٩]

يتصور الملحد أن الدين نشأ نتيجة الخوف والحاجة، وأن ما توصلنا له اليوم من علم وتقانة وصناعة يعني أن شمس الدين قد غربت. في الواقع لو كانت القضية هي (الحاجة والخوف)؛ فإنسان العصر الصناعي أشد حاجة وخوفًا من أيِّ وقت مضى، إن الإنسان المعاصر يشكو أمراضًا حسية ومعنوية لم تكن ظهرت بهذه الصورة عند أسلافنا.

فقد ذابت الهوية وتفككت الصلات الاجتماعية، وظهرت أنماط جديدة من التحكم والسيطرة، وارتفعت معدلات الفساد والبطالة والفقر والتلوث والجريمة والاكتئاب؛ ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.[٣٠]

---

[٢٨] سورة الأحزاب: ٧٢.

[٢٩] سورة يونس: ٢٤.

[٣٠] سورة الروم: ٤١.

لذا فالدين قضية مرتبطة بالإنسان أيًّا كان وضعه في هذا العالم، وأيًّا كان مستوى الرفاهية التي حققها، تقول كارين أرمسترونج: "العالم يشهد صحوات دينية، خلافًا للتوقعات العلمانية الواثقة في منتصف القرن العشرين، الدين لن يذهب".(٣١)

يعتبر الإلحاد الجديد أثرًا لسياق ثقافي حضاري نفسي خاص، وسيزول بزوال ذلك السياق، بل وأتوقع عودة عالمية جامحة للدين، لكن بعد حدث حضاري يزلزل الإلحاد.

يقول دانييل بل في كتابه (التناقضات الثقافية للرأسمالية): "بعد بسط الإنسان قوته على الطبيعة، ما الأشياء التي تهدي سلوك الانسان؟ لا يمكن أن تكون في الطبيعة، إذ أنها مجموعة من القيود الفيزيائية في طرف ما، ومجموعة من الأسئلة الوجودية في الطرف الآخر، يسلك الإنسان سبيله خلالها من غير خريطة. لم يبق إلا الجواب التقليدي وغير المحبذ؛ الدين، فهو مفهوم متعالٍ خارج الانسان، وفي الوقت ذاته يصل الإنسان بما وراء نفسه".(٣٢)

فالإلحاد يناسب السياق الثقافي المترع بالتناقضات؛ حيث أسئلة المعنى والخير والشر، واللامركزيات التي تطرح أسئلة السلطة والحرية، والتعدديات التي تواجه أسئلة الهوية والتعايش، وهنا ينجذب المحلُّ القابلُ لهذا السياق المتناقض فينشأ الإلحاد.

الإلحاد ينشأ كنتيجة لإشكاليات معرفية وليس كموقف فطري تلقائي تجاه الحياة والكون، إنّه أشبه بالشخص الذي يتم إغراؤه بالاستمرار في التدخين، فالتدخين ليس حاجة فطرية أو حاجة يمليها سياق بذاته، وإلا لكانت حاجتنا للدخان كحاجتنا للأوكسجين، لكن المدخن اكتسب قابلية -استعدادًا نفسيًّا- بالتعود على التدخين، بالتالي فإنّ اختياره هو السبب في صنع حالة اللاتكافؤ بين حالته قبل وبعد، وهنا يظهر الإلحاد كحالة مكتسبة للنفس الإنسانية، فيها كثير من التجشم والمعالجة، وليست حالة تلقائية فطرية بَدَهِيَّة!

إذا أراد الإنسانُ أن يُقلع عن الإلحاد فعليه أن يبحث عن عروةٍ وثقى تجيب عن أسئلته الوجودية، وتجمع شتات الفكر والوجدان على مطلب كليٍّ واحد، تمامًا كما يأمل الفيزيائيون اليوم في الوصول إلى نظرية كلية واحدة TOE، لن يكون للنفس بعد ذلك التفات للمتشابه على حساب المحكم، ولن يخلط بين وسيلة وغاية، فلا شيء أكثر جناية على الملحد من غروره وافتراضه المسبق عدم وجود عروة وثقى.

---

(31) Armstrong, Karen (2009) "The Case For God", p9.
(32) Bell, D. (1996) "The Cultural Contradictions Of Capitalism", p166.

يقول باسكال روبنز: "لا شيء يتهدد إنسان الغرب سوى اعتداده بنفسه -غروره-، ولذا يتعين وضع حد لشهواته الأكثر إفراطًا، والحيلولة دون التحول إلى رضيع نهم مشاكس".[٣٣] فليس أشد خطرًا من انعدام البدهيات؛ ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.[٣٤]

لماذا ألحدوا؟

ما الذي حدث بالضبط؟ ما حدث ببساطة هو تضخم العقلانية الأداتية الشكلية Instrumental على حساب العقلانية الموضوعية الغائية Substantive، وتم تهميش سائر العقلانيات. ولا تعود أمراض الغرب في الأصل إلى العقلانية، ولكن إلى تأليه العقلنة- وحصر العقلنة-.[٣٥]

والإنسان الحديث آخذ في الاختفاء وراء الأدوات التي يستخدمها -كما يقول ماكس هوركهايمر-، حيث تقود العقلية الشكلية الأداتية إلى النظرة اللحظية الآنية في كل فعل، في المقابل يقوم العقل الغائي برؤية أبعد؛ فالمؤمن يفعل الخير راجيًا الثواب من الله.

مشكلة العالم أن الغرب يتخيل نفسه ذا العقلانية الأفضل والأقرب للمنطق، وبقية العالم يصدقون ذلك ويسيرون خلفه، يقول كبير فلاسفة فرنسا إدغار موران: "معظم الغربيين يعتقدون أن العقلانية امتيازٌ يخصهم وأمرٌ يستأثرون به".[٣٦] وما الإلحاد الجديد إلا عرض من أعراض ذاك العقل، الذي يُراد فرضه بشتى الحيل على العالم، وهذا العقل هو عرض من أعراض رغبة متعاظمة في التحرر والاستقلال عن الله.

لا ننكر أن هذا العقل أجاب عن أسئلة الوجود الخاص أجوبة وافية، لكنه يعاني من صمت مطبق وجهل كليّ أمام أسئلة الوجود الكبرى، المنبثقة عن وعي الإنسان ومكانه في العالم. لذا يقول الفيزيائي الملحد ستيفن واينبرج: "مهما تقدمنا في العلم سوف نظل مع سؤال لماذا؛ يبدو أن هناك معضلة متأصلة لن يتمكن العلم من اجتثاثها".[٣٧]

---

(٣٣) باسكال روبنز، "بؤس الرفاهية"، ترجمة : عبد الله السيد ولد أباه، ص١٨٠.

(٣٤) سورة الأنعام: ١١٠.

(٣٥) إدجار موران، "ثقافة أوربا وبربريتها"، ترجمة : محمد الهلالي، دار توبقال، ص٣١.

(٣٦) المصدر السابق ص٣٢.

(37) Weinberg, S. (1999) "A Designer University?", Vol.46, No16.

مشكلة العقل الأداتي الشكلي؛ أنه يقوم باختزال الأسئلة الوجودية الكبرى إلى أسئلة وجودية صغرى، ليس لأن هذا حل عقلي أو علمي، بل لأنه الحل الأوحد الذي تتيحه المادة، فلا تملك المادة تحرير جواب عن الأسئلة الوجودية الكبرى.

لكن في الواقع أن الأسئلة الوجودية الكبرى هذه تشغلُ البشر جميعًا، لأنها أسئلة مشروعة وطبيعية، ناشئة عن العلاقة التلقائية بين الوعي ومطلق الوجود، ولا تُتاح الإجابة على تلك الأسئلة إلا باستقاء من الماوراء.

إنَّ النزعة التي يتيحها العقل الغربي هي نزعة تجعل كل شيء مقصور على المادة، وهذا سبب شقاء العقل وبؤس المعرفة وعقم الأجوبة، لقد أصبح الإلحاد نتيجة لا سببًا لتلك النزعة، أما سائر الملحدين العرب فحالهم كما يقول إيليا أبو ماضي: أبصرت قدامي طريقًا فمشيت.

ما بعد الإلحاد

السياق الذي ينشأ فيه الإلحاد يكون سياقًا مترعًا بالتناقضات، ومناهض للمركزيات، ومعزز للنسبيات، وهذا يؤكد أنَّ السياقَ الإلحاديَّ سياقٌ هروبيّ. وليس سياقًا فكريًا مستقلًا.

لا يوجد ما يميز الانسان بسبب إلحاده، بل العكس هو الحاصل دومًا على المستوى الفردي، وعلى مستوى الأمم التي طبقت الإلحاد ودمرت العالم.

ولذا ظهرت نزعة ما بعد الحداثة؛ وهي نزعة تتربص بكل فكرة شمولية فتمزقها إربًا، إنّها تقوم على تدمير السرديات العلمانية الكبرى، ولذا فهي ليست أقلّ خطرًا على الإلحاد الجديد من الدين، حيث أن الإلحاد الجديد ذو سرديّة مستقلة متكاملة؛ تنزع نحو علمنة المجتمعات ودعم الليبراليات. لكن الطرح (ما بعد الحداثي) يهدد تماسك تلك المنظومة، ويفرغها من مضمونها الشمولي بتأكيده على التعددية الثقافية ومعيار النفعية.

إنَّ ما بعد الحداثة تعامل أطروحة الإلحاد -التي تدّعي التماسك والتكامل- معاملة النصوص المتخمة بالرموز والإشارات، حيث يلزم من مقتضى الإلحاد انفصال الدالة عن مدلولها، وتعدد التأويل وتفكك المعنى، وبالتالي انتصار فلسفة ما بعد الحداثة على الإلحاد، فتسود العدمية واللاغائية بديلًا عن الإلحاد المتخم بالنصوص والرموز الكاذبة -التي لا تتوافق وفلسفته-، وهنا يُجتث الإلحاد إذا وافق على نصوصه ورموزه وتقعيداته التي يبرر بها وجوده؛ ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾.[٣٨]

---

[٣٨] سورة إبراهيم: ٢٦.

(اللاأدرية)

اللاأدرية هي مرحلة منتصف الطريق، إذ لم تجزم بوجود خالق ولم تنفِ وجوده، بل تجعل كل الاحتمالات قائمة، وإذا كان التأزم النفسي الشديد قد يؤدي إلى الإلحاد تخلصًا من الدين، أو يؤدي إلى الدين تخلصًا من الإلحاد، فإن اللاأدرية تحبس صاحبها في قلب حالة التأزم.

وهي بذلك أشبه ما تكون بمرحلة عارضة طارئة، لذا فهي أقل الفرق الإلحادية الثلاث أتباعًا، إذ أن البدهيّة المُركبة في البشر هي الوصول إلى الحقائق والاستقرار عليها، وإلا ما حدث تقدم في حياة البشر، أما اللاأدرية فهي تفترض حالة من حالات منتصف الطريق، ولذا فهي غير مستساغة، ولا توجد لها ركائز داخل النفس، ولا يقبل الإنسان السوي أن يحيا ويموت تحت هذا المُسمى (لاأدري).

وفي الحديث، أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: "إن العبد الكافر يأتيه ملكان فيجلسانه، فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فينادي منادٍ من السماء أن كذب فافرشوا له من النار، وافتحوا له بابًا إلى النار، فيأتيه من حرها وسمومها".[٣٩]

والشاهد من الحديث أن هذا حال اللاأدري في قبره، نعوذ بالله من عذاب القبر!

مَن الذي عليه عبء الإثبات؟

في البداية علينا أن نقول إنَّ القضية الوجودية الكبرى لا تحتمل الركون في منتصف الطريق، ولا تحتمل عدم الوصول، فالأمر جد وليس بالهزل؛ مِن أين جئنا وإلى أين نحن ذاهبون؟!

والذي لا خلاف عليه بين المؤمن والملحد واللاأدري أن كل متع الدنيا وكل شهوات العالم لا تكفي إنسانًا يعلم أنه وُلد ليموت. فالقضية الوجودية الكبرى هي أعظم القضايا على الإطلاق، ولذا لا تحتمل أنصاف الحلول -كما تقتضي اللاأدرية-، أو التأجيل للمستقبل لعل العلم يُخبرنا شيئا -كما يقتضي الإلحاد فيما يُعرف بفجوات المستقبل المعرفية-.

الذي يؤمن بوجود الله والذي يُنكر وجوده مُطالبان بمنتهى البساطة بطرح منطقيّ متكامل، وبما أن ادعاء وجود الله له من الوجاهة والأدلة والقرائن الشيء الكثير مثل: السببية والعناية والقصد والغاية والإيجاد من اللازمان واللامكان، ودليل الحدوث، ومعجزة خلق الحياة،

---

[٣٩] رواه الإمام أحمد وأبو داوود وصححه الألباني في أحكام الجنائز ص١٥٦.

والنبوات والدين والفطرة والأخلاق، والمعايرة الدقيقة لحظة الخلق الأولى لكل الموجودات، والمعايرة الدقيقة في كل شيء حولك وداخلك، ومعضلة الخير واستيعاب الخير والشعور بالامتنان.. وما لا يمكن حصره من الأدلة.

وبناء على ذلك فإن عبء الدليل ينتقل إلى المنكر -منكر وجود الله-، وهذا ما يفعله القاضي المنصف حين يطلب دليل نفي من المتهم، خاصة لو كانت تحت يديه عدة إثباتات أو حتى قرائن. فمثلًا في قصة سيدنا يوسف مع امرأة العزيز التي راودته عن نفسه، شهد شاهد من أهلها وجاء بقرينة تدل على أنها هي التي راودته عن نفسه، وبالتالي انتقل عبء الدليل ليكون على المنكر، وبالمثل؛ نقول إن قرائن كبرى عقلية -كالتي ذكرناها- تجعل عبء الدليل في الحقيقة على المُنكِر.

لكن جميع ردود مفكري اللاأدرية والإلحاد كانت من السذاجة والسماجة بمكان، فمثلًا يقول برتراند راسل: إنه لا يستطيع إثبات وجود الله، كما لا يستطيع نفي وجود إبريق شاي يدور حول كوكب زحل، كذلك يقول الملحد المعاصر ريتشارد دوكينز: إنه لا يستطيع إثبات وجود وحش سباجيتي طائر، أو نفي وجوده، ويقول آخر: لا نستطيع إثبات وجود تنين قابع في جراج، وهذه الأمثلة يستخدمها الملحد العربي كثيرًا -بنفس القدر من السذاجة والغباء-، ولا ندري ما وجاهة هذه الأمثلة الساذجة التي لا تمت بأية صلة للعلل والمعلولات والأسباب والنتائج؟!

هل لإبريق الشاي صلة بالسببية أو الغائية أو الضبط؟

هل إبريق الشاي معلول -مخلوق-، أم عِلة -خالق-؟

هل إبريق الشاي سبب أم نتيجة؟

هذه الأمثلة الساذجة توضح أن كبار مفكري اللاأدرية والإلحاد على قدر مدهش من السذاجة، فهذا تناقض جوهري لا يفرق بين المعلول والعلة أو السبب والنتيجة؛ نحن نتحدث عن علة أولى -خالق-، لا عن مخلوق، نحن نتحدث عن سبب لا نتيجة هذا التناقض المُركب Paradox في الطرح يؤكد عدم استطاعة كبار مفكري اللاأدرية والإلحاد. مجاراة المتدينين في وجاهة الأدلة وكثرة القرائن، وحضور المنطق في الطرح. فلم يبق لهم إلا الإفلاس المعرفي والطرح المتناقض؛ الذي يعبر عن عدم استيعاب المسألة.

وبذلك يصبح عبء الإثبات Burden Of Proof إشكال دائم لدى الملحدين، لم تتم الإجابة عنه -ولو بصورة ساذجة أو بسيطة- منذ آلاف السنين، وحتى الساعة، ويظل موقف المتدين هو الأكثر عقلانية ومنطقية، خاصة مع تكامل فلسفته، ورؤيته للحياة والوجود من حوله. ولو سلمنا بصحة نظرة اللاأدرية -على العموم- للأمور، لتحولت المعرفة والعلوم الإنسانية المتراكمة عبر العصور إلى خبرات عبثية غير موضوعية، ولا يمكن الاعتداد بها.

تحتج اللاأدرية بمنطق أن خبرتنا لا موضوعية، وبالتالي يستحيل الإجابة عن مسألة وجود الله -سبحانه وتعالى-، وكأنهم يُعرفونها مسبقًا بأنها موضوعية، فمن الذي قال أنها موضوعية أو غير موضوعية؟ ومَن أدراهم أنها مسألة مستقلة وليس كمثلها شيء؟ ثم إنهم لا يضعون احتمال وصول معرفة الله إلى وجداننا بطريقة نعلمها أو لا نعلمها!

إنّ عدمَ معرفة جوهر الشيء لا تعني انتفاء وجوده، فنحن لم نعرف جوهر المادة ذاتها حتى الآن! والإنسان يستطيع الإيمان بالأشياء المجردة والمطلقة، دون القدرة على الإحاطة التامة بها، فالعقل الإنساني يستطيع أن يصل إلى حتمية وجود قوة إلهية خارجة عن أبعاد الكون التي يعهدها، وأغلب البشر يؤمنون بالله تبعًا للفطرة الداخلية، دون إعمال كثير عقل، ويتبعون الدين السائد؛ والله يفصل بينهم يوم القيامة. هناك مَن يُعمل عقله فيهتدي، أو ينحرف، حسب درجة البحث ومصداقيته.

وخارج كل هذا تقع (اللاأدرية) بلا مستند ولا ركيزة ولا معنى![٤٠]

---

[٤٠] جرت أكثر من مناظرة بيني وبين اللاأدريين، وقد جمعت هذه المناظرات في كتاب يحمل مناظرة اللاأدريين، وهو متاح على هذا الرابط لمن أراد مراجعته:

laelhad.com/index.php?p=8-0-93

(الربوبية)

وهنا نود أن ننتقل للحديث عن الربوبية؛ وهي الإيمان بالخالق مع إنكار الديانات، ونحن نعلم قطعًا -الموافق منا والمخالف- أن العلماء الناظرين في الطبيعة وقوانين الكون لم يخطر ببالهم قط أية خرافة أرضية عن آلهة وثنية، وإنما إله واحد عليم قدير، الإله الذي قال عنه داروين: "أما وجود حاكم للكون؛ فهذا مما دانت به جموع من أعظم العقول التي وُجدت على الإطلاق".(٤١)

ثم إن آثار صنع الخالق هي موضوع النظر العقلي، هذه حقيقة يجب أن نتفق عليها أولًا: فهناك ضرورة علمية متحصلة من النظر في تلك الآثار، وواجب عقلي معرفي متحصل -مثل اتصاف الخالق بالقدرة والعلم والإرادة والاختيار-. والقول بأن إمكان العلم بالخالق ممتنع عقليًا باطلٌ عقليًا وواقعيًا، وجماهير الربوبيين دليلٌ على ذلك.

فالربوبية في أصلها توكيد سامق على أن العقل يُسلِّم -مستقلًّا- بوجود الخالق الصانع القدير، لكن العقل بلا وحي يُجيزُ كلَّ الممكنات والمحالات على الخالق، وتستوي عنده الفهوم، أمّا مع الوحي فيلزمه تصحيح التصور وأن يعتقد ما يطابق الوحي. وهناك صفاتٌ للخالق وأفعالٌ لا يستقل العقل مع وجودها -كالاستواء والعلو ومباينة المخلوقات-.

الفرق بين الربوبي والمؤمن؛ أن الربوبي يفترض في الخالق الخلق وإيداع القوانين ثم ترْك الكون، بينما المؤمن يرى أن الخالق لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، والخالق كل يومٍ هو في شأن، والخالق هو الدهر يُقلب الليل والنهار، والخالق يجيب دعوة المضطر ويكشف السوء، وما من دابة إلا هو آخذٌ بناصيتها، وما من ورقة تسقط إلا يعلمها -سبحانه-.

ما الرؤية الربوبية إلا تمسك بالنماذج الميكانيكية لعقلانية عصر التنوير، وكأن الكون شيء آلي تركه الله يعمل من غير أن يتدخل فيه، فهو معرِض عنه بالكلية، ومتعالٍ عنه، وكائنٌ ورائه.

---

(41) Darwin, Charles (1902) "The Descent Of Man", p131.

إن القضية هنا هي سيطرة النموذج الميكانيكي على العقل؛ حيث تبرد مشاعر الحب، وتروج خرافة انفصال العاطفة عن الفكر -التي نقدناها فيما سبق-، وحيث تُرى المادة شيئا مستحقرًا أرضيًّا، بينما الروح شيّء متسام، ولا يوجد بينهما اتصال أو تنازل. لكن واقع الأمر أنّ الله هو خالق المادة والروح، وأنّ الله قال في كتابه "فاسجد واقترب" فالاقتراب بالجسد والروح، فالرؤية المغلوطة تسببت في عقيدة مغلوطة، لذا عندما جاءت الحركة الرومانسية في قلب أوروبا انهارت المدرسة الربوبية الجافة، وقال توماس كارليل Thomas Carlyle كلمته الشهيرة: "إله الربوبيين إله غائب، يقعد بلا عمل منذ السبت الأول خارج أطراف كونه، ليراه يعمل".[٤٢]

يعتمد تصوّرُ الربوبية على فيزياء نيوتن، وحتميات فيزيائية لم يعد لها وجود واقعي اليوم، أو بمعنى أدق ظهرت رؤى أوسع لعالم تحكمه احتمالات لا متناهية، مثل نظرية النسبية والكوانتم ونظرية تأثير الفراشة، وهنا تظهر قيومية الله في كل آن .

وهنا نؤكد على أن بنية العقل لا تتبدل بتبدل التصور، وإلا لاستحالَ علينا العودة إليها واستعادتها، ما يحدثُ هو أنّ التصور الخاطئ عن العقل يمنع عناصر تلك البنية من العمل في تناغم. ولذا يناشد ماكس بلانك العقلاء أن يعترفوا بالمكوّن الديني في حياتهم، حتى يعيشوا في تناغم واتزان.[٤٣] فنجاح الإنسان الحقيقي عند ماكس بلانك -مؤسس النظرية الكمية- في إحياء المكون الديني داخله.

إنّ الدعوة الربوبية هي دعوة استبدادية ودون مستند، فإما أن نُثبت خالق عليم قدير -معنيّ بما خلق-، وإما أن نُثبت وجوده ثم نقرر أن ننفي صلته بما خلق، وهذا لعمري يحتاج إلى دليل أكبر من الدليل الذي يحتاجه الملحد ليثبت صحة إلحاده. وعندما يأخذ العقل حقه كاملًا؛ الفطري والطبيعي، لن يتحول إلى الربوبية، لأنّ الربوبية تحييد واختزال للعقل.

فالعقل أخلاقي Moral أدبي Ethical عاطفي Emotional قيمي Value-Oriented غائي Teleological إنساني Anthropic جمالي Aesthetic كوني Cosmic، وليس عقلًا منطقيًّا Logical حاسوبيًّا Computational رياضيًّا Mathematical آليًّا Mechanical تجريبيًّا Empirical فقط.

---

[42] Thiselton, A., "A Concise Encyclopedia Of The Philosophy And Religion", p61.
[43] Planck, Max (2001) The Mystery Of Being, p161.

فالتصور الأوفق للعقل يؤسس لمطالب منطقية Logical، وعملية Pragmatic، ونفعية Utilitarian، وأخلاقية Moral. وفي هذه اللحظة سيدرك الربوبي أن كفره سياسيٌّ ونفعيّ، يختزل الجوانب الأُخرى للعقل ويحييدها ويتجاهلها بالكلية، وستكون مشكلته مع عقله -حلبة الصراع الأكبر-.

وأكبر دلائل حيازة العقل على كل ما سبق؛ أن الذي يتوسع قليلًا في استخدام الجوانب الأُخرى من عقله يتجه نحو الربوبية، مع عدم المستند النقلي، والذي يتوسع أكثر ويتبنى الاستخدام الأمثل والأكمل لعقله يدخل الآفاق الرحبة للدين!

إنّ ظهور المدارس الربوبية داخل قلعة الإلحاد يؤكد أن العقل ليس نفعيًا بصورة كليّة، وإلا لما وجِدَ المذهب الربوبي. فالخالق ليس فكرة أو خاطرة عقلية، إنما هو جزء لا يتجزأ من تمام إنسانيتنا واستخدامنا لعقولنا. ثم إن الحاجة العقلية لوجود الخالق ليست من تلفيقنا أو صنعنا، بل إنها تعتبر دليلًا إليه، ويجب أن ننظر إلى شواهد عظمة الخالق مجتمعة، لا متفرقة، فباجتماع الأدلة تكون الرؤية أكمل. لكنَّ أصلَ قضية الربوبيين؛ أنهم ينكرون قيومية الله على كل شيء، فأنكروا صفاته وأفعاله، وصاروا كمن يؤمن بالعدم.

كذلك يفترضون أن الإله يخلق دون سبب أو غاية! إنّنا نصف مَن يفعل شيئا دون سبب بالأبله، فكيف يصفون إلههم بهذه الصفة؟ ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[٤٤]، ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.[٤٥]

فإذا كنا هنا لغاية، فما المانع أن نُوجَّه إليها عن طريق رسالة سماوية؟

إن إنكار الدين يُفرغ الألوهية من جوهرها، ولا يستطيع العقل أن يصل إلى حقائق الوجود دون معونة من الرسالات السماوية.

وحريٌّ بي عند هذه النقطة أن أنقل مناظرة حول قدرة العقل على الاستقلال بالفهم، حول صفات الإله في الربوبية (أو اللادينية)، دارت هذه المناظرة بيني وبين أحد الربوبيين على (منتدى التوحيد).[٤٦]

---

[٤٤] سورة المؤمنون: ١١٥.

[٤٥] سورة ص: ٢٧.

[٤٦] منتدى التوحيد: منتدى إلكتروني على شبكة الإنترنت، مختص بحوار المذاهب الإلحادية والفكرية.

- المداخلة الأولى (د. هيثم طلعت)
ما زلت بانتظار الربوبي.. وأرجو عدم الحيدة؛ هل إلهك يفكر؟ أريد أيَّ دليلٍ عقليّ.

التعليق الأول (الربوبي)
الزميل الفاضل.. سأرد على طلبك هذا من خلال النقاط التالية؛ أولًا: إثبات صحة الربوبية لا يتطلب الإقرار بإله ذي مواصفات معينة، يتطلب فقط الاعتقاد بأن هناك خالق للكون، وبأن الوجود لم ينشأ عن طريق الصدفة، بغض النظر عن صفات هذا الخالق. وبالتالي نجاح أو فشل الربوبيين في إجابة سؤالك هذا لا يؤثر على مدى صحة الربوبية، ومسألة أن علم الله أزلي أو غير أزلي لا يمكن أن تؤدي لانهيار الربوبية. فيمكن أن أكون ربوبيًا أؤمن بوجود خالق للكون، وأعتقد أن علمه أزلي، (إذا كانت أزلية علمه هي الأقرب لمنطقي وعقلي الخاص). ويمكن أن أكون ربوبيًا أيضًا، أؤمن بوجود خالق للكون، ولكن أعتقد بأن علمه ليس أزليًا، (إذا كانت عدم أزلية علم الله هي الأقرب لمنطقي وعقلي الخاص) . في الحالتين؛ أزلية أو عدم أزلية علم الله لن تؤثر في ربوبيتي، طالما كانت الصفة منطقية وعقلانية بالنسبة لي. ثانيًا: الاعتقاد بإمكانية إثبات الكمال الإلهي -بما في ذلك أزلية العلم الإلهي- عن طريق العقل هو موقف يجد الكثير من التأييد من الكثير من المصادر الإسلامية المعتبرة . وجدت هذا الموقف لدى المحاورين في المنتدى كما في الاقتباس أدناه: "إذا أقررنا بوجود خالق للكون فمن السهل معرفة صفاته، فالذي يخلق الكون لابد أن يكون أعظم منه، والذي يخلق الذرة والخلية لابد أنه يدرك كل الأمور صغيرها وكبيرها، والذي يخلق الأحلام لابد أنه عالم بما في النفوس، والذي جعل لكل داء دواء لابد أنه يشفي من كل شيء، والذي يهلك الناس بأنواع الموت لابد أنه جبار، والذي خلق الرحمة

بين الأم ورضيعها لابد أنه أرحم الراحمين، والذي كتب الموت على الحجر والشجر والبشر لابد أنه أقوى من الجميع، والذي خلق عقل الإنسان لابد أنه عليم حكيم، والذي أبدع الكون لابد أنه بديع، والذي خلق الجميع من عدم لابد أنه الأول والآخر، والذي خلق الإنسان وجعله العاقل الوحيد بين الخلائق وسلطه عليها لابد أنه ميزه و فضله عليها جميعا، والذي فضل الأرض على جميع الكواكب لابد أنه ميزها عن غيرها".

ووجدت هذا الموقف في أحد أهم المواقع الإسلامية التي تصف العقيدة الإسلامية (الموسوعة العقدية بموقع الدرر السنية)، في الرابط التالي:

http://www.dorar.net/enc/aqadia/1244

حيث قالت الموسوعة:

"العقل يدرك بأن الرب لابد أن يكون كامل الصفات، ولكن هذا لا يعني أن العقل يثبت كل صفة بعينها أو ينفيها، لكن يثبت أو ينفي على سبيل العموم، الرب لابد أن يكون كامل الصفات سالمًا من النقص، فمثلًا؛ يدرك بأنه لابد أن يكون الرب سميعًا بصيرًا".

ووجدت هذا الموقف عند محاوري أيضًا؛ حين قال:

"وأنا أعترف أنه ربما تصل نسخة منهم (اي من النسخ المتعددة للعقيدة الربوبية) إلى حد الكمال فعليا".

ثالثًا: بالمنطق البسيط وبدون اجتهاد يمكن تصور الكمال الإلهي وأزلية العلم الإلهي..

بالنسبة لي تحديدًا؛ أقول أنني أميل للظن –ولا أجزم– بأن الله علمه أزلي، وبأنه لا يفكر.. فالجزم في صفة من صفات الله شيء لا يميل له الربوبيين عمومًا، يعتبرونه تجديفًا وتجاوزًا للحدود، إلا إذا كان المنطق الواضح والبسيط يؤكد صحة هذه الصفة، بعكس الأديان التي كثيرًا ما تقع نصوصها في التشبيه في صفات الله (بسبب دخولها في بعض تفاصيل طبيعة الذات الإلهية)، ليأتي التأويل بعد ذلك (وهو نوع من استخدام العقل بشكل مضاد للنص) لنفي ذلك التشبيه الذي جاء به النص.

أما عن سبب ميلي للظن بأن الله ذو علم أزلي؛ فبالمنطق البسيط طالما أقررت بأن الله قد خلق كل شيء من العدم، وأنه مطلق القدرة، فهو بالضرورة سيكون عليمًا بكل شيء، تصور معي الحال لو كان علم الله غير أزلي؛ في هذه الحالة ستوجد بعض الأشياء خلقها الله،

ولكنه يجهل بعض الحقائق عنها! وهذا لا يستقيم منطقًا، فالأولى بالخالق أن يعرف صفات مخلوقاته، ومن ناحية أخرى فإن المعرفة أو الحقائق أو القوانين هي في حد ذاتها مخلوقات إلهية، فكيف يخلقها الله ثم لا يعرفها!! والكون يسير وفق خطة محكمة (كما تشير كل حقائق الكون)، هذه الخطة وضعها الله فكيف يكون جاهلًا بها، وقدرة الله غير محدودة بأقصى ما يمكننا نحن البشر تصوره (كما يشهد بذلك خلق الكون)، فلابد إذًا أن يكون علمه غير محدود بنفس الحدود، فالقدرة والعلم متلازمان بالضرورة.

ولو أردت التبسيط؛ قم بسؤال أي شخص يقابلك نفس هذا السؤال (هل علم الله أزلي أم حادث؟)، فسيجاوبك هذا الشخص من عقله وبمنطقه البسيط ولن يجاوبك بنص ديني، لن يقول لك بأن علم الله أزلي لأن هناك آية كذا تقول كذا، بل سيقول لك بأن علم الله أزلي لأنه بالمنطق البسيط كذا كذا كذا، ونفس الشيء يتكرر في صفات الكمال الإلهي الأخرى التي ننسبها له، والتي يسهل اشتقاقها من المنطق البسيط، الموضوع لا يحتاج ذكاء ولا عبقرية، الموضوع تقريبًا بدهيّ.

الخلاصة؛

كل ما تقدم يجعلني أستنتج بارتياح أن إدراك الكمال الإلهي -بما في ذلك أزلية العلم الإلهي- هو شيء يمكن استنتاجه عقلًا، وبقدر من اليسر والبداهة، ولا يصح أبدًا أن نقول بأن هناك من لا يصل للحق ويضل إذًا، فالحق هلامي وغير واضح، ولا يمكن الوصول للحق عقلًا، ولو صح ذلك لأمكن اعتبار أن الـ٩٠% من البشر ممن لا يؤمنون بالإسلام على نهج الكتاب والسنة الصحيح، هم بمثابة حجة تثبت ضبابية الإسلام وعدم وضوحه، وتثبت أن من غير الممكن الوصول لقناعة بصحة الإسلام عن طريق العقل فقط.

أما قولك: "بالمناسبة هناك مليارات البشر يستخدمون أيضا الدليل العقلي للتأكيد على أن الرب يفكر ويتدبر ويعيد حساباته، وتوجد بالكتاب المقدس نصوص كاملة تؤكد أن الرب يفكر ويتدبر ويعيد حساباته -كما ورد في سفر التكوين الإصحاح الثامن والتاسع-؛ فبعد أن هلك الهالكون بطوفان نوح ندم الرب على ذلك وقال: "وقال الرب في قلبه: لا أعود ألعن الأرض أيضا من أجل الإنسان، لأن تصور قلب الإنسان شرير منذ حداثته. ولا أعود أيضا أميت كل حي كما فعلت" سفر التكوين، الإصحاح الثامن، العدد ٢٢.

يوجد الآن مليارات من البشر يستخدمون الدليل العقلي لتبرير هذا الكلام في الكتاب المقدس، ولا تُحدثني عن سخافة عقول هؤلاء، لأنهم يستخدمون نفس الدليل العقلي الذي تستخدمونه تماما، أم تعتبرون أن الدليل العقلي حصري على الربوبيين؟

وهكذا تشترك الديانات الكفرية والمذاهب الربوبية في سب الإله وشتمه، فالعقل الذي يُنزه هو العقل الذي يُوثن، فالعقل قاصر إلى حد بعيد، ولابد من نور الوحي، ولابد من النقل لإثبات صفات الكمال لله عز وجل".

أستاذي الفاضل.. أرى منطقك غريبًا بعض الشيء في هذه المسألة؛ أنت تقول بأن الكتاب المقدس فيه آيات تشير إلى أن الله يفكر ويعيد حساباته، والمؤمنين بالكتاب المقدس يستخدمون العقل لتبرير ذلك الشيء، إذًا استخدام العقل يمكن أن يؤدي للاعتقاد بأن الله يفكر !

يا سيدي الكتب (المقدسة) -والتي هي مقدسة فقط عند من يقدسها- هذه الكتب لا مجال فيها للعقل؛ الكتاب المقدس يقول أشياء كثيرة تنافي أبسط قواعد العقل والمنطق، وأنت تعرف ذلك جيدًا، وبالطبع المؤمنون بها يلجأون لنفس الأساليب التي يستخدمها جميع المؤمنين، لتحقيق التواءم الصعب بين العقل والنقل، فَهُمْ:

- إما أن يتهموا العقل بالقصور.
- أو يلجأوا لتأويل النص.

ولكنهم مع ذلك -أعني المسيحيين واليهود- يستحيل أن يقبلوا في عقيدتهم شيئا هم يقرون بأنه شيء لاعقلاني أو لامنطقي، فهذا يهدم أساس عقيدتهم، وأنا بدون أن أرجع لأي مصدر وبدون أن أبحث كنت متأكدًا بأنهم يُأوِّلون هذه الفقرة التوراتية لينفوا عن الله صفة التفكير أو الندم، وفعلًا كان تقديري صحيحًا، عندما بحثت في المصادر المسيحية وجدت ذلك تمامًا، وإليك المصدر:

http://www.gotquestions.org/arabic/arabic-god-change-mind.html

..من ناحية أخرى وبنفس قياسك، فإن القرآن نفسه فيه من الآيات التي يمكن أن يفهم من ظاهرها بأن الله يفكر ويتراجع عن قراراته، وما أكثر الآيات القرآنية الناسخة لآيات أخرى، والتي لا يمكن تبريرها بضرورة التدرج في إنزال الأحكام، وما أكثر الآيات والأحاديث التي

تصف انفعالات إلهية –حزن، ضحك، فرح.. إلخ–، وكل هذه الانفعالات تناقض علم الله الأزلي (لو أخذنا بظاهر النصوص دون تأويل).

أعلم أنه مع التأويل كل شيء يمكن أن يفسر لإزالة هذا التناقض، ولكن لماذا تتحامل على التوراة إذًا، وتتهمها بأنها تتهم الإله بأنه يفكر ويعيد حساباته، أيحق لكم فقط التأويل ولا يحق لهم ذلك؟!

الخلاصة:

باختصار شديد.. المشكلة تكمن فقط في ظنك الخاطئ بأن النصارى يدّعون بأن الله يفكر، وهذا غير صحيح، النصارى يأوّلون النص الذي سقته أنت لينفوا عن الله صفة التفكير والحيرة والندم، تماما كما يأوّل كلُّ المؤمنين نصوصهم حين تعارض العقل، وتأويل النصارى لهذا النص يثبت بأن العقل والتفكير السليم يتعارضان مع فكرة أن الإله يفكر أو يغير رأيه، لذا لمّا رأى النصارى تعارض هذه الفقرة التوراتية مع العقل قاموا بتأويلها؛ يعني الدليل هو ضدك وليس في صالحك؛ فهو يثبت –بداهة– فكرة أزلية علم الله الازليّ وتوافقها مع العقل (مثلها مثل صفات الكمال الإلهي الأخرى).

– المداخلة الثانية (د. هيثم طلعت)

نهاية الربوبية كمذهب باعتراف الزميل الربوبي المحاور؛

هو يقول: "فيمكن أن أكون ربوبيًا أؤمن بوجود خالق للكون، وأعتقد أن علمه أزليّ (إذا كانت أزلية علمه هي الأقرب لمنطقي وعقلي الخاص)، ويمكن أن أكون ربوبيًّا أيضًا، أؤمن بوجود خالق للكون، ولكن أعتقد بأن علمه ليس أزليًا (إذا كانت عدم أزلية علم الله هي الأقرب لمنطقي وعقلي الخاص).

في الحالتين؛ أزلية أو عدم أزلية علم الله لن تؤثر في ربوبيتي، طالما كانت الصفة منطقية وعقلانية بالنسبة لي".

تقول القاعدة المعرفية يا زميلنا: "لا يمكن التفكير في النسبي إلا بما هو نسبي، ولا يمكن التفكير في المُطلق إلا بما هو مُطلق".

بتطبيق هذه القاعدة على كلام الربوبي السابق والتالي؛

"الجزم في صفة من صفات الله شيء لا يميل له الربوبيون عمومًا، يعتبرونه تجديفًا وتجاوزًا للحدود".
يكون الناتج؛ الرب في المذهب الربوبي هو نسبيٌّ وليس مُطلق.

انتهى الحوار..

انتهت الربوبية.

انتهت المناظرة.

في الواقع هذا ربوبي لا يملك الحد الأدنى من احترام إلهه، وهذا ناتج الربوبية؛ (شتم الإله).

إلهكم نسبي أيها الربوبيون! الزميل يقول إن الربوبيين يُجمعون على نسبية الإله –نسبية صفاته–، فلا يمكن الجزم بوجود صفاته من عدمها؛ "ربما يكون علم الإله أزلي وربما لا يكون كذلك. الإيمان بنسبية الإله = الإيمان بالعدم = الإيمان بالحجر = الإيمان بآلهة بشرية عديدة = الإيمان بالشيء ونقيضه في آنٍ واحد .

إنها نهاية الربوبية كمذهب.
هل يُعقل أن تكون سرعة الضوء مطلقة وقوانين الثرموديناميك مطلقة وثوابت الكون مُطلقة وخالقها نسبي؟!

هل يُعقل أن يسمح الله لنا بتحديد سرعة الضوء بالملليلمتر في مسافات تبلغ آلاف الكيلومترات في الثانية الواحدة، ولا يسمح لنا أن نعرف صفات خالق الأكوان ويتركنا أمام عبث عقلي ساذج لا يستطيع محاوري أن يثبت صفة من صفات الله، ويجزم أن جميع الربوبيين كذلك حيارى تائهين .

يقول الربوبي: "الجزم في صفة من صفات الله شيء لا يميل له الربوبيون عمومًا، يعتبرونه تجديفاً وتجاوزاً للحدود"
ألم تكتفوا من شتم الإله بعد؟! أتؤمنون بإله يتصف بكل هذه النواقص؟!
أنت تعترف أن العقل قاصر عن معرفة صفات الإله، ويمكنك أن تجزم بصفة من صفاته في نفس الوقت الذي يمكنك فيه نفيها، العقل الذي يجزم هو العقل الذي ينفي!
أما زلت ربوبيًا يا صديقي؟

ألا تتفق معي الآن أن حتمية النقل -الدين- يفرضها العقل وإلا لظل في حيرة أبد الدهر؟
أنت تقول: "الاعتقاد بإمكانية إثبات الكمال الإلهي -بما في ذلك أزلية العلم الإلهي- عن طريق العقل هو موقف يجد الكثير من التأييد من الكثير من المصادر الإسلامية المعتبرة".

ما دخلك أنت بالمسلمين أو بالمصادر الإسلامية المعتبرة؟
لماذا كلما ضاقت بكم السبل أو ضيقنا عليكم المسالك تذهبون إلى عقيدتنا؟
لماذا ٩٥% من المداخلات في منتدياتكم الإلحادية والربوبية مخصصة للحديث عن الإسلام؟
لماذا تعجزون عن تكملة حوار من أوله لآخره في عقيدتكم ومذهبكم دون التطرق لعقيدة الآخر؟

الآن ما دخل العقيدة الإسلامية بالحوار؟
إما أن تُعطينا حججك على مذهبك دون التطرق للآخر، أو تُسلِّم بإفلاس المذهب وعقم العقل.
هذا الحوار مخصص للحديث عن صفات الإله في اللادينية، إذا كانت لك أدلتك المستقلة فقدمها، أمّا إذا كنت لا تناقش إلا بناء على ما عند الآخر، فقد حكمت على مذهبك بالضياع والانحلال الذاتي.
وقولك: "أما عن سبب ميلي للظن بأن الله ذو علم أزلي".
ميلك وللظن؟
تميل وتظن؟
يعني هذا وجود زميل ربوبي آخر لا يميل لذلك ولا يظن، ويرى أن علم الإله غير أزلي؟
هل أيقنت الآن أن هناك نسخ لا نهائية من تصورات الإله داخل المذهب الربوبي، وتتعدد بتعدد أفراد المذهب، وبتعدد التجارب الشخصية والخبرات لكل عضو؟
هل أيقنت الآن أن العقل الذي يؤله هو العقل الذي يوثن، وهذا يُسقط أصل أصول المذهب الربوبي؟
هل يُعقل أن يترك خالق الأكوان العقل داخل هذه المتاهة الفكرية والظنيات والتخمينات، أو

بتعبيرك (الظن والميل)؟
هل يُعقل أن يسمح الله للإنسان بتحديد ثوابت الكون بجزء من مليار مليار جزء بمنتهى الضبط والإتقان، ويترك أهم شيء في الوجود بدون شاهد، و يترك معرفته للظن والميل والهوى؟

لكن زميلنا الربوبي أحضر لنا الدليل العقلي على علم الإله الأزلي، أخيرًا أجاب عن السؤال!
الربوبي يقول: "تصور معى الحال لو كان علم الله غير أزلي، في هذه الحالة ستوجد بعض الأشياء خلقها الله، ولكنه يجهل بعض الحقائق عنها، وهذا لا يستقيم منطقًا، فالأولى بالخالق أن يعرف صفات مخلوقاته".

هل يعقل هذا؟ هل من الجائز عقلًا أن يصنع الصانع ما لا يعرف كل أبعاده؟
ثم عندما يقول: "تصور معى الحال لو كان علم الله غير أزلي، في هذه الحالة ستوجد بعض الأشياء خلقها الله، ولكنه يجهل بعض الحقائق عنها "
فهذا لا يثبت عقليًا أن علم الإله أزلي؛ إنّ صانع شاشات البلازما يجهل كيفية تناسق الإلكترونات داخل الشاشة بحيث لا تترك ثغرات غير ممتلئة، ويجهل كيفية التواصل فيما بينها، ومع ذلك يتم تصنيع الشاشات، فالجهل بهذه الأمور لم يمنع من تصنيعها .
إذًا ما زالت الإجابة فارغة!
فأنت يا صديقي لا تملك دليلًا عقليًا على أن علم الإله أزلي، مما يقضي على أصل أصول الربوبية؛ وهو الاعتماد على العقل في تحديد صفات الإله والإيمان به.

أما قولك: "ومن ناحية أخرى وبنفس قياسك ، فإن القرآن نفسه فيه من الآيات التي يمكن أن يفهم من ظاهرها بأن الله يفكر ويتراجع عن قراراته".

يا رجل ما دخلك أنت بالقرآن؟
عندما يكون هناك حوار حول القرآن أطرح أدلتك العبقرية التي لم يكتشفها جهابذة الأمة!
هذا الشريط مخصص للحوار حول صفات الإله في المذهب الربوبي.
عندك المقدرة على الدفاع عن مذهبك، دون التطرق لعقيدة الأخر على الرحب والسعة.
عاجز ومفلس ومذهبك لا يسعفك ومذهبك يوقعك في حرج شديد لبطلانه عقليًا باعترافك، لا بأس أن تنسحب.

أما اللف والدوران ومحاولة التملص فلن يجدي في الدفاع عن مذهبك.

يا صاح!

الوثنية تمثل أكبر ضربة للمذهب الربوبي:

سيظل يوجد المليارات من البشر –الوثنيين– يؤمنون بتصورات خاطئة للعقيدة الإلهية، معتمدين في ذلك أيضًا على أدلة عقلية، وبنفس الثقة التي يتحدث بها الربوبيون عن الذات الإلهية، فإن كان العقل مصدر خلل وتشويش، ومصدر الاعتقاد بالشيء ونقيضه في آنٍ واحد، فكيف يُسلمنا الإله للعقل في هذه القضية الخطيرة للغاية، بل هي أخطر شيء في الوجود؛ كيف يُسلمنا لهذا التشويش والإرباك دون نقل –ديني– يحسم القضية؟ هل يُعقل أن يجعلنا نصل لليقين في مسائل فيزيائية مادية ومعادلات قاصرة الفائدة ولا نصل لليقين في أصل الوجود وغاية كل البشرية؟

صدقني أنتم أكبر شتامين للإله ولدتهم البشرية!

هل ما زلت تُماري في ضرورية النقل؟

الآن ما الفرق بين الربوبي وبين الشيطان؟

ألا يمكن اعتبار الشيطان ربوبيًا صالحًا والعكس صحيح؟

أليس الشيطان مؤمنًا بوجود الله؟ هل تنكر ذلك؟

أليس يستوي عندكم الراهب والفاجر، ألستم تجهلون غاية الوجود؟ إذًا هنيئًا للشيطان بمذهبكم الرائع!

المذهب الذي يجد فيه الشيطان ما يبرر ضلالاته هو –حتمًا– مذهب شيطاني.

ما الفرق بين الربوبي وبين عُباد المال والجنس؟

عُباد المال والجنس يؤمنون بوجود الله، وليس عندهم الوقت ولا الاهتمام الكافي بتكاليف شرائع الدين، وبما أنه يستوي في مذهبكم أفجر الناس وأرهب الناس للذات الإلهية، إذًا من الحماقة عقليًا تضييع الوقت في مماحكات ميتافيزيقية. وكما يقول المفكر الإنجليزي جون لوك: "إذا كان كُل أمل الإنسان قاصر على هذا العالم، وإذا كنّا نستمتع بالحياة هنا في هذه الدنيا فحسب، فليس غريبًا ولا مجافيًا للمنطق أن نبحث عن السعادة ولو على حساب الآباء والأبناء".

هل يوجد مذهب على وجه الأرض يؤمن بوجود الله وفي نفس الوقت يكون الإيمان بوجود الله كعدمه؟

ما الفرق بين الربوبي والملحد؟

ظاهريًا الربوبي والملحد مختلفان في أصل الأصول، وبينهما أودية وأنهار ومفاوز لا أول لها! لكن في الواقع هذا الفرق الشديد لا أثر له في العمل، وهذا من أعجب العجب، أن يكون الفريقان على عقيدتين متعارضتين وفى نفس الوقت على نفس العمل، أحدهما يعتقد بعدم وجود إله والآخر يعتقد فى وجود إله ورغم ذلك فهم لا يتميزون فى السلوك والعمل إلا من باب الذائقة الشخصية، فما هذا الإله الذي وجوده كعدمه؟!

في النهاية أنتِ ما زلت داخل الفخ!

والفخ الذي وقعت فيه هو اعترافك ضمنيًا بوجود نسخ لانهائية من تصورات الإله داخل المذهب الربوبي، حيث تتعدد النسخ بتعدد أتباع المذهب وبتعدد قدراتهم العقلية والتغيرات المزاجية والنمو الفكري لكل فردٍ منهم، كيف بالله عليك يُحكَم العقل في أعظم شيء في الوجود، وكيف ينتهي التحكيم العقلي إلى هذه المأساة من النُسخ اللانهائية لتصورات العقيدة الإلهية، فهل يوجد مذهب عبر القرون بهذه الهشاشة والضعف والتعددية؟ أليست الوثنية أكثر عقلانية من مذهب تتعدد أصوله بعدد أتباعه؟

الآن الزميل الربوبي مطالب بـ:

١- الإجابة عن السؤال الرئيس الذي لم نجد له جوابًا حتى الآن.

٢- الخروج من الفخ الذي أوقع نفسه فيه.

٣- هل يوجد فرق بين الربوبي والشيطان في العقيدة والعمل أم في النهاية المحصلة واحدة؟

٤- هل يوجد فرق بين الربوبي وعُباد المال والجنس، أم أيضًا في النهاية المحصلة واحدة؟

٥- هل يوجد فرق بين الربوبي والملحد، أم مرةً أخرى في النهاية ستكون المحصلة واحدة؟

- التعليق الثاني (الربوبي)
عن جد يا دكتور ، أسلوبك في الحوار عجيب، أنت تفهم كلامي بالطريقة التي تروق لك ثم تبني عليه استنتاجات خاطئة، ومستعجل جدًا لإعلان انتصار وإنهاء المناظرة! يمكنني أن أستعمل نفس طريقتك وأعتمد على قولك: "أمامنا أربعة نسخ عن صفات الإله، تختلف كل نسخة اختلافا جذريا عن النسخة الأخرى، وأنا أعترف أنه ربما تصل نسخة منهم إلى حد الكمال فعليا". ثم أقول لك إن المناظرة انتهت، فهذا الإقرار الذي قدمته أنت كافٍ جدًا بالنسبة لي لإثبات صحة عقيدتي الربوبية، (بالطبع ما لم ينقض أحد ركنيها عبر إثبات صحة أحد الأديان، أو إثبات عدم وجود إله). ووجود فهم خاطئ بين الربوبيين لطبيعة وخصائص الذات الإلهية (بفرض وجوده) لا يضير الربوبية، فلا يضير أي حقيقة في هذا الكون وجود من يحيد عنها ويعجز عن استيعابها، والإسلام مثلاً تدرك صحته بالعقل، ولكن هناك ٩٠% من البشر ممن لم يصلوا لقناعة عقلية بصحة الإسلام "بشكله السلفي الأمثل"، فهل يضير ذلك الإسلام، أو يدفعنا للقول بأن تفاوت أفهام البشر يعني ضبابية الإسلام وعدم وضوحه واستحالة الوصول لقناعة بصحته عن طريق العقل؟ ملحوظة: يمكنك أن تجعل هذه المناظرة نزهة عقلية جميلة وذات فائدة جمة لي ولك ولكل من يتابعها، ويمكنك أن تجعلها غير ذلك، والخيار متروك لك، ولعلك تعرف أن سياسة الصوت العالي في المناظرات تأتي دائمًا بنتائج عكسية. مداخلاتك المتعددة -٦ أو ٧ مداخلات- كلها تدور حول نفس الأفكار، ولو أخذت في الاعتبار النقاط التالية التي سأسردها، ستجد فيها ردًا شافيًا على كل ما طرحته، فأرجو تأمل هذه النقاط بعمق، وأرجو أن يكون ردُّكَ القادم مبنيًا على هذه النقاط فقط؛ فهي تلخص الاختلاف بيننا، وإليك بتلك النقاط: - الربوبية تقوم على الاعتقاد بوجود خالق للكون -بغض النظر عن طبيعة هذا الخالق-، ونفي صحة الأديان الحالية.. فقط لا غير، ويمكن في هذا الصدد فهم الربوبية كخط

متصل؛ يبدأ من نقطة رفض الإلحاد، وينتهي في نقطة رفض الأديان، وفي هذا الخط عدد لا نهائي من النقاط، بعض هذه النقاط -داخل الطيف الربوبي- تنظر لصفات الإله نظرة (لاأدرية)؛ فترفض إلصاق كل أو بعض الصفات به، وبعض هذه النقاط تتعدى مسألة وصف الإله بالكمال لتفترض نوعًا من التدخل من هذا الإله في حياة البشر وفي سير الكون، وكل هذه النقاط هي مرحب بها ومعترف بها داخل إطار التنوع الربوبي، طالما لم تتجاوز حدي ذلك الخط.

من وجهة نظر ربوبية فإن الإله لا يطالب البشر بأن يدركوا خصائصه على الوجه الأكمل ويعرفوا صفاته على حقيقتها -كما في الإسلام-، فليس هناك نار مثلًا تنتظر من يخطئ في وصف الإله بوصوف الكمال، ولو كان الإله يأبه بذلك فعلًا أو يريد أن يعرفه البشر حق المعرفة ويدركوا صفاته الحقيقية -حسب المعتقد الربوبي- لقام الله بإلقاء هذه المعرفة في قلوب البشر جميعًا، أو جعل من صفاته حقائق بدهيّة واضحة لا يختلف فيها اثنان، كما يختلف اثنان حول أن لون اللبن أبيض تقريبًا وأن الشمس حارة نسبيًا..

من ناحية أخرى؛ فالربوبية لا تلزم معتنقيها بمعتقد رسمي محدد، والربوبيون يبنون قناعاتهم كلًّا على حدة، فليس لديهم نص مقدس، ولا رجال دين.. الربوبية تدعو أتباعها فقط للالتزام بمقتضيات العقل والمنطق والمنهج الصحيح في الوصول للمعرفة، واتباع منهج صحيح في البحث والتفكير، دون التقيد بنص (مقدس)، أو خوف من مكر الله، أو من كيد الشيطان، أو خوف من التعرض لشبهة بحجة أنها توهن الهمة، ودون حجب العقل خوفًا من شكّ يؤدي للطرد من رحمة الله وخلود في النار، بالعكس الشك عندنا مرحب به ومحمود.

الربوبيون في الواقع معظمهم يؤمنون بالكمال الإلهي واتصاف الذات الإلهية بصفات الكمال، أنا أؤمن بذلك، والزميل عيسى الربوبي يؤمن بذلك، وأحسب أن كل من مر بهذا المنتدى من الربوبيين يؤمن بذلك، وفكرة الكمال الإلهي عمومًا هي الفكرة السائدة داخل التيار الربوبي.

بعض الربوبيين يفضلون تبني موقف (لا أدري) فيما يتعلق ببعض أو كل صفات الخالق، انطلاقًا من قناعتهم بأن العقل البشري عاجز تمامًا عن إدراك حقيقة الإله، ولكن لا يوجد ربوبيٌّ واحد ينفي صفة من صفات الكمال عن الله، ومن يتخذون موقفًا لا أدريًا بالنسبة

لصفات الذات الإلهية يفعلون ذلك من منطلق صعوبة استيعاب صفات الله عن طريق العقل، ومن منطلق أن تلك الصفات هي وصوف بشرية مصنوعة بواسطة العقل البشري، ووفق التصورات البشرية التي قد لا تصلح في التعبير عن حقيقة الذات الإلهية، وليس من منطلق وجود شك في امتلاك الإله لصفة من صفات الكمال.

العقل البشري -ووفقًا لمعطياته الحالية- قادرٌ على إدراك حقيقة اتصاف الله بصفات الكمال، يؤمن بذلك معظم الربوبين، ويؤمن بذلك أيضًا الكثير من المسلمين، وغيرهم من البشر، والقرآن يشير لذلك ضمنًا (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا)، حتى النصارى الذين تتعارض نصوصهم بوضوح مع حقيقة اتصاف الله بصفات الكمال، قاموا بتأويل النصوص لإثبات صفة الكمال الإلهي، لأنها الاقرب للعقل والمنطق.

عدم قدرة البعض على إدراك حقيقة ما -إذا كانت هذه الحقيقة على درجة كافية من الوضوح- بسبب ضعف في منهج البحث أو خطأ المعطيات أو بسبب قلة الاطلاع هو شيء لا يضير تلك الحقيقة، ولا يبرر القول بأن تفاوت الناس في قدرتهم على إدراك تلك الحقيقة يستوجب استعمال وسيلة أخرى غير العقل لإدراكها، ولو كان حيد البعض -أو حتى الغالبية- عن إدراك الحقائق، والتزامُ الحقِّ يعدُّ عيبًا ونقصًا يحسب على هذا الحق، لكان الأولى هو اتهام الإسلام الذي لم يؤمن به في شكله السلفي الصحيح إلا أقل من ١٠% من البشر، فهل يصح القول بأن الإسلام غامض وضبابي، وأنه يستحيل معرفة الدين الصحيح باستخدام العقل؟

هذه خلاصة ما أريد شرحه وإيصاله عن المذهب الربوبي، وهو كافٍ في نظري لدحض كل ادعاءاتك، وفي المداخلة القادمة سأقوم بالربط بين هذه النقاط وبين ما ورد في مداخلاتك من هجوم على الربوبية، لأبين لك كيف أن هجومك هو قائم بالأساس نتيجة لعدم فهمك لهذه النقاط أو إهمالك لها.

- المداخلة الختامية (د. هيثم طلعت)
الربوبي يقول: "عن جد يا دكتور، أسلوبك في الحوار عجيب، أنت تفهم كلامي بالطريقة التي تروق لك ثم تبني عليه استنتاجات خاطئة، ومستعجل جدا لإعلان انتصار وإنهاء المناظرة". المناظرة انتهت يا زميل باعترافك أنت وبأدلتك العقلية أنت . الآن ركز معي قليلًا حتى أُريك كيف أنك أنت الذي أجهزت على المذهب، وأصبح المذهب باعترافك مجرد فخٍّ كبير! الآن رجاءً ركز قليلًا في الكلام. عندما سألتك هل إلهك يفكر؟ قلتَ: "السؤال يبدو لي فخًّا، ولكن سأجتهد لإجابته وبشكل عام فأنا أفهم التفكير على أنه عملية عقلية يتم من خلالها معالجة المدخلات للوصول لاستنتاجات أو قرارات ، وهذا لا يجوز على الله؛ فالله يعرف كل شيء يقينا، فهو خالق كل شيء وبالتالي وبالمنطق هو مطلع على كل شيء، الله علمه أزلي، وقدراته لا محدودة، وهذا يتنافى مع وصفه بأنه يفكر، فالذي يفكر هو ينقصه علم اليقين بخصوص شيء ما، مما يدفعه للتفكير به، وهذا يتنافى مع صفات الله". وبالفعل السؤال كان فخًا؛ فلو قلت أن الإله يفكر، إذًا انتهت الربوبية وانتهى المذهب وانتهت المناظرة كما فصلنا من قبل. وبعدها بمداخلتين بالضبط وقعت أنت في نفس الفخ -سبحان الله- واعترفت أن المذهب الربوبي يقول بنسبية صفات الإله -احتمال الشيء ونقيضه على الإله-، عدم الجزم بصفات للإله، احتمال يكون علم الإله أزلي واحتمال يكون علم الإله غير أزلي، وكلتا الحالتين وكلا التصورين عن الإله كلاهما يقول بهما المذهب، وكلاهما صحيح المذهب، وهذا باعترافك أنت حيث قلت: "وفي هذا الخط عدد لا نهائي من النقاط، بعض هذه النقاط -داخل الطيف الربوبي- تنظر لصفات الإله نظرة (لاأدرية)، فترفض إلصاق كل أو بعض الصفات به، وبعض هذه النقاط تتعدى مسألة وصف الإله بالكمال، لتفترض نوعًا من التدخل من هذا الإله في حياة البشر وفي سير الكون، وكل هذه النقاط هي مرحب بها ومعترف بها داخل

إطار التنوع الربوبي".

إذًا لاحظ الكلمة (داخل الطيف الربوبي)؛ أي أن النسخ اللانهائية لتصور الإله في المذهب الربوبي ليست خطأ في المذهب، وليست خروجًا على المذهب، ليست تمردًا على المذهب، وإنما هي أصل المذهب.

إذًا القول بالشيء ونقيضه هو أمر من مسلمات المذهب.

إذًا أنت وقعت في الفخ الأول -الذي كنت تحذر منه- وانتهت المناظرة.

لقد كنت تحذر أن تقع في الفخ، وتحذر أن تقول إن الرب يفكر، ثم أتيت بعد مداخلتين بالضبط لتقول بالنسبية على الإله داخل المذهب، وتقول بجواز القول بالشيء ونقيضه، وتقول بوجود نُسخ لا نهائية لتصورات الإله داخل المذهب. إذًا يجوز القول بأن الإله يفكر داخل المذهب.

بالفعل أنت أنقذت نفسك من الوقوع في الفخ لكنك أوقعت المذهب بأكمله داخل الفخ!

ونحن هنا لا نتناظر حول معتقدك أنت يا زميل، ولا يعنيني تصورك الشخصي للإله، فمناظرتنا حول المذهب إجمالًا، وحول ما يقول به المذهب، وليس حول تصورك الشخصي.

إذًا ماذا تبقى يا زميل؟

لقد انتهت المناظرة.

انتهت الربوبية.

الآن نأتي لتفنيد مداخلة زميلنا الربوبي حيث أوقع نفسه في مغالطات منطقية كثيرة.

الفخ الجديد الذي وقع فيه زميلنا الربوبي حين قال: "ووجود فهم خاطئ بين الربوبيين لطبيعة وخصائص الذات الإلهية -بفرض وجوده- لا يضير الربوبية، فلا يضير أي حقيقة في هذا الكون وجود من يحيد عنها ويعجز عن استيعابها، والإسلام مثلًا تدرك صحته بالعقل، ولكن هناك ٩٠٪ من البشر ممن لم يصلوا لقناعة عقلية بصحة الإسلام (بشكله السلفي الأمثل)، فهل يضير ذلك الإسلام أو يدفعنا للقول بأن تفاوت أفهام البشر يعني ضبابية الإسلام وعدم وضوحه، واستحالة الوصول لقناعة بصحته عن طريق العقل؟".

هل النسخ اللانهائية لتصور الإله في المذهب الربوبي هي خطأ في المذهب وخروج عن روح المذهب، أم أنها أصل المذهب؟

السؤال بصيغة أخرى:

هل التصورات اللانهائية للذات الإلهية والقول بالشيء ونقيضه كما اعترفت أنت وقلت: "يجوز أن يكون علم الإله ازلي، ويجوز أن يكون غير ذلك"

هل هذه التصورات اللانهائية المتناقضة هي تمرد على المذهب وكفر بالمذهب، أم أنها أطياف المذهب المتنوعة ووجوهه الكثيرة؟

السؤال بصيغة ثالثة:

هل الأطياف اللانهائية لوصف الإله داخل المذهب الربوبي هي ما يقول به المذهب، وكلها تحت خط المذهب، أم أنها تمثل ربوبية غير سليمة؟

الآن إجابتك مشكورة موجودة داخل مداخلتك :"وفي هذا الخط عدد لا نهائي من النقاط، بعض هذه النقاط –داخل الطيف الربوبي– تنظر لصفات الإله نظرة (لاأدرية)، فترفض إلصاق كل أو بعض الصفات به، وبعض هذه النقاط تتعدى مسألة وصف الإله بالكمال، لتفترض نوعًا من التدخل من هذا الإله في حياة البشر وفي سير الكون، وكل هذه النقاط هي مرحب بها ومعترف بها داخل إطار التنوع الربوبي –طالما لم تتجاوز حدي ذلك الخط–".

إذًا الآن هل اتضح لك مما سبق أنه لا يوجد شيء اسمه: "وجود فهم خاطئ بين الربوبيين لطبيعة وخصائص الذات الإلهية"؟

لأن أي فهم خاطئ للذات الإلهية، سيقع ضمن الخط الربوبي وضمن المذهب الربوبي وداخل الحظيرة الربوبية!

بل إن كلمة "فهم خاطئ للذات الإلهية" هذه الكلمة تدل على أنك لا تفهم أي شيء عن الربوبية؛ لأن كل فهم للذات الإلهية داخل المذهب الربوبي هو فهم صحيح وسليم –طالما كان بالأدلة العقلية–، فمن أين لك بوجود فهم خاطئ داخل المذهب الربوبي؟

كل فهم داخل المذهب الربوبي حتمًا هو فهم صحيح، ولذا يوجد عدد لا نهائي من

التصورات للإله داخل المذهب الربوبي، وهذا ما اعترفت أنت به، بل وأكدّت عليه، إذًا هذه الأفهام اللانهائية للذات الإلهية لا تمثل خطأ في المذهب أو تمردًا على المذهب أو هرطقة في المذهب، بل هي أصل المذهب.

هل أدركت الآن خطأك الجسيم في فهم الربوبية؟ هل أدركت الآن أنك لا تستوعب أبعاد المذهب الربوبي؟ هل أدركت الآن عمق الفخ الذي أوقعت نفسك فيه حين قلت: "وجود فهم خاطئ بين الربوبيين لطبيعة وخصائص الذات الإلهية"؟

لأن هذه العبارة تنسف كل فهمك للربوبية وكل أصول المذهب الربوبي، لأنه مذهب يقوم على التعددية الفهمية، وليس حصريًا لعقل دون عقل ولا لفهم دون فهم.

أما قولك: "وفي هذا الخط عدد لا نهائي من النقاط، بعض هذه النقاط –داخل الطيف الربوبي– تنظر لصفات الإله نظرة (لاأدرية)، فترفض إلصاق كل أو بعض الصفات به، وبعض هذه النقاط تتعدى مسألة وصف الإله بالكمال لتفترض نوعًا من التدخل من هذا الإله في حياة البشر وفي سير الكون، وكل هذه النقاط هي مرحب بها ومعترف بها داخل إطار التنوع الربوبي".

إذًا أنا كلامي صحيح.

إذًا هناك نسخ لا نهائية من تصور الذات الإلهية داخل المذهب الربوبي.

طيب أنت الآن تطرح المشكلة؟

أين الحل؟

أم أن هذا أمر مفرح بالنسبة لك حتى تذكره على سبيل العرض لا التفنيد؟

هذه كارثة..

لذا نقول أن الربوبية هي انتحار للعقل.

هل يُعقل أن يسمح الله لنا بتحديد قوانين الكون بدقة تبلغ جزء من مليار المليار من الجزء ولا يسمح لنا أن نعرف صفاته وغايته من خليقته؟

هل يُعقل أن يرزقنا الله بهرمونات لو اختلت بمقدار جزء من مليون جزء من الملليلتر

لتحولت حياة الإنسان إلى جحيم، ثم لا يرزقنا معرفة الغاية من خلقنا، والتي هي أهم من كل نعم الدنيا،

فمعرفة الغاية من وجودنا هي أهم من كل علوم الدنيا وكل نعم الدنيا.

هل يعقل أن يسمح لنا بمعرفة أعمق علوم المادة والطبيعة التي نستطيع أن نستغني عنها شاكرين، ولا يسمح لنا بمعرفة أعظم ما يشغل الذهن الإنساني عبر كل العصور، بل ويتركنا أمام عقل عابث قاصر –باعترافك-؟ عقل يفترض صور لا نهائية للذات الإلهية، عقل يفترض الشيء ونقيضه، عقل يفترض العدم والكمال ولا يستطيع أن يؤكد أيهما الأصح، وأنت على سبيل المثال –كأحد العقول داخل المذهب الربوبي– لم تستطع أن تثبت أن علم إلهك ازلي، وبالتالي لن تستطيع أن تثبت أي صفة للذات الإلهية، وبالتالي لو ألزمتك عقلًا أنك تعبد العدم لن تستطيع تفنيد أدلتي العقلية، فهل يعقل أن الذي خلق الأكوان والأفلاك بهذا الإحكام وهذه الدهشة والرهبة يتركنا أمام عقول حائرة قاصرة تفترض وتقترح وتضع عددًا لا نهائيًّا من الاحتمالات بخصوص أهم ما في الوجود؟

أليس هذا شتمًا مباشرًا لإلهك يا زميل يا ربوبي؟ ألست بذلك تنسف مذهبك وتصفه بالعقم اللانهائي والسخف الشديد؟

أما قولك: "من وجهة نظر ربوبية؛ فإن الإله لا يطالب البشر بأن يدركوا خصائصه على الوجه الأكمل ويعرفوا صفاته على حقيقتها –كما في الإسلام–، فليس هناك نار مثلًا تنتظر من يخطئ في وصف الإله بوصوف الكمال، ولو كان الإله يأبه بذلك فعلًا أو يريد أن يعرفه البشر حق المعرفة ويدركوا صفاته الحقيقية –حسب المعتقد الربوبي– لقام الله بإلقاء هذه المعرفة في قلوب البشر جميعًا، أو جعل من صفاته حقائق بدهيّة واضحة لا يختلف فيها اثنان، كما يختلف اثنان حول أن لون اللبن أبيض تقريبًا وأن الشمس حارة نسبيًا".

لا يا زميل ليس الأمر بهذه البساطة؛ عندما تعرف صفات الإله ساعتها ستعرف الغاية من وجودك أنت، والغاية من كل شيء حولك، وتعرف ما بعد الموت، وتعرف الحكمة والغاية والهدف، وتحدد المسار وتعرف الاتجاه!

فليست معرفة صفات الإله مجرد لغو كلامي ولا معرفة نظرية مجردة، بل ينبني عليها تصورك

لكل شيء في الوجود من حولك.

بل إن معرفة صفات الإله تجيب عن كل الأسئلة التي تحير كل العقول البشرية، وتجد من خلالها الأجوبة مباشرةً، فمعرفة صفات الإله هي المعرفة الكلية.

وقد كان أندريه جيد المفكر الفرنسي الشهير أكثر ذكاء منك، فعندما طلب منه طه حسين يومًا أن يسمح له بترجمة أعماله إلى العربية، فرد عليه أندريه جيد مندهشًا وقال: "يدهشني اقتراحك.. الإنسان المسلم يحمل من الأجوبة أكثر مما يثير من أسئلة".

فالعقل الذي يعرف صفات الإله يعرف أنه وجد الطريق وانتهت المسألة بالنسبة له، بينما الذي ينكر النقل هو باعترافك أنت يطرح نسخ لا نهائية للذات الإلهية -أي يستحيل أن ينجو ضمنيًا-. لذا يقول الدكتور عبد الحليم محمود -رحمه الله- شيخ الأزهر السابق: "فالدين سفينة والعقل لوح خشب وقلّ من نجا بلوح خشب".

أما عن كون الإله كان من المفترض أن يضع معرفة صفاته في كل قلب، فالإله أرسل رسله وجعل الإيمان بهم مناط التكليف على العباد، وأجرى على ألسنتهم ما يريد من العباد وأخبرهم بصفاته وذاته، فمن شاء آمن وعرف الطريق وسلِم، ومن شاء أنكر النقل ودخل متاهة النَسخ اللانهائية من الاحتمالات بخصوص الذات الإلهية والغاية الوجودية، وساعتها لا يلومن إلا نفسه.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ سورة النحل: ٣٦-٣٦.

أما قولك: "الشك عندنا مرحب به ومحمود".

الشك محمود؟!

درس في ذم الشك:

الشك مرحلة ساذجة وسطحية وأولية في كل علوم الدنيا وفلسفاتها، ولابد للشك أن يوصل

لليقين، وإلا لاعتبر الشك هو الغاية، وتوقف عند الشك وامتدح نفسه أنه شكاك، وجميع المذاهب الإلحادية والربوبية تعتبر الشك هو الغاية، لذا هي لم تتقدم خطوة منذ أول ملحد وأول ربوبي، فالآلية العقلية لإنتاج الشك أسهل بكثير من آليات إنتاج اليقين

والشك يغلب على الحدث وقليل العلم، بينما اليقين يحتاج صاحبه إلى إعمال العقل ليغالب الشك، فإنتاج الشك أسهل وأيسر من إنتاج اليقين.

ولذا لا يمكننا استيعاب أن يكون الشك هو موقف حياتي دائم؛ بمعنى أدق يُمكن ان يُفهم هذا الموقف الحياتي كموقف عارض أو مرحلي، فمعنى أن يعيش الإنسان ويموت تحت هذا العنوان (شكاك) هذا مُخالف لطبيعة الإنسان البشرية، فلو كان الشك وعدم الفهم والرفض حالة مُريحة ومُمتعة ما حصل تقدم في حياة البشر، فبما أنه يوجد تقدم في حياة البشر إذًا البدهية المُركبة في البشر هي الوصول للحقائق والاستقرار عليها، إذًا النسبية والتذبذب مُخالفة للوجود بأسره.

ثم يأتي من يحمد الشك ويفرح به!

بل ويتبجح به.

فعلا نحن أمام عجائب المخلوقات!

أما قولك: "الربوبيون –في الواقع– معظمهم يؤمن بالكمال الإلهي واتصاف الذات الإلهية بصفات الكمال، أنا أؤمن بذلك، والزميل عيسى الربوبي يؤمن بذلك، وأحسب أن كل من مر بهذا المنتدى من الربوبيون يؤمن بذلك، وفكرة الكمال الإلهي عمومًا هي الفكرة السائدة داخل التيار الربوبي".

يا رجل هل أنت تعي ما تقول؟

هل نحن مشكلتنا ومشكلة حوارنا هي نظرتكم إلى الذات الإلهية، أم في دليلكم الذي من خلاله اقتبستم تلك النظرة؟

قلتم لنا: دليلنا العقل!

قلنا: سلمنا لكم بذلك.

الآن ما هو دليلكم العقلي على ذلك؟

يا رجل لقد كررت هذا السؤال قرابة العشر مرات "إما أن تُحضر دليلًا عقليًا على أن علم إلهك أزلي، أو تعترف بانهيار اللادينية في أهم أصل من أصولها؛ وهو اعتماد العقل في تحديد صفات الإله"، وإذا لم تحضر دليلًا عقليًا على أزلية العلم الإلهي، فلن تستطيع أن تُحضر أي دليل على أية صفة أخرى.

ومع ذلك إلى الآن لم تحضر لنا دليلًا عقليًا، وما زال الجواب متروكًا .

إذًا مشكلتكم مع العقل وليست معنا نحن، ومناظرتنا هذه هي فقط لتسليمك إلى العقل .

هل نحن أنكرنا عليكم تصوركم، أم فقط طالبناكم بالدليل والمصدر؟

هل أنت تعي أن الفرق بيننا وبينكم هو أننا نحاول أن نلزمكم بالعقل، الذي سلمتم له، وأن مشكلتكم هي مع العقل وليست معنا نحن ولا مع تصورنا أو تصوركم للذات الإلهية؟

هل تعي أن كل حواراتنا فقط لإعادتكم إلى العقل الذي انطلقتم منه؟

ما هذا الإله الذي وجوده كعدمه؟!

أما قولك: "هذه خلاصة ما أريد شرحه وإيصاله عن المذهب الربوبي، وهو كافٍ -في نظري- لدحض كل ادعاءاتك، وفي المداخلة القادمة سأقوم بالربط بين هذه النقاط وبين ما ورد في مداخلاتك من هجوم على الربوبية، لأبين لك كيف أن هجومك هو قائم بالأساس نتيجة لعدم فهمك لهذه النقاط أو إهمالك لها".

دحض ادعاءاتي؟

دحض؟

يا زميلنا الربوبي ارفق بنفسك قليلًا!

هل أنت أجبت عن السؤال الرئيسي (ما هو دليلك العقلي على علم الإله الأزلي)؟

هل أنت استطعت الخروج من فخ النسخ اللانهائية للصفات الإلهية داخل مذهبك؟

دحض ماذا يا زميل؟

أنت في هذه المداخلة أسهبت وأطنبت، وبحبة خردل ما أتيت، ثم تقول دحض .

يا زميلنا الربوبي صدقني لو كتبت ألف مداخلة لن تتحول صفات الإله في مذهبك من صفات نسبية إلى صفات مطلقة لها كل الكمال .

لو كتبت ألف مداخلة لن تستطيع أن تحضر دليلًا عقليًا واحدًا على علم إلهك الأزلي، وبالتالي لن تستطيع أن تُثبت بالعقل أية صفة من صفات الإله، وبالتالي انتهت الربوبية.

لو كتبت ألف مداخلة لن تستطيع أن تبرر وجود نسخ لا نهائية لتصورات الإله داخل مذهبك، وكلها صحيحة .

لو كتبت ألف مداخلة لن تستطيع أن تُفرق بين الربوبي والشيطان؛ لأن كليهما ربوبيّ صالح، وطالما لا قيمة للعمل إذًا الشيطان أفضل من ملء الأرض من الربوبيين،

والمذهب الذي يُسوّي بين الشيطان والإنسان هو حتمًا مذهب شيطاني.

لو كتبت ألف مداخلة لن تستطيع أن تحضر فرقًا واحدًا بين الملحد والربوبي في العمل؛ فما هذا الإله الذي وجوده كعدمه .

إذًا يا زميل –صدقني وسامحني– مداخلاتك مجرد لغو فارغ لا قيمة لها، مضيعة للوقت، مجرد نزهة عقلية، وأنت تريدها كذلك، ألم تُخبرني بذلك؟

لا يا زميل هذه مناظرة وليست نزهة عقلية،

ومناظرة مباشرة لا تقبل الحيدة أو التشتيت .

عفوًا.. انتهت المناظرة.

انتهت بفشل ذريع للمذهب الربوبي في كل شيء.

فشل في التعرف على الذات الإلهية بالعقل المجرد.

فشل في معرفة الغاية من الوجود وأهم ما يشغل الذهن البشري داخل المذهب.

فشل في تنزيه الإله، فشل في صياغة تصور شمولي للمذهب له أركانه ومفرداته. بل لقد تبين أن أهم سمات المذهب وأهم ما يميزه هو السماح بالتناقض، والقول بالشيء وخلافه داخل

المذهب، فالتناقض والتعددية هما أهم سمات المذهب، لكن الذي أعرفه أن الحق لا يتعدد، وهل يوجد أحق من الحق سبحانه وتعالى؟

فشل في إفرار .ناق أخلاقي أو معرفي أو قيمي يمثل مستندًا مرجعيًا لأتباع المذهب، لذا لا فرق داخل المذهب بين أصلح ربوبي وبين الشيطان، لا فرق بين من يؤمن بالإله ومن يكفر به، لا فرق بين الظالم والمظلوم، (عبث في عبث) هذا هو عنوان نظرة المذهب للغاية من الوجود الإنساني، ولا أعرف ما هذا الإله الذي وجوده كعدمه.

فشل في كل شيء.. إن الربوبية هي طليعة الفاشلين.

يستحيل أن تكون الربوبية هي المذهب الذي يريده الله منا،

يستحيل أن تكون الربوبية هي الغاية من وجودنا، أو هي ما يرتضيه الله لعباده،

يستحيل أن تسكن الربوبية داخل عقل يحترم ذاته أو يحترم إلهه، أو يحترم أي ذرة من ذرات هذا الوجود. .

في النهاية؛ أنا أدعو الزميل وأدعو كل ربوبي محترم إلى شهادة النجاة شهادة العقل شهادة الخلاص والإخلاص لله، شهادة السلام والتسليم لله، شهادة الحكم والتحكيم لله؛ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله .

اللهم اجعلنا هداةً مهتدين غير ضالين ولا مضلين.. اللهم آمين.

انتهت المناظرة، وانتهى حديثنا المختصر عن الفرق الإلحادية الأشهر (الإلحاد، اللاأدرية، الربوبية)، راجيًا أن يكون المراد من تسمية الباب قد اتضح لديك، لكن الرحلة ما زالت مستمرة إلى الفصل الثاني .

الباب الثاني

ماذا يقول الملحدون؟!

ماذا يقول الملحدون؟!

١) يقول الملحد: الكون ضخم، فما معنى أن يهتم الخالق بكرة الأرض الصغيرة تلك؟

كثيرًا ما يتناول الملاحدة مسألة ضخامة حجم الكون وضآلة حجم الأرض، وبالتالي حجم الإنسان، لكن هذا الكلام يشتمل على صحة افتراض أن ضخامة حجم الشيء أو ضآلته مؤثر في المسألة، وهو فرض مجرد عن أي دليل.

فليست العبرة بالحجم الحسي للإنسان، وإنما بالحجم المعنوي لأشياء بلا حجم؛ كالأخلاق والصدق والأمانة، ولو كان للحجم في ميزان الله أدنى اعتبار لكانت السماوات والأرض أولى بحمل الأمانة، ثم إن الحيتان أضخم من الميكروبات بمليارات المرات، فهل هذا يعني أن الحيتان أهم من الميكروبات؟ وما معنى كلمة (أهم) هنا؟ وما القيمة الجدلية لهذه الكلمة (أهم)؟ وهل الله يهتم بالكائن الضخم لضخامته ولا يهتم بالكائن الصغير؟!

أم أنه كفل للجميع الرزق والنظام الأنسب. ثم إن السماوات والارض مصدرهما نقطة أصغر من رأس الدبوس –أصغر من بروتون الذرة بمليارات مليارات المرات–، أليس كذلك يزعم كل فيزيائيي العالم طبقًا للبيج بانج؟

أيضًا الحجم نسبي؛ ولو تحولت المجموعة الشمسية كلها إلى ثقب أسود فلن تتجاوز كيس مقرمشات صغير. إذًا فالقضية ليست بالأحجام، والحكم على الأشياء لا يكون بالوزن أو الثقل! القضية هي إدراك هذه الأشياء واستيعابها.

والآن، هل هناك شيء يستوعب هذه العلاقات بين الأحجام إلا الإنسان؟ هل من شيء يدرك الفوارق إلا الإنسان؟ هل يدرك القوانين وضخامة الأفلاك وعظمة الخلق وروعة الإعداد بعناية إلا الإنسان؟ من غيره يصف جمال الوردة الحمراء وروعتها؟ من يرصد مدارات الأفلاك وروعة المنظومة الفيزيائية التي تحكم الكون؟

إذًا لا يختلف العلماء على أن الإنسان مركز الكون إدراكيًّا وسيكولوجيًّا وفيزيائيًا، ومنذ الأزل (دينيًا).

٢) يقول الملحد: تأخر ظهور الكون معضلة؛ فلماذا خلق الله الكون في هذه اللحظة دون غيرها؟

الإشكال الأكبر في الفكر الأرسطي -والذي تأثر به فلاسفة المسلمين؛ أمثال الفارابي وابن سينا- هو استحالة تأخر المعلول (العالم المادي) عن العلة الأولى (الله سبحانه وتعالى)؛ أي استحالة تأخر النتيجة عن السبب. لذا قالوا بـ(قِدم العالم)؛ فلو تأخرت النتيجة عن السبب، أو تأخر المعلول عن العلة فلماذا اختار الله أن يؤثر وقتًا لاحقًا ليوجد فيه العالم؟ وكيف نقرر بذلك أن إرادته وقدرته صفات قديمة قائمة؟

هذا السؤال السفسطي أجابه عليه الغزالي -منذ قرابة ألف عام- في كتابه (تهافت الفلاسفة) وانتهى أمره، لكن نظرًا لحداثة أسنان القوم؛ ما زالوا ينقلونه بلا وعي، ويظنون أنها أسئلة حديثة تفتقت عنها أذهانهم، لذا قررنا أن نُحرر جواب الغزالي -رحمه الله- هنا مرّة أُخرى.

ذهب الإمام الغزالي -رحمه الله- إلى عدم استحالة تأخر النتيجة عن السبب؛ فما المانع أن الله أحدث العالم في وقت مُعين بإرادة أزلية؟!

إنّ الله ذو قدرة وإرادة أزليتين قديمتين، لكن آثار تلك الإرادة والقوة تحدث متى شاء. أما تخصيص الله لوقت لاحق فلا شيء فيه؛ لأن الأزمان جميعها متساوية قبل ظهور الأحداث فيها -اللازمان بلغة الفيزياء المعاصرة-. وقد وافقَ ابنُ رشد الغزاليَّ بجواز تأخر النتيجة عن السبب، ولكنه أضاف أن الله لم يؤثر وقتًا على وقت، بل آثر خلق العالم على عدمه. وتقدم الله على العالم هو تقدم بالذات -ذاته سبحانه وتعالى-، وليست تقدم بالزمان؛ لأنه خالق الزمان والمكان، فالله لا يلحقه زمان أصلا، والله ليس كمثله شيء، ولا أول له، وهذا هو الحل الوحيد الذي يُفسر لنا وجود العالم، وهو جوهر الإسلام وركن عقيدته الأكبر!

٣) يقول الملحد: فكرة الخلق من عدم هي (قالب جاهز) يقدمه المؤمن ليريح به ذهنه!

نظرية التطور -مع الفارق- جواب جاهز؛ فالصدفة تُشكل فراغًا تفسيريًّا بامتياز، وبالتالي هذا يلزم الملحد بناءً على معنى التفسير الذي قيّد به نفسه، ولا يُلزمنا نحن.

بل يجب عليه أن يحلل كل ظاهرة وفق أسباب علمية يمكن فهمها وتحليلها، فلا الصدفة ولا التطور يتيحان التحليل العلمي، وإن كانت فكرة الخلق لا تحمل التفسير، ففكرة الصدفة والتطور ينطبق عليها الأمر كذلك!

ثم من عجيب الأمر أن المحقق عندما يدخل في حلبة الأسباب، بل إن المعجزة –عند لمنهجنا– لا تخرج عن مطلق السببية، وإن خالفت المعهود؛ فلم يكن الخلق يوماً من الأيام نافياً لحقيقة الأسباب.

٤) يقول الملحد: خبرتنا البشرية ربما تكون نسبية، وبالتالي فكيف نحتكم لمعطياتها؟!

يتمرد الملحد على الاحتكام لخبرتنا البشرية وقياسنا، ونحن نقول: بأي دليلٍ من خارجنا نحن مطالبون بالتمرد عليها وعدم الاحتكام إليها؟ أم أنه جدال بهدف الجدال؟ ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾.[1]

٥) يقول الملحد: مجموع طاقة الكون يساوي الصفر!

مجموع طاقة الكون لا يساوي الصفر، طبقًا لمعطيات مسبار WMAP[2]. لكن لنفترض أن مجموع طاقة الكون= صفر، ثم استخدم قانون (−) + (+)= صفر.

هل القانون يُسير المنظومة ويستقل بالوجود قبلها؟ أم أن القانون تابع لوجود المنظومة؛ وهو صورة تفاعلات المنظومة وصيغة عملها؟ هل للقانون وجود مادي حتى نفترض أن معرفة القانون تُبرر الوظيفة؟ هل للقانون وجود أنطولوجي قَبلي، أم هو مُعطى استيعابي لطبيعة التفاعل؟

القانون هو: استيعاب انتظام تفاعلات مادية تعطي نتيجة واحدة مُتكررة بصورة ملحوظة، يمكن رصدها وفهمها! ثم إن معرفة القانون لا تُغني عن المُتقن، بل تزيد الأمر وضوحًا وتبيانا فوجود الظاهرة ورصد نمط عملها لا ينفي الحاجة إلى تعليلها، بل يزيد الحاجة لذلك.

يقول الدكتور عمرو شريف في كتابه (وهم الإلحاد): "هل معرفة قانون الاحتراق الداخلي في السيارة ينفي وجود مُقنن للسيارة ومُسبب لها وغاية من صنعه لها؟ ألا يكون استبعاد مُقنن السيارة من المنظومة خطأ منطقي ومنهجي؟".[3] المشكلة أن الملحد العربي يلعب على وتر جهل القارئ، ويتقافز بالمغالطات المنطقية ليبني منظومته التشكيكية، وتمتلئ مقالاته بكلمات مثل (ظهر فجأة، وحدث، وولد، وطفا، وقفز، وبزغ..)، إنها ألفاظ أقرب للسحرة والدجاجلة من العلماء والتجريبيين، فلا تنشغل بدجلهم قبل أن تمتلك ناصية ما يتحدثون عنه.

---

[1] سورة الكهف: ٥٤.

[2] مسبار ويلكينسون لقياس اختلاف الموجات الراديوية أو Wilkinson Microwave Anisotropy Probe.

[3] د. عمرو شريف، "وهم الإلحاد"، هدية مجلة الأزهر لشهر المحرم ١٤٣٥ هـ.

٦) يقول الملحد: نموذج (هوكينج-هارتل) يحلل نشأة الكون من لا شيء!

نموذج (هوكينج-هارتل) أو النموذج الكمومي للكون، يعتمد على مفهوم الزمن التخيلي Imaginary Time؛ وهو تطبيق لمفهوم الرقم التخيلي الذي طرحه هاوكنج لأول مرة. فإذا بحثنا عن الجذر التربيعي لرقم (-٤) لن نجد رقمًا حقيقيًا، لذلك قام هاوكنج بوضع رمز (x) ليشير إلى هذا الرقم الذي لا وجود له، وعندما وضع (x) في معادلاته الخاصة بحساب الزمن، نتج زمن تخيلي، عندما استخدمه هاوكنج في حساباته أزال الحاجة إلى موجد أول.

يقرر سير هربرت دنجل Sir Herbert Dingle -رئيس الجمعية الفلكية الملكية بإنجلترا- أن مفهوم الأرقام التخيلية إذا كان صحيحًا من الناحية الرياضية، فلا اعتبار له في الناحية التطبيقية، ويستدل على ذلك بمثال يعرفه كل دارسي للرياضيات؛ إذا كان عدد الرجال المطلوبين لوظيفة ما هو (X)، وكان (X) في بعض المعادلات له عدد من الاحتمالات الموجبة والسالبة، عدد صحيح وكسر وعدد تخيلي، عدد مركب وصفر ولا نهاية.. أو أي شكل من الأشكال التي ولدتها عقول الرياضيين، فإننا بالتأكيد سنعتبر x (عدد الموظفين المطلوبين) رقم صحيح موجب، ونرفض باقي الاحتمالات، إن الرياضيات لا تستطيع وحدها الاختيار بين البدائل في المثال السابق، وستعتمد على المنطق والخبرة والتجربة.

ومن ثَم فإن الزمن التخيلي -الذي نشأ عن وضع الأرقام التخيلية في معادلات هاوكنج- لا اعتبار له، وسينقلب إلى زمن حقيقي إذا استُبدل الرقم التخيلي برقم حقيقي، عندها ستظهر الحاجة إلى المسبب الأول. إذًا الجذر السالب ليس كمية فيزيائية، وبالتالي ليس له وجود فيزيائي. وبالتالي؛ ونظرًا لسذاجة نموذج (هوكنج-هارتل) لم يعد يعوَّلُ عليه -حتى من قِبَل الملاحدة- في تفسير نشأة الكون.

٧) يقول الملحد: الكون منظم جدًا ومنضبط بقوانين على المستوى الماكرو Macro - المستوى الكبير-: "إذًا الله غير موجود، لأن القوانين تفسر لنا كل شيء"، بينما يقول ملحد آخر: الكون غير منضبط بتلك القوانين على مستوى المايكرو -المستوى الصغير تحت الذري-، "إذًا الله غير موجود؛ لأن هناك عشوائية"!

هذه خلاصة تضارب الملحد العربي في ظلال العلم، المهم أن يخرج بنتيجة مسبقة دوغمائية تدعم موقفه وإنكاره لوجود الله، حتى ولو كان طرحه العقلي متناقض، ويلزم منه الاستحالة العقلية؛ فتارة يخرجون علينا بحجة النظام، وتارة يخرجون علينا بحجة اللانظام!

أما بخصوص انضباط الكون على مستوى الماكرو –مستوى المجرات والكواكب والأفلاك–؛ فهل وجودِ القانون ينفي وجود مقننه أم يؤكد وجوده وروعة خلقه؟!

ثم إن القانون يحتاج إلى زمان ومادة ينطبق عليهما، والوجود جاء من اللازمان واللامكان، أم أن الملحد يفترض أسبقية القانون على الوجود المادي؟

أما بخصوص العشوائية على مستوى المايكرو –دون الذري–؛ فلا وجود للعشوائية، إنّ عالم المايكرو الكوانتي يسير وفق معادلات رياضية صارمة لا يحيد عنها، مثل معادلة شرودينجر Schrödinger Equation، ومعادلة هايزنبرج Heisenberg Equation، ومعادلة بلانك أينشتاين Planck–Einstein Equation، وكلها تصف حالات كمومية مختلفة.

لكن الواقع في مستوى الميكرو هو التعدد الاحتمالي، وليس العشوائي، وهنا نخرج بحقيقة (قيّوميّة) الله –سبحانه وتعالى–؛ فالله قيوم السماوات والأرض، كل يومٍ هو في شأن من شئون عباده، فهو سبحانه يمسك السماوات والأرض أن تزولا ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾.[1]

لأن زوالهما احتمال كوانتي قائم، فقيوميته عامه وخاصة؛ حيث يستحيل أن يخرج الكون بهذا الضبط على مستوى الماكرو من احتمالات لا نهائية في المجال الكوانتي المايكرو! إلا لأن الله قيوم السماوات والأرض والحافظ لهما في كل وقت، يخلق ما يشاء، ويختار الأصلح والأنسب لخلقه ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾.[2]

فهو وحده سبحانه الذي يضمن دوام الكون وضبطه إلى أجلٍ مسمى.

٨) يقول الملحد: كل شيء له سبب؛ فلماذا لا ينطبق الأمر على الخالق ذاته؟

أولا: إنّ قولنا (لكل شيء سبب) لا يمنع وجود خالق، بل يؤكد وجوده، فلماذا يقوم الملحد بترحيل قضية كفره إلى هذا السؤال السفسطي؟،وكأن إلحاده ليس حل في ذاته، وإنما هو موقف وقتي، إلى حين إيجاد جواب لهذا السؤال!

ثانيا: لكل شيء سبب، لكن الله سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾.[3]

---

[1] سورة فاطر: ٤١.

[2] سورة القصص: ٦٨.

[3] سورة الشورى: ١١.

ثالثا: الحل الديني لهذه المسألة ذكي وبسيط، ويستوعبه أي عاقل، فالخالق غيب ولا ينطبق عليه ما ينطبق على مخلوقاته، بالتالي فبدهيّة أن (لكل شيء سبب) لا تتعارض مع من ليس كمثله شيء. والخالق خارج حدود الزمان والمكان، ومُوْجِدُ الزمان والمكان؛ فلا تنطبق عليه قوانين موجوداته بداهة.

رابعا: الحل الذي يقول بالتسلسل اللانهائي ممتنع عقلا، ونسوق ههنا مثال الجندي و الرصاصة؛ فلو أنّ جنديًا يريد إطلاق رصاصة، ويحتاج لأمر من قائد أعلى منه، والقائد يحتاج لأمر من قائد أعلى منه.. إلخ، إلى ما لا نهاية، فلن تنطلق الرصاصة أبدا. والمثال يبين كون التسلسل السببي إلى ما لانهاية ممتنع، ويجب وجود سبب أول -لا سبب له- بدأ السلسلة. هذا واجب عقلي ومنطقي، وعليه فهذا السبب بالتأكيد ليس كمثل أي شيء -ميتافيزيقي-.

خامسا: الطرح الديني في هذه القضية هو الطرح الأكثر منطقية وعقلانية، والأكثر إحكاما، فوجود خالق ليس من هذا الكون، وليس كمثله شيء، أزليّ، موجد للكون وخالق له؛ هو الحل الأقرب للعقل.

٩) يقول الملحد: معرفة القانون تغني عن وجود المقنّن!

قمنا بالرد على هذا الادعاء منذ قليل وقلنا إن القانون لا يغني عن المقنن، ونُضيف هنا خطأ منطقيًا في السؤال؛ فافتراض أن القانون يُغني عن المقنن، هذا خلط بين السبب الأول والآلية؛ إنه يشبه الخلط بين آلية قانون الاحتراق الداخلي للسيارة ومصممها مستر فورد، فهذا خلط بين مستويات مختلفة، وليس بين بدائل، وهذا يُعرف بالخطأ الطبقي Category Error.

فالقوانين احتاجتِ من يكتبها ويُخرجها إلى الوجود، ومَن يمدها بفاعليتها واستمراريتها، ثم إن المادة لم تنتجها القوانين، بل العكس هو الحاصل.

القوانين هي توصيف رياضي لما يمكن أن يحدث تحت ظروف معينة، فالقانون يتبع ظهور المادة، وهو يحتاج إلى ركنين أساسين؛ الزمن -الذي يطبق فيه القانون فاعليته-، والشيء المادي -الذي يطبق فيه القانون عمله-، والوجود جاء من اللازمان واللامكان، أي لم يكن ثمة قانون سابق.

١٠) يقول الملحد: تفسير كل شيء بنسبته للخالق هو سد ثغرات معرفية لا أكثر!

بخصوص فكرة آلهة سد الثغرات المعرفية؛ فمستر فورد لم يكن جزء من الآليات الميكانيكية لآلة الاحتراق الداخلي في السيارة، ولم يكن خطوة من خطوات معادلات عملية الاحتراق، لكنه المسئول عن وجود الآلية التي تحمل بصمات عقله وعمل يديه.

فالعلم يرينا بصمات الخلق والتصميم والوعي والارادة والإيجاد والضبط والمعايرة الدقيقة.

الإله الخالق ليس لسد الثغرات كما يزعمون، وإنما هو تفسير ما علمناه وما فهمناه، وهو تفسير (لماذا صار العلم قادرًا على التفسير؟)، ولماذا العلم موجود، فالإله ليس شرطا لما نجهله، بل هو شرطٌ لما نعلمه.

١١) يقول الملحد: حسنًا؛ أقر بوجود تصميم في الكون، وعناية وضبط.. لكن لماذا ننسب هذه الأمور لخالق؟

أفضل الفرضيات الممكنة بالنسبة لمعطياتنا المعرفية -وبعيدًا عن الدين- هي وجود الخالق. بل إن فرضية الخالق هي الأفضل على كل المستويات النفسية والوجودية معًا، وهي الجواب عن (لماذا؟)، وهي الجواب عن معنى تطلعنا لما وراء الزمان والمكان، وهي الجواب عن الأسئلة الوجودية الكبرى، وإن كان الملحد قادرًا على إخراس جميع تلك الأسئلة، فهذا ليس جوابًا.

وتصوُر وجود الإله ليس حاجة مشروعة، بل حاجة مُلحة؛ فالعقل هنا لا يبتدع فرضية، وإنما يُعبر عن حاجة ضرورية ضرورة الماء والهواء، بل إن استيلاء سؤال الخلق على خاطر الطفل ما أن يبدأ في النطق والحكي أمرٌ معلوم، فضرورة الصانع مغروزة منذ وقتٍ مبكر جدا، قبل تشكل الوعي ذاته. فالعقل في أقصى درجات فطريته لا ينفك يسأل عن الصانع!

١٢) يقول الملحد: سأسلمَ لك بوجود الخالق؛ نظرًا لوجود الخلق والتصميم في الطبيعة، لكن لماذا تستبعد أن يكتشف العلم أخطاء في التصميم؟

ما معنى قولنا بأخطاء التصميم في عالم لا تصميم فيه؟ هل يُتصور الخطأ من دون افتراض قدر صالح من التصميم؟ أليس افتراض وجود خطأ، هو أكبر دليل على التصميم؟ لو لم يكن كوننا أخلاقيًا لما كانت لمجازفة الملحد بإلحاده معنى، ولو لم يكن الكون مُصممًا لما كان لافتراض عدم التصميم معنى!

١٣) يقول الملحد: لا نجد آثارا لتدخل الخالق!

هذا كلام خاطئ؛ فالتدخل الإلهي في كل جزء على مليار جزء من الثانية –كل فيمتو ثانية بالضبط يحدث تدخل إلهي–، وإلا لتوقفت الحياة. و(الفيمتو ثانية) هي الفترة الكافية لحدوث تفاعل كيميائي يمكن رصده!

وأي تفاعل كيميائي يحدث داخل الخلية يسير عكس قانون الديناميكا الحرارية الثاني؛ فهذا القانون يشترط أن الكون يسير نحو الهدم والتبسيط والتفكك، بينما التفاعل في الخلية يسير نحو البناء والتعقيد! فالحياة تسير عكس قوانينها. وهذا لا يحدث إلا في حالة تدخل إلهي في كل لحظة، وهذا ينسف أيضًا المذهب الربوبي القائل بالعزلة الالهية –تعالى الله عما يقولون–.

١٤) يقول الملحد: الإنسان اخترع الإله، أو على حد تعبير فولتير: "لو لم يوجد الإله لكان من الضروري اختراعه"!

أولا: فولتير لم يكن ملحدًا الإلحاد الاصطلاحي المعروف هذه الأيام، وإنما كان ربوبيًا.

ثانيا: هذه الكلمة جزء من قصيدة قالها فولتير نقدًا للكنيسة، ومن المعلوم أنه كان لا يطيق النظام الكهنوتي المتسلط.

ثالثا: هذه الكلمة من أبلغ ما قيل في التعبير عن داعي الفطرة؛ فهذه آية من داخلنا قبل خارجنا على عناية الخالق، وأننا مُصممون لاستيعاب وجوده، وهذا يعني أن طريق الوصول للخالق ليس بالمنطق وحده أو بالعقل، بل بالفطرة والوجدان.

رابعا: فولتير هنا يقرر حقيقة توصَّلَ لها علمُ النفس المعرفيّ منذ زمن قريب؛ وهي أنه حتى أطفال ما قبل المدرسة يؤمنون ويستوعبون وجود خالق للأشياء الطبيعية، لا المصنوعة، بينما يؤمنون أن قدرة غيره تقتصر على الأشياء المصنوعة لا الطبيعية.[1]

خامسا: إذا كان الخالق فرضية مخترعة، فكيف يكون هذا التمييز الفطري بين الأشياء الطبيعية والمصنوعة، ونسبة الطبيعي للخالق فقط؟

وهذا نص القرآن الكريم قبل اكتشاف فولتير، وقبل تقرير جاستين باريت، ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾.[2] هذا كلام القرآن الذي يقرر حقيقة نفسية فطرية للبشر، قاله رجل عربي بدوي كان يرعى الغنم على قراريط لأهل مكة!

سادسا: هذا الوعي المبكر أفضل مصادقة على فطرية الإنسان للدين والإيمان.

---

[1] Barret, J.L. (2000) Exploring the Natural Foundations of Religion, p.30

[2] سورة لقمان: ١١.

١٥) يقول الملحد: للدين فوائد كثيرة، وللطقوس الدينية فوائد نفسية جمة؛ وهذا دليل على أن الإنسان اخترعها!

كأن الله لا يجوز لهٰ أن يخلق شيئا ويجعل فيه فائدة! هذا هو التفكير التحليلي الإلحادي؟!

١٦) يقول الملحد: صفات الخالق في الأديان تشبه صفات المخلوق!

صفات المخلوق على وجهٍ ما (تشبه) ولا تماثل صفات الخالق؛ وهذا غير ممتنع، فوجود بعض صفات في الفرع تشبه و(لا تماثل) بعض الصفات في الأصل هذا لا يمنعه عقل ولا دليل. لكن هنا قد يقول الملحد: أنتم بذلك تُصورون الخالق على صورتكم لا أكثر!

في الواقع؛ إن الملحد نفسه لو لم يكن يدرك صفات الإله إدراكًا فطريًا، لما استطاع أن يؤسس لنقده أو يؤسس لإلحاده بناء على ما يراه مخالفًا لما انطبع في فطرته من صفات وأفعال الخالق، فأصل إلحاد الملحد يقوم على أنه يعرف فطريًا صفات الإله وطبيعته وأفعاله؛ وعندما يجد ما يخالف ما انطبع في فطرته -ولم يُحط بعلمه- فإنه يضيف هذه المخالفات إلى رصيده الإلحادي الذي أسس له؛ إذ لو لم يكن الملحد يعرف الإله وصفاته وأفعاله فطريًا لما ألحد! ولما استقامت له الشبهات ولا استوعبها أصلا؛ فإذا سلك الإله عكس ما يتوقع الملحد ثارت ثائرته، واعتبرها حجة لديه، وهذا يؤكد أنه يستقر في فطرته صفات الخالق وأفعاله.

إذًا كلنا يعرف الإله لأن الله -ببساطة- هو الذي خلقنا ورزقنا العقل، الذي نتجاوز به حدود العالم المادي في تفكيرنا وتصوراتنا إلى الماوراء، وتستقر صفات الإله في فطرة كل منا.

إن أكفر البشر وأشدهم إغراقًا في الوثنية يعلمون أن لهم خالق متجاوز؛ وما هذه الوثنيات إلا وسائط لهذا الخالق. وليست التعديلات اللاهوتية في التثليث المسيحي على يد توما الإكويني -ومحاولات صبغ التثليث بالوحدانية- إلا نتيجة محاولات المقاربة بين الفطرة التوحيدية والتثليث!

إن كل العلماء والفيزيائيين والمفكرين والفلاسفة حين يتفكرون في الخالق لا يستقر في أذهانهم إلا صورة الإله الخالق الواحد المتجاوز، ولن يقفز إلى أذهانهم أية صورة وثنية أرضية.

لكن هل بالفعل نحن نُصور الإله على صورتنا؟

الحقيقة لصفات الله تعالى؛ لكن الإسلام يقرر حقيقة ما انطبع في الفطر من صفات الكمال، إلا أنه يضع ضابطا استقر عليه السلف، حتى لا تنحرف الأفهام، ونظل على الصبغة التي صبغ الله الناس عليها، والضابط هو؛ أننا نُثبت لله الصفات التي وصف بها نفسه في كتابه، أو نقلها لنا رسوله -صلى الله عليه وسلم- في الأحاديث الصحيحة، بلا تأويل ولا تشبيه ولا تمثيل ولا تعطيل ولا تكييف، كما قال سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [1]

١٧) يقول الملحد: هناك ملايين يموتون جوعا؛ وهذا يخالف تكفل الله بالرزق!

المشكلة في قصور مفهوم الرزق -لديك- على مجرد الإطعام والمال فقط، وجهلوا أن مفهوم الرزق أوسع وأشمل من مجرد المال والطعام بكثير؛ فكل ما امتن الله به على عباده من العطايا هو رزق، فالمال والطعام والصحة والزواج والإنجاب والسمعة الطيبة ومحبة الناس وحُسن الخلق والذكاء والفطنة والنجاح.. إلخ.

كلها أرزاق من الله -عز وجل-، ولو سايرنا الملحد في افتراضه وتصوره:

- لوَجَبَ على الله تعالى أن يُطعم كل عباده فلا يبقى أحدا جائعا أو يتركه يموت جوعا.

- لوجب عليه كذلك أن يرزق كل عباده بالمال، فلا يكون منهم فقير.

- لوجب عليه -سبحانه وتعالى- أن يرزق كل خلقه بالزواج رجالا ونساء، فلا يبقى أحد على وجه الأرض دون زواج.

- لوجب على الله تعالى أن يرزق كل عباده بالذرية والأولاد، فلا يكون بين عباده عقيم.

- لوجب على الله تعالى أن يرزق كل عباده بالصحة والعافية، فلا يَمْرض منهم أحدًا

وإلا لو منع الله رزقه أو ضَيّقه على بعض عباده في هذه الأمور؛ فمعنى ذلك أنه لم يتكفل بأرزاقهم، فهل يعقل هذا؟!

لو أعطى الله (كل عباده) (كل شيء) ولم يمنعهم أو يضيق عليهم في (شيء) لامتنعت سنة ابتلاء الخلق، بل ولَمَا كانت هذه دنيا أصلًا؛ فالرزق الواسع الذي لا ينقطع ولا يمتنع في الجنة فقط لا غير.

---

[1] سورة الشورى: ١١.

تكفل الله تعالى بحفظ الرزق وإيصاله لكل عباده؛ بحيث لا تموت نفس حتى تستكمل رزقها قليلًا كان أو كثيرًا، وأجلها طويلًا كان أو قصيرًا؛ فقد قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "إنّ رُوحَ القُدُسِ نَفَثَ في رُوعِي أنّ نَفْساً لنْ تَمُوتَ حَتّى تَسْتَكْمِلَ أجَلَها وَتَسْتَوْعِبَ رِزْقَها، فاتّقُوا الله وأجْمِلُوا في الطَّلَبِ، ولا يَحْمِلَنَّ أحَدَكُمُ اسْتِبْطاءُ الرِّزْقِ أنْ يَطْلُبَهُ بِمَعْصِيَةِ الله، فإنّ الله تعالى لا يُنالُ ما عِنْدَهُ إلاّ بِطاعَتِهِ".[1]

ولذا نسأل الملحد سؤالًا أخيرًا: هل هؤلاء الذين توفاهم الله تعالى في مجاعة أو ما شابه قد استكملوا أرزاقهم وآجالهم، أم ماتوا دون أن يستكملوا أرزاقهم وآجالهم؟

إن أجاب الملحد: نعم قد استوفى هؤلاء أرزاقهم وآجالهم. فقد نقضوا شبهتهم بأنفسهم؛ ووافقوا القرآن والسنة فيما جاءا به.

وإن أجاب الملحد: لا لم يستوفوا أرزاقهم ولا آجالهم؛ فقد ماتوا لأن الله لم يرزقهم أو لأنه قد ضيق عليهم.

فأسأله -والسؤال لكل عاقل منصف-:وهل كان الرزق الواسع سببًا في منع الموت عن أصحابه؟! هل يموت الأغنياء أصحاب الأموال الطائلة أم لا؟ هل يموت الأصحاء وهم في كامل عافيتهم أم لا؟

أم أن الموت في المجاعات هو مبلغ الملحد من العلم!

١٨) يقول الملحد: الإنسان كان من الممكن أن يصير أضخم من ذلك في القوة "مثلا"، فلماذا تقولون أنه خلق في أحسن تقويم؟ أيضا لماذا لا يتمتع الإنسان بقدرات فائقة؟ ولماذا يتعرض للأمراض والبلايا؟ ألم يُخلق في أحسن تقويم؟

يقول الأستاذ كريم فرحات في كتابه (لست ملحدًا لماذا؟) ردًّا على هذا السؤال: "الإنسان خُلق في أحسن تقويم، في إطار كونه بشرا، ولا يدعي مؤمن عاقل أن الإنسان مخلوق كامل، لأنه لو أصبح كذلك لتحول إلى إله. فلم يُخلق الإنسان ليصير إلهًا لا يمرض أبدًا، وإنما خُلق ليصير بشرًا".[2]

---

[1] رواه ابو نعيم في حلية الأولياء وصححه الألباني.

[2] كريم فرحات، "لست ملحدا، لماذا؟"، نهضة مصر، الطبعة الأولى ٢٠١٣.

يقول الله -عز وجل- في كتابه العزيز: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾.[١]
فالسؤال هنا: هل أنشأ العلم منظومة واحدة وظيفية تقارب أية منظومة وظيفية في الإنسان، حتى يتألى الملحد على خلق الله؟

عندنا العقل والعلم والإرادة والحكمة والمصانع الجبارة والجامعات العملاقة والتخطيط! وما زلنا نعجز عن مضاهاة أبسط صور الوعي في أي كائن على الإطلاق، ونعجز عن مضاهاة أبسط المنظومات الوظيفية في أي كائن حي.

فأدق الكائنات الحية على الإطلاق يقودها الغرض والهدف والغاية، وتتمتع بالوعي وتحليل المعلومات، ثم إعطاء رد فعل بِناء على تلك المعلومات؛ فمثلًا (الأميبا وحيدة الخلية) لو جاء بجوارها غِذاء متحرك فإنها تلف أذرعها حوله بحذر حتى لا يهرب، في حين لو كان الغذاء ثابتًا لا يتحرك -حُبيبة نشا- فإنها تلتصق به دون احتراس.والأميبا كائن وحيد الخلية بلا مخ ولا عين ولا أعصاب ولا حواس!لا يمكن أن يبلغ الحاسوب -مهما اشتد تعقيده- أبسط درجات الوعي في كائن وحيد الخلية كالأميبا، ومع ذلك عملية تصنيع الكمبيوتر عملية واعية وذكية للغاية، وفي حدود زمان ومكان، أما الخلية الأولية كالأميبا، والتي تفوق في كل عضية من عضياتها أعلى الحواسيب تعقيدًا، بل ربما لا مجال للمقارنة؛ لأن نسبة وعي أذكي الحواسيب على الإطلاق تساوي صفر I.Q.=ZERO، أقول إنّ هذه الخلية الأولية تقوم بتحليل المعلومة، وإعطاء رد فعل ذكيّ وواعٍ، ومع ذلك المطلوب أن نُصدق أن العشوائية أنشأت الأميبا والإنسان، في حين أن الذكاء الإنساني لم يستطع أن يُنشئ أبسط صور الوعي!

يقول داروين في كتابه (أصل الأنواع) عن مسألة وظيفية تخصصية واعية -مثل العين-، يقول: "أنا أعترف أن افتراض أن العين نشأت عن طريق انتخاب طبيعي هو افتراض على أعلى درجة من العبثية"[2]

وكل اطروحات التطوريين -فيما بعد داروين- بخصوص هذه القضية؛ قضية إعجاز العين، وكل فرضياتهم التدرجية تنتهي بهم أيضًا إلى استحالة عقلية ومنطقية لنشوء جهاز أولي حساس للضوء، يُخصص خلايا تستشعر الضوء وتحوله إلى نبضة كهربية يفسرها المخ، وكأنه مرآة لما

---

[١] سورة لقمان: ١١

[2] "To suppose that the eye could have been formed by natural selection seems, I freely confess, absurd in the highest possible degree".

يوجد أمامه، مع أن المخ مظلم -يوجد داخل صندوق عظمي-، ولا يعرف ما يوجد أمامه أصلا، ولا تصله إلا نبضات كهربية!

فالقضية ليست بالسذاجة التي تحللها الرؤية التطورية؛ لأن القضية منقوصة من البداية، وتحتاج إلى شيء خارج المخ يتطلع لما يُرى، ثم يُحول النبضة إلى تلك الرؤية وليس العكس.

١٩) يقول الملحد: تجاوز الإنسان لأقطار الأرض دليل على أن الدين لم يستوعب لحظة نشأته هذا التقدم المتوقع!

إمكانية تجاوز الإنس لأقطار السماوات والأرض رصدها القرآن في الوقت الذي كانت فيه فكرة الطيران لمسافة خمسة أمتار تعد أسطورة لا تُصدق ولا تُتخيل ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾.[١]

أيها البشر لن تنفذوا إلا بسلطان، لكن عليكم أن تُدركوا أن لنفاذكم حدودًا معينة، وستفشل جهودكم عند مرحلة معينة؛ عندما يُرسل الله سبحانه عليكم شواظًا من نار ونُحاسا، فتُهزمون وتُردون على أعقابكم.

فقد أخبر القرآن أن الإنس سيُتاح لهم سلطان النفاذ من أقطار السماوات والأرض. وسينجحون في بادئ الأمر إلى مرحلة معينة، لكن لا يجوز لهم تجاوزها، فبعدها سيُرسَلُ عليهم شواظٌ من نار ونُحاس، ونحن هذه الأيام نرصد قدرة الإنس على النفاذ وعلى وضع أجهزة عملاقة لرصد أية أصوات أو موجات تأتي من الخارج، ويقول بعض الباحثين: أنهم لن يتمكنوا من معرفة ورصد ما بالخارج إلا بتجاوز المجموعة الشمسية، وربما يكون هذا هو الحد الذي لا يجوز للإنسان تجاوزه، فيُرجم كما رُجم الجن من قبله، والله أعلم.[٢]

٢٠) يقول الملحد: لا يوجد ما يثبت الإيمان بالله بنسبة ١٠٠٪!

الإيمان لا يمكن إثباته بنسبة ١٠٠%؛ وإلا لانتفت فكرة الإيمان أصلًا، فالذي يطلب دليلًا يقضي بالإيمان بنسبة ١٠٠% لا يعرف شيئا عن الإيمان، ولا عن القضية الوجودية بأسرها.

---

[١] سورة الرحمن: ٣٣.

[٢] د. عبد المجيد الزنداني، "كتاب التوحيد"، دار السلام، الجزء الثالث ص٦٧.

فوجود أدلة قاطعة تقضي بالإيمان بنسبة ١٠٠% لا يجعله إيمانًا اختياريًّا، وإنما إيمان اضطراري؛ مثل الإيمان بوجود الشمس، وهذا إيمان لا يترتب عليه ثواب ولا عقاب، ولا يطلب أدلة من هذا القبيل إلا أبعد البشر عن العقل والمنطق ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا اللّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.[1]

لقد بيَّن الله تعالى آياته للموقنين؛ فالآيات والقرائن واضحة جلية لمن يريد أن يؤمن ويُسلم لله بالخلق والأمر، أما من يريد العبث فسيجد من المتشابهات التي أوجدها الله سبحانه لتكملة الامتحان ما يبرر له طغيانه وتمرده، لكن من رحمته سبحانه أن هذه المتشابهات لا تطغى على المُحكم ولا تُضعف قيمته، ولا يتبعها إلا من أراد ذلك ﴿هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ﴾.[2]

هذه هي روعة الامتحان وعظيم الاختبار؛ فالمحكم الذي هو الأصل في كتاب الله المنظور– الكون–. وهو الأصل في كتاب الله المسطور –القرآن الكريم–، لا ينتقل الإنسان عنه إلى المتشابه في كتاب الله المنظور –في الكون كالأشياء التي لا نحيط بها علمًا لحكمتها–، أو المتشابه في كتاب الله المسطور –كالحروف المقطعة في أوائل السور–، أقول لا ينتقل الإنسان إلى هذا المتشابه النادر إلا لو أوقف عقله وأوقف حسه ورضي بالكفر؛ فبحث له عن مبررات هي جوهر عملية الامتحان والاختيار ووضع كافة البدائل ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾.[3]

فتقييم الإيمان هو تقييم عقلي منطقي، ويترتب عليه اتخاذ القرار والاختيار، وهذا ما يفعله كل العقلاء ويتفقون على صحته وصحة الأخذ بالنسبة الراجحة، وجنون الأخذ بالنسبة المرجوحة فيما يُسمى بنظرية القرار Decision Theory.[4]

---

[1] سورة البقرة: ١١٨.

[2] سورة آل عمران: ٧.

[3] سورة الملك: ١٠.

[4] Decision theory - Wikipedia.

بل إن أصل الإيمان يقوم في بدايته على الترجيح العقلي، والظن القوي ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾[1] فوجود الدليل الإيماني بنسبة الـ ١٠٠% يؤدي إلى انتفاء فكرة الاختبار وانتفاء قضية الإيمان بالغيب التي هو جوهر القضية الدينية.

بل إن الإيمان الترجيحي هو الذي يصعد فيه الإنسان المنازل ويترقى، وينتقل من الشك إلى الإسلام إلى الإيمان إلى الإحسان إلى علم اليقين إلى عين اليقين، هذا هو مجال الاختيار الواسع والذي يتيح لك استخدام عقلك والترجيح والوصول إلى النتيجة الأقرب للمنطق والأحكم للعقل.

وسيظل الإيمان بالله غيبيًّا إلى آخر الزمان؛ حتى يترك مساحة للقلب أن يختار، وهذا هو معدن الاختبار. والذي يجتهد بصدق سيوفِّقه الله، ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[2]

لكن ماذا لو اجتهد إنسان ووقع أجله قبل أن يصل، هل سينجو عند الله؟

الأصل أن الله لا يظلم عباده ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[3]، والأصل أن الله لن يُعذب بدون قيام الحجة ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾[4].

فالذي اجتهد وهلك قبل وصوله يمتحنه الله يوم القيامة. فيوم القيامة هو المحاكمة الكبرى، وهو يوم الامتحان الحقيقي لمن لم يسعه امتحان الدنيا. وهو تكملة لامتحان الدنيا لمن وصلته الحجة منقوصة.

أما من يموت دون أن يجهد نفسه في البحث عن حقيقة هذا العالم وما وراءه، فحاله كحال من يمشي في الصحراء فتوجد طاولة عليها أنواع وأصناف شتى من المأكولات وكل ما لذ وطاب من الفاكهة، فانكب يأكل منها دون حتى أن يسأل نفسه من الذي جاء بها ليشكره، مع [illegible] السببية في عقله ويمكنه استخدامه، والرغبة في الامتنان في قلبه ويمكنه القيام بها، وبعد أن يأكل ما لذ وطاب قد ينكر أن أحدًا جاء بهذه المائدة العظيمة لمجرد أنه رأى ثمرة معطوبة

---

[1] سورة [illegible]

[2] سورة المائدة [illegible]

[3] سورة فصلت

[4] سورة الإسراء [illegible]

وهذا حال الذي يتبع المتشابه، فهنا يفقد قيمة الوصول للحقيقة، ويفقد قيمة الامتنان لمن جاء بالمائدة، ويفقد قيمة الامتنان لمن جاء به هو إلى هذه الدنيا، وساعتها لا يلومن إلا نفسه على كفره وجحوده وعناده

٢١) يقول الملحد: ما فائدة الإيمان والعبادة؟

في واقع الأمر أعظم وأرق صور رحمة الله بنا أنه أمرنا بعبادته، لأن العبادة غذاء لأرواحنا، حياة لقلوبنا، سبب لتفريج كروبنا، لأن العبادة تقربنا من ربنا تبارك وتعالى.

فالإنسان مخلوق من جسد وروح، وأنت تعطي الجسد ما يشتهيه من طعام وشراب وغيره..، فلو لم تعطِ الروح هي الأخرى غذاءها، تصرخ الروح في أعماق الجسد؛ تريد هي الأخرى غذاء وشرابًا ودواء، ويعرف الكافر قبل المؤمن مدى حاجة الروح إلى غذاء.

وغذاء الروح لا يعلم حقيقته إلا من خلق الروح، فالروح لا تقاس بالترمومتر، ولا توزن بالجرام، ولا توضع في بوتقة التجارب في المعامل، ومن هنا يقول ربنا سبحانه: ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾.[1]

فالعبادةَ هي غذاء الروح، وأنت لا تستطيع أن تحصل على هذا الغذاء إلا عن طريق الرسل، وكيف لك أن تعرف غذاء روحك إلا عن طريق الأنبياء المبلغين لرسالات الله -عز وجل- ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾.[2] إذًا العبادة غذاء لهذا الشق الآخر من الإنسان؛ وهو الروح، لأن الإنسان لا يمكن أن يعيش حياة سويةً مستقيمة بالبدن فقط، لابد أن يحيا بالروح والبدن معا، فهل علمت الآن لماذا أمرنا الله بعبادته وهو غنيٌ عنّا؟

٢٢) يقول الملحد: الكفر كالإيمان؛ قضية لا تؤثر على تصرفاتك وقراراتك!

الكفر يؤثر على حياتك كلها ويجعلها بلا معنى ولا هدف ولا غاية، ويصور الوجود كله على أنه حالة عبثية وضياع واغتراب، وهذا مدعاة لخراب البلاد والأمم، وتقويض أركان الأخلاق.

فالكفر يؤدي إلى القلق الدائم والسخط، واضطراب نفسي لا يُحتمل، ففي غياب الإله تفقد الأشياء معناها وتميزها.

---

[1] سورة الإسراء: ٨٥.

[2] سورة الملك: ١٤.

والكافر يجعل كل الأشياء متوحشة، وشدة [illegible] أعضاءه الاجتماعية والنفسية وحركته التي لا تحصى، فيكون الحيز لتحقيق شهوة ولذة لا [illegible] بالعدل، ويعطي كل ذي أمر [illegible]
بينما الإيمان يولد الاطمئنان والرضا والاستقرار النفسي.

٢٣) يقول الملحد: أنا مطمئن وسعيد بإلحادي!

حقيقة الأمر أن الإلحاد بالفعل يوصل للاطمئنان كما الإيمان تمامًا، وهذا ما نسلِّم به للملحد؛ ﴿إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا وَرَضُواْ بِالْحَياةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾[1] وهذا من باب استدراج الكافر جراء عمله، فيطمئن لكفره، إلى أن يلقى الله وقد خسر الخسران العظيم.

ثم إن الإحساس بالسعادة قد يكون خادعًا؛ وهو في جميع الأحوال ليس بالمقياس الذي يجب أن نقيس عليه، فالإنسان قد يتعاطى مادة سامة أو مُخدرًا لسنوات طويلة، ويكون سعيدًا بذلك، فالعبرة بالنتائج لا المقدمات.

ثم كيف يسعد مَن يعلم أن الموت نهاية المطاف، وأن الفراق النهائي هو نتيجة حتمية بعد سنوات أو لحظات؟!

٢٤) يقول الملحد: قوام إلحادي تجربة شخصية محضة؛ لم تتأثر بقيادات فكرية ولا بأصدقاء سوء!

هذا ادعاء كاذب؛ فالذي يشهد له الجميع أن الإلحاد ليس مستثنى من السنة الاجتماعية التاريخية، التي تؤكد على أن كل رؤية يُراد تعميمها على الحياة لها:

١- أئمة يؤسسون لها ويدعون لها، ويصبرون من أجلها.

٢- أتباع لم يتبنوا فحوى تلك الرؤية ويستجيبوا لها لولا بيان ودعوة أولئك الأئمة. وهذا قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾[2]

"ودومًا المقلدون هم القاعدة".

لذا عندما ينكسر أحد أئمة الإلحاد في إحدى المناظرات ترى الأتباع ينفضون من حوله، ويعودون للدين، فالقضية الإلحادية لها أبعاد نفسية لا تنفك عنها، كما أية قضية فكرية.

---

[1] سورة يونس: ٧.

[2] سورة الإسراء: ٧١.

٢٥) يقول الملحد: الإلحاد نتيجة توصلت لها بقناعات كبرى!

في علم النفس قاعدة تقول: مَن يصنع الإطار يحكم النتيجة.

فالملحد يضع إطار التفكير ويخرج منه بنتيجة إلحاده، وهو إطار ضيق خانق مليء بالفروض والتحميلات والاستنتاجات القاصرة، بينما الإطار الديني إطار رحب متسع، مبني على بدهيّات، وليس فروض، حقائق راسخة وليس تحميلات.

الملحد عمد إلى مطلق الوجود فاختزله إلى ما بلغه من العلم بالوجود، وظن أن ما توصل إليه قناعات كبرى!

واضطر الملحد -بناء على ذلك- إلى تضييق نطاق المعرفة، وحصْر طرق العلم فيما يلائم وجوده الخاص، ثم اضطر إلى وضع قواعد خاصة بالبحث والنظر أضرَّتْ العلمَ والمعرفة؛ مثل المنهج المنطقي الوضعي Logical Positivism، والذي كان بمثابة تضييق الخناق على كل مقولة تربك الإلحاد المادي Physicalism. فصار أصل قناعات الإلحاد مبنيًا على فروض ضيقة خانقة.

علينا أن ندرك أن إطلاق حكم إثباتي وجودي Substantive Ontological Assertion بحجم نفي وجود صانع وخالق للكون هو محض تحكم لا دليل عليه، لا من جنس الأدلة التي يؤمن بها الملحد ولا من غيرها.

فهو حكم تأليفي synthetic Judgments، حكم زائف لا يستند على حجة؛ لأن أدلة الملحد في أصلها مؤلفة من عناصر النظام التي تحكمها -الوضعية التجريبية-، فالملحد هنا أمام دائرة مفرغة Vicious Circle، من تأمل هذه الدائرة المفرغة يعلم يقينًا سذاجة قوام الفكر الإلحادي ككل.

ونحن نريد برهنة تُضفي المشروعية على أجناس أدلة الملحد وطرق استدلاله، ولا يتأتى هذا إلا باستجداء اعتماد خارجي External Validation من خارج النطاق الحالي، وهذا بداهةً غير متاح داخل النسق التجريبي الوضعي، بينما الخالق يقع خارج إطار النسق التجريبي الوضعي، وهذا يؤكد أن قناعات الملحد مبنية على فروض ضيقة، رسمها لنفسه، ووضع نفسه ومعتقده الإلحادي داخلها، فحجر على العقل والفكر.

٢٦) يقول الملحد: قرار الإلحاد ناتج عن فكر منطقي مجرد!

هذا الادعاء جريمة بحق المعرفة، فقرار الإلحاد كأي قرار آخر؛ خاضع لمتغيرات كثيرة: فهو فرع عن تجارب المرء الشخصية ومواقفه النفسية، وتحكمه أحوالٌ معرفية وظروفٌ اجتماعية وشروط ثقافية في غاية التنوع والتعقيد.

٢٧) يقول الملحد: أصل الحادي يقوم على رغبة فكرية محضة، لا على دواعٍ نفسية!

رغبة الملحد في التحرر من الدين ليست رغبة فكرية صرفة، إنما لها محتوى عاطفي كبير متضمن داخل العملية الفكرية؛ مثلها مثل الرغبة في التحرر والاستقلال بالنفس، والشعور بالاستغناء وتذوق القوة، أو الراحة من دفع الشك.

٢٨) يقول الملحد: لما لا يكون التأزم النفسي هو السبب الرئيسي!

التأزم النفسي والشر والبلاء حالة تنفجر في اتجاهين، فالتأزم النفسي قد يؤدي إلى الإلحاد وقد يؤدي أيضا إلى الإيمان، فهي ليست حالة أُحادية الاتجاه دومًا، كما حدث مع عمالقة الفكر -عبر العصور- الذين نقلتهم حالة التأزم المفاجأة من الكفر إلى الإيمان، ويحضرنا في عصرنا هذا (أنتوني فلو، وفرانسيس كولينز، وعبد الوهاب المسيري.. وغيرهم).

٢٩) يقول الملحد: الإلحاد يخلو من القيادات المتعالية على النقد!

وفي واقع الأمر فإن زيارة واحدة لدولة كوريا الشمالية تُحول هذه الدعوى إلى هشيم تذروه الرياح، يكفي أن تشاهد إعادة تنصيب كيم جونج أون رئيسًا لكوريا الشمالية -الدولة الوحيدة الملحدة على وجه الأرض-، وكيم جونج أون بابا فاتيكان كنيسة الإلحاد، الأب الكاهن مُلهم الملحدين على وجه الأرض، وفي مراسم إعادة التنصيب تجد تصفيقًا جنونيًا؛ لأن الذي يتوقف أولا سيتم إعدامه في مرحلة لاحقة، وسيتهم بالخيانة العظمى كما حدث مع زوج عمته منذ شهور قليلة.

وهذا الكهنوت الإلحادي صار ملازما لأي دولة تُطبق الإلحاد، يقول ألكسندر سولجنستين في كتاب أرخبيل الكولاج: "عندما يقف الرفيق ستالين في مؤتمر الحزب يقف الجميع، ويبدأ موجة من التصفيق الحاد دقائق طويلة، في مرحلة جنون لا يُطاق، ويظل التصفيق مستمرًا بينما يقف رجال المخابرات في كل مكان وهم متنبهون جيدًا إلى من سيتوقف أولا، ويستمر التصفيق ما يزيد على عشر دقائق متواصلة، من أين لهم هذا الهوس الجماعي الذي لا يوصف ولا

يقاوم". فالكهنوت الإلحادي يرفض أية دوجما مضادة. وقد اعتبر (لينين) الدعاية المعادية للإلحاد واحدة من أصل ست جرائم جنائية تعاقَب بالإعدام، طبقًا للقانون الجنائي الذي قدمه لينين RSFSR.

٣٠) يقول الملحد: حجج وادلة النبوات منقولة وليست مرئية، وأنه لم يعاصرها؛ لذا فهو لن يسلم بها!

لا أدري كيف لادعاء بهذا التهافت أن يظل قائمًا، ولا يوجد للعاقل عذر في تبني هذا الادعاء إلا لأنه السبيل الوحيد –الأوحد– للكفر.

وللإنسان أن يتساءل: هل العلم الضروري لا يحصل إلا بالرؤية والمشاهدة المباشرة؟ إن علوم الدنيا وفلسفاتها وثقافاتها وكل معطياتنا العلمية لم تقع بداهةً عن طريق الرؤية أو المعاصرة، وإنما عن طريق المُخبرين –الذين أخبرونا بهذه الأمور دون رؤية مباشرة منا–، ومع تكرار الإخبار يحصل عندنا العلم الضروري بصحة ما ينقلونه إلينا.

كم شخصًا رأى رؤية مباشرة صحة قوانين الفيزياء أو قوانين الكيمياء، أو صحة معادلات أينشتاين، والتي تطلبت ربع قرن حتى رآها بضعة أشخاص في أفريقيا –بعثة رذرفورد–، وبعدها أثبتوا صحة النسبية العامة، وتلقتها جموع البشر على وجه الأرض بالقبول، مع أن أحدًا غير هؤلاء الآحاد لم يرصد ولم يعاصر صحة النسبية العامة، لكن هؤلاء الآحاد المخبرين أفادوا علمًا يقينيًا ضروريًا، لا يستطيع العقل أمامه مماحكة الإنكار.

أستطيع أن أجزم أن كل ملحد أو لا ديني سمع بمعجزة نقلها إليه مجموعة من المخبرين يستحيل تواطئهم على الكذب، حصل له علم ضروري، ولا ينكر هذه المعجزة إلا من باب المكابرة والمعاندة والكسل المعرفي العقيم في الفحص والتدقيق.

وشروط التواتر التي تُفيد العلم اليقيني الضروري، والتي اتفق عليها العقلاء هي:

١- كثرة الناقلين الذين تحيل العادة تواطؤَهم أو توافُقَهم على الكذب.

٢- رووا ذلك عن مثلهم –في الكثرة– من الابتداء إلى الانتهاء.

٣- الاستناد إلى الحِسّ في نقلهم.

ومتى تحققت الشروط الثلاثة تحقق التواتر، ولزم منه علم ضروري لا مجال لإنكاره أو تكذيبه. فأنت سمعت عن دولة اليابان، وحصل لك علم ضروري بوجودها، وأنها تقع شرق آسيا، ولا يلزم عدمُ رؤيتها إنكارها، فهذا أمر لا يقوله عاقل.

بل إن أصل إلحاد الملحد يقوم على قواعد ميتافزيقية -إنكار الصانع، أزلية العالم، التطور، مادية الوعي- لم ير شيئًا منها ولم يختبر أو يرصد أصلًا واحدًا من أصولها، وبداهةً لا يقرر العلم شيئا منها، ومع ذلك يعقد عليها قلبه ويُسلِّم لها عقله.

بل إن كل علوم التاريخ وعلوم البدايات لا تقوم على الرؤية، وإنما على الشواهد فقط. ومصدر المعرفة حتى في العلوم التجريبية هو العمل العقلي في مُدخلات الحس والمشاهدة والتجريب، فالتسليم العقلي هو الأصل حتى في المعطى المُباشر.

والآن أدلة نبوة النبي محمد -صلى الله عليه وسلم- تقوم على جملة كثيرة لا تُحصى من الشواهد ونقل الرواة، الذين يستحيل تواطؤهم على الكذب، فيتحقق من جملتها علمًا ضروريًّا يفيد يقينًا معرفيًا وعقليًا، لا يرتفع بظن ولا شك ولا افتراض.

وشروط التواتر الثلاثة السابقة توجد حصريًا في دين الإسلام، بينما تُفقد في بقية الأديان، فلا يزعم دين من الأديان على وجه الأرض تواتر نصوصه؛ فيعترفون بوجود الآحاد، بل والانقطاع في أجيال متتالية من الناقلين للنص الديني -والذي يقوم عليه الدين-، وهو ما يُسقط شرط التواتر.

٢١) يقول الملحد: عدم وجود دليل علمي على جبريل ينفي وجوده!

العلم هو منهج يتعامل مع ما يوجد ويتكرر في الطبيعة بشكل طبيعي، وتحكمه قوانينها، فالعلم هو تحليل الظاهرة بغية تفسيرها، وهو يختص بجمع المعلومات وطرح الفرضيات وإجراء التجارب وتحليل الشواهد، وتعديل الفرضيات ووضع النظريات، ثم تحكيم الأقران.

هذا النوع من العلم يُسمى علمًا تجريبيًا رصديًّا!

الملحد يظن أن هذا هو العلم، وأي شيء آخر ليس بعلم، وهو بذلك -دون أن يدري- أخرجَ جميع العلوم الانسانية؛ التي هي الأخلاق والفلسفة والاجتماع والقانون والآداب وغيرها خارج دائرة العلم، وصار الحديث عن القيمة أو الأخلاق أو المعرفة أو المعنى أشياء لا معنى لها، أو هي لغو فارغ، طالما أن العلم لم يثبتها.

فالذي يفترض أن العلوم الطبيعية بطرائقها البحثية هي فقط العلم فهو أسخف الناس، بل إن كل علوم التاريخ وعلوم التاريخ الطبيعي -البيولوجيا- ونشأة الكون والحياة والإنسان وعلوم

البدايات كلها لا تخضع لمقاييس العلم التجريبي، وإنما لمناهج استدلالية مستقلة inference To The Best Explanation، فهل الملحد ينكر وجود بداية للكون وينكر وجود التاريخ لمجرد أن هذه القضايا لا تخضع للرصد؟!

العلم التجريبي هو حيز ضيق من المعرفة الإنسانية، وليس كل المعرفة الإنسانية. ومشكلة الملحد أنه أشبه ما يكون بعالِم صمم جهازًا قادرًا على رصد موجات الضوء المرئي فقط، ثم يدعي أنه ليس في الكون موجات غير مرئية -كالأشعة تحت الحمراء وفوق البنفسجية-، لاشك أننا جميعًا نستقبح أن يفعل عاقل ذلك، لكن هذا ما يحدث -تمامًا- في الحقيقة؛ لقد وضع الملاحدة منهجًا لا يرصد إلا الطبيعة، ثم افترضوا أن العلم ينفي ما سوى الطبيعة، مع أن العلم ذاته لم يقر لهم بذلك.

نعود الآن لجبريل -عليه السلام-؛ الإيمان بجبريل -عليه السلام- هو قضية غيبية خارج حدود الزمان والمكان، ولا تخضع لقوانين أو قواعد الزمان والمكان، والإيمان به يعود إلى التسليم بصدق الرسالة المحمدية بشواهدها القطعية.

فمَن قامت البراهين والآيات على صدقه فيما يبلغه عن الله كان صادقًا في كل ما يخبر به عن الله، كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في (الجواب الصحيح). فنحن نؤمن بالغيب تبعًا لإيماننا بالرسالة المحمدية، لا كإيمان مُستقل.

٣٢) يقول الملحد: هل الإنسان مسيرٌ أم مخير؟

هل علم الله بما سيقع ينفي قضية الحرية والتخيير؟

علم الله بما سيقع ليس جبرًا؛ يقول د. عمرو شريف: "تخيل إنسانًا اخترع آلة الزمن، وسافر مائتي عام للمستقبل، ورأى ما سيفعل أحفاده وأحفاد أحفاده، ثم عاد إلى زمانه هو، وسجّل ما سيحدث، هل تدوينه مُلزِم لهم؟ هل يُلام على علمه المستقبلي؟ إن الله -عز وجل- أراد أن تكون لنا إرادة، وأراد أن نختار ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾[1]".

الله هو مَن قال أنه يعلم كل شيء، وفي نفس الوقت قال: ﴿فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (٧) وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى (١٠)﴾.[2] وأيضًا قال سبحانه: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾[1]

---

[1] سورة الإنسان: ٣.

[2] سورة الليل: ٥-١٠.

أما كون الملحد يريد أن يجعل من علم الله مانعًا لإرادة الإنسان؛ فهو يُعطل أحد أفعال الله على حساب فعل آخر، وهذا حال كل كافر، أما المسلم فهو يُسلِّم بكل أفعال الله ووقوعها. لكن الله –عز وجل– يُخبرنا في كتابه العزيز أنه يهدي مَن يشاء ويُضل من يشاء، فكيف يتناسب هذا مع التخيير؟

يقول الدكتور عبد المجيد الزنداني: "إذا قلنا: إن الحكومة الفلانية حرة تحبس من تشاء وتكافئ من تشاء. وقلنا أيضًا: الحكومة نفسها لا تحبس إلا من يستحق الحبس، ولا تكافئ إلا من يستحق المكافأة. فهل بين القولين تعارض؟

الجواب: لا؛ فالقول الأول يدل على أن الحكومة مستقلة وقوية، ولا يستطيع أحد التدخل في شئونها، والقول الثاني يبين أن هذه الحكومة المستقلة القوية عادلة ولا تظلم.

فقد بين الله تعالى –ولله المثل الأعلى– أنه مطلق المشيئة، ولا يقيد مشيئته قيد ﴿يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.[2] وبينّ سبحانه في آيات أخرى أن مشيئته التي لا سلطان لأحد عليها مشيئة عادلة لا تظلم أحدًا ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً﴾.[3] وأنه سبحانه لا يهدي إلا من يستحق الهدى ويحرص عليه ﴿والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم﴾.[4] ولا يُضل إلا من يستحق الضلال ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾.[5]

فالأمر واضحٌ جليّ؛ مشيئة الله حرة مطلقة، وشاء سبحانه أن يخلق للإنسان إرادة حرة ﴿إنا هديناه السبيل إما شاكرًا وإما كفورًا﴾.[6] وإذا كان الله يفعل ما يشاء، فإن مشيئته عادلة، لا تهدي إلا من استحق الهدى، ولا تضل إلا من استحق الضلال".

لكن لماذا خلق الله الملحدين والكافرين وهو يعلم أنهم سيكفرون؟ إذا كان الملحد يستحق الكفر في علم الله فما المانع من خلقه ثم محاسبته؟ هل بما أنه سيكفر؛ إذًا يريحه ولا يخلقه؟ أليس هذا محض تحكم وافتراض ساذج؟

---

[1] سورة البلد: ١٠.

[2] سورة النحل: ٩٣.

[3] سورة النساء: ٤٠.

[4] سورة محمد: ١٧.

[5] سورة الصف: ٥.

[6] سورة الإنسان: ٣.

إذا كان الملحد يستحق الخلود في النار؛ فمن العدل أن يذهب لما يستحق، فالذي يستحق النار ليس من العدل ألا يدخلها، أو لا يُخلق ليدخلها. أُكرر مرّة أُخرى: الذي يستحق النار ليس من العدل ألا يدخلها أو لا يُخلق ليدخلها.

ثم إن معيارنا للحكم على العدل ليس معيارًا مطلقا، بل معيار محدود بحدود طبيعتنا البشرية، والعدل المطلق هو الله -سبحانه وتعالى-، وأخبر أنه لن يظلم عباده ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[1]، فيكون هذا هو المرجع فيما قصرنا عن استيعابه، وهذا أسلم عقلًا ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾.[2]

٣٢) يقول الملحد: طالما أن الدين بهذه القوة؛ فلماذا حد الردة؟

في البداية مَن هو المرتد؟

المرتد هو من يعلن كفره؛ فالمنافق لا يُقتل ردة، حتى لو ظهر نفاقه، فما دام لا يعلن ردته فهو مسلم لنا، أما المرتد؛ فهو من يعلن ردته ويدعو الناس للكفر.

هل يقتل الإسلام أحدًا لأنه كافر؟

لا؛ فالكافر الأصلي -مثل الذمي والمعاهد والمستأمن- لا يجوز قتلهم، بل ومن قتَلهم قال النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه لن يرح رائحة الجنة.

هل حد الردة يعني ضعف الدين الإسلامي؟

أبدا؛ بل هو دين تحدى العالمين بحجته، ويأمر أتباعه بذلك، ومن أصوله الدعوة الدائمة والمقارعة بالحجة، ومعجزته العظمى هي كتاب -القرآن الكريم-.

هل الإسلام يهتم بكثرة الأتباع ويجبر الناس على الدخول فيه؟ لا؛ بل قال تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾[3]، ويمارس غير المسلمين طقوسهم وتربية أبنائهم على دينهم، فهاهم اليهود والنصارى في ديار المسلمين حتى يومنا هذا!

هل يقتل المرتد مباشرة؟

لا؛ بل يستتاب وتبين له الحجّة، ويناقش ويُعَلّم، فإن لم يقتنع فيسعه أن يكتم كفره.

---

[1] سورة ق: ٢٩.

[2] سورة يونس: ٣٩.

[3] سورة البقرة: ٢٥٦.

من الذى له الحق فى قتل المرتد؟
ولى الأمر أو من ينوب عنه.

لماذا إذًا قتل المرتّد ما دام لم يُقتل بعلة الكفر، وما دام الإسلام لا يهتم بالعدد ولا يخاف من التشكيك؟
يُقتل من أجل حق غيره فى النجاة؛ فكأي نظام اجتماعي يراعي مصلحة المجتمع ويلفظ الخائن المفارق لجماعته -بلفظ الحديث-، فالمرتد مفارق لجماعته مناهض لها، والمرتد معتدٍ على البسطاء الذين يسول لهم الكفر، ويغرر بالأحداث صغار السن، ، فمن المعلوم أن صغير السن يتعلق قلبه بالغريب والشاذ، ويفتتن بمخالفة الجمهور، فهذه فتنة كبرى، والتعدي بالفتنة أشد من التعدي بالقتل، فالمرتد خائن وحكمه في جميع دساتير العالم القتل.

ودولة الإسلام قوامها الدين، والخروج على الدين يعني الخروج على الدولة؛ لذا نصّ حديث النبي -صلى الله عليه وسلم- "التارك لدينه المفارق لجماعته"، فترك الدين في دولة الإسلام يعامل معاملة الخيانة العظمى، والتي حكمها الإعدام في جميع دساتير العالم كما قلنا.

٣٤) يقول الملحد: لماذا لا توجد دولة واحدة مسلمة متقدمة؟ أين هي خير أمة أخرجت للناس؟

الغريب أن هذا الكلام يصدر من إنسان المفترض أنه عاش في بلاد المسلمين، والمفترض أنه درس شيئا من تاريخ الإسلام، لكنه بهذا السؤال يُثبت فشل التعليم في بلادنا.

فأطول حضارة في تاريخ البشرية هي الحضارة الإسلامية، وتم فيها مباشرةً تطبيق مشروع الإسلام السياسي، وظلت الحضارة الإسلامية ١٢٠٠ عام تقود العالم وتتربع على عرش العالم بأكبر جيش وأكبر قائمة من العلماء والمفكرين، وأكبر وحدة سياسية واقتصادية ودينية عرفها التاريخ.

ألا تعلم أيها الملحد أن كل العلوم التجريبيةُ وضع أصولها المسلمون؟
فالصيدلة علم عربي، والفلك والطب والميكانيكا والرياضيات والطبيعة والجغرافيا ما تزال تحمل الأسماء العربية الفصحى إلى اليوم، وكان العلم تجارة رائجة، و(المسجدرسة) وهو التحام المسجد بالمدرسة من أيام الخليفة الراشد عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- ثاني الخلفاء الراشدين، وابن النفيس مكتشف الدورة الدموية الصغرى مُصنَف في طبقات الشافعية، والبيروني أعلن أن الأرض تدور حول محورها أمام الشمس، وأساس علم الفلك في أوربا قام على

مصنفات الإمام إبراهيم الزركلي، وابن باجه -المصنف المشهور- اكتشف أن مدارات الكواكب بيضاوية وليست دائرية، وجابر بن حبان واضع أصول المنهج التجريبي في الكيمياء، ويُعد أول من استخدم الكيمياء عمليًا في التاريخ، وتُسمى باسمه فيقال: "علم جابر" ويُقصد به الكيمياء، وله في الكيمياء ما لأرسطو في المنطق، وهو أول من اكتشف الأحماض والقلويات، وأطلق عليها هذا الاسم الذي ما زالت تعرف به في الغرب والشرق alkali.

هكذا ساد الروح العلمي الأمة العربية، يقول ديورانت في (تاريخ الحضارة): "ربما ملك الصاحب ابن عباد من الكتب في القرن العاشر ما يُقدر بما كان في مكتبات أوربا مجتمعة، وكنت تجد في المساجد من قرطبة إلى سمرقند علماء لا يحصيهم عدد".

ولم نبتعد عن قيادة العالم إلا بقدر ابتعادنا عن الإسلام ومنهجه، ولن نعود لقيادة العالم إلا بعد عودتنا إلى ما صلح به سلفنا ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً﴾.[1]

يقول المستشرق (سبنسر فاميري): "لا يستطيع عالم واحد أن يتأمل القبة الزرقاء دون أن يلفظ اسمًا عربيًا، ولا يستطيع عالم طبيعي أن يحلل ورقة من الشجر أو يفحص صخرة من الصخور دون أن يتذكر درسًا عربيًا، ولا يقدر أي قاضٍ أن يبت اليوم في خلاف دون أن يستدعي مبدأ أملته العرب، ولا يسع أي طبيب أن يتأمل دائرة أحد الأمراض المعروفة منذ القدم دون أن يهمس بآراء طبيب عربي".

بل إن الجامعات الأوربية عاشت ٦٠٠ عام على ترجمات العرب كما يقول جوستاف لوبون. إن الأمل الآن معقود على ثورة فكرية علمية إسلامية خضراء، تُزيح الترهلات التي أصابت العلم من جراء كهنة الإلحاد وسدنة المادية، فالعلم الطبيعي عِلمُنا، ونحن مَن وضع أصوله الأولى، ونحن مَن سيُرجع الأمر فيه إلى نصابه متى شاء الله.

---

[1] سورة النور: ٥٥.

٣٥) يقول الملحد: لكن نحن لا نـجد مَن يمثل الإسلام هذه الأيام إلا النموذج الأفغاني والصومالي!

ومَن قال إن أفغانستان التي خرجت من حروب نصف قرن واستهلاك كامل لكل الموارد، وكانت أول ميزانية لها ٢٠٠ مليون دولار، تخيل ميزانية دولة كاملة ٢٠٠ مليون دولار –تعادل ميزانية مستشفى متوسط الحجم بأمريكا–، وأمراض تفتك بالمخيمات، ودمار كامل للبنية التحتية، ومؤامرات تُحاك هنا وهناك؛ مَن قال أن دولة غاية كدها أن تحاصر المجاعة ومدمني الأفيون نموذجًا حاول حتى التطبيق؟

يقول الأُستاذ مصباح عبد الباقي –الأكاديمي الأفغاني الشهير–: "بعد تدمير أمريكا لأفغانستان أُرسلت ٩ فتيات أفغانيات إلى أمريكا، لتشكيل فريق كرة قدم نسائي أفغاني، وقد أصرت أمريكا إصرارًا شديدًا على هذا الأمر، وسيتم تدريبهن وفحصهن طبيًّا، وسيلتقين بعدها بعدد من مسئولي الرياضة بأمريكا في انتظارهن، لكن المدهش أنه إلى الآن لا يوجد فريق كرة قدم للرجال، ولم يهتم أحد بذلك، وهذا مدعاة لعجب لا ينتهي مادامت في الناس عقول".

وهذا في الوقت الذي يموت فيه في مخيم مسلخ وحده ٤٠ طفلًا يوميًا بسبب الجوع والمرض، وتموت امرأتان أفغانيتان يوميا بسبب الدرن!

أما الصومال؛ فالنزاعات القبلية بها لا تنتهي، ومؤامرات الغرب وأثيوبيا ودول الجوار تجعل أقصى ما تطمع فيه الصومال هو تقليل شهور المجاعات كل عام لا أكثر.

مَن قال أن هذه الدول تمثل الإسلام؟

الإسلام يمثله النص المقدس وتطبيقه بقدره لا أكثر. ونحن لو جارينا طريقة تفكير الملحد، فيُمكن أن نُصدر دول الرفاهة الاجتماعية –دول الخليج– على أنها تمثل الإسلام، خاصة وأنها تمثل جملة من أعلى دخول الفرد في العالم.

ويمكن أن نُصدر النموذج التركي بعد الاستقرار السياسي والاقتصادي الذي تشهده تركيا هذه الأيام، بعد وصول الإسلاميين فيها للحُكم، مع العلم أن قبلها بعقد واحد فقط كان الصراع والحكومات الائتلافية وحل البرلمان كل عدة شهور، وكان الانهيار الاقتصادي علامة بارزة في كل تركيا طوال العقود الماضية، وما أن وصل الإسلاميون للحكم حتى ارتفع متوسط دخل الفرد من ٣ آلاف دولار في عام 2001 م إلى ١١ ألف دولار في ٢٠١١م، ووصلت

النزاعات بين تركيا وجيرانها إلى الصفر، وهدأت المشكلة الكردية لأول مرة منذ عقود، وتم حل مشكلة المواصلات ومشكلة المياه ومشكلة التلوث في إسطنبول عاصمة الزحام.

ويُمكن أن نُصدر النموذج الماليزي ذو القوة الاقتصادية والعلمية العملاقة. ويمكن تصدير النموذج الإندونيسي الذي استطاع مضاعفة متوسط دخل الفرد للضعف خلال ١٤ عامًا فقط، في حين احتاجت الولايات المتحدة ٤٧ سنة لمضاعفة دخل الفرد لديها.[1] ويمكن تصدير إمارة بروناي الإسلامية، والتي تحكم رسميًا بالشريعة الإسلامية منذ العام ٢٠١٤م، وهي واحدة من أصحاب أعلى دخول الفرد في العالم، ويحكمها رجل -وهو السلطان/ حسن بلقية- من أغنى ملوك العالم.

لكن نحن حقيقة نرث رسميًا أطول حضارة في تاريخ البشرية؛ الحضارة الإسلامية، وتم فيها مباشرة تطبيق مشروع الإسلام السياسي، وظلت الحضارة الإسلامية ١٢٠٠ عام تقود العالم وتتربع على عرش العالم بأكبر جيش وأكبر قوة علمية وفكرية، وأكبر وحدة سياسية واقتصادية ودينية عرفها التاريخ. وفيها تحول الشرق الأوسط إلى متحف عملاق لكل الاثنيات والطوائف الدينية.

في حين لم تحتمل الدول الملحدة المؤمنين أكثر من عقد واحد؛ فقامت بتأسيس رابطة الملحدين العسكرية League Of Militant Atheists[2]، التي أبادت مئات الآلاف من المتدينين، وحولت ٤٢ ألف مؤسسة دينية إلى تراب في أنحاء أوربا.

٣٦) يقول الملحد: نبيكم أكثر من الزوجات!

يلوم بعضهم النبي ﷺ لكثرة زوجاته في الفترة الأخيرة من حياته! وبقراءة مختصرة لسيرته ﷺ نرى أنه في البداية تزوج وعمره ٢٥ سنة من خديجة، ثم ماتت وهو في الخمسين من عمره، وظل بعدها ٣ سنوات لم يتزوج. ثم تزوج سودة بنت زمعة ذات الـ ٦٩ عامًا، بعد أن عادت من الحبشة ومات زوجها، ولم تجد أحدًا يحميها بمكة من بطش المشركين. وبعدها تزوج عائشة البكر والصغيرة الوحيدة التي تزوجها، وهي تعد ثاني أعظم راوٍ للأحاديث النبوية في الإسلام.

ثم تزوج أُم سلمة أيضًا كبيرة السن صاحبة الأبناء، ثم السيدة أم حبيبة رمله بنت أبى سفيان -رضى الله عنها- حين تنصر زوجها بالحبشة، وخشي المسلمون عليها وهو في بلد غريبة،

---

[1] صمويل هنتجتون، صدام الحضارات، ص١٧٠.

[2] League Of Militant Atheists – Wikipedia.

فأرسل رسول الله ﷺ إلى النجاشي يخطبها، وكان هذا الموقف الرجولي المبهر من رسول الله ﷺ سببًا رئيسًا في إسلام أبي سفيان فيما بعد.

ثم جويرية بنت الحارث -سيِّدة بني المصطلق-، والتي أعتق المسلمون بزواجها من رسول الله جميع الأسرى والسبايا من بني المصطلق، كما أسلم أبوها وأسلم معه قومه. ثم السيدة صفية بنت حيي بن أخطب -رضي الله عنها-، والتي كانت من يهود بني النضير وابنة زعيمها، فخيّرها النبي ﷺ بعد أن وقعت في الأسر بين أن يعتقها وتكون زوجته أو تعود لأهلها، فاختارت أن يعتقها وتكون زوجته، فأراد النبي ﷺ بذلك عدم إذلال هذه المرأة، وأن يشجع المسلمين على إعتاق الرقيق، وأن يشجع اليهود على الإسلام، أو على الأقل عدم إيذاء المسلمين.

والمدقق في حياته ﷺ يرى أن كل حركاته وسكناته لدعوته ولقضيته الكبرى، ولذا لم يعِب المشركون عليه ﷺ شيئا في أخلاقه ولا مبادئه ولا حظ نفسه، وهم الذين رفعوا عليه السيف وانتظروا له الهفوة وألبوا عليه قبائل العرب، لكنهم كانوا أكثر حيادية في عداوتهم من أبناء اليوم.

٣٧) يقول الملحد: الدين يعيق العلم!

في الواقع التجريبي إن خلقًا لا يُحصون عاشوا لله وبه، وأسسوا أعظم الحضارات والمُثُل، وجميع صناع البشرية كانوا من المؤمنين بالقدر.ولم يكن انحسار العصور المظلمة في أوربا إلا على يد الإسلام -كما يقول بيتر أوبراين Peter O`Brien-. بل إن الدين -بإجماع مَن يُعتد برأيه من علماء الأنثروبولوجيا واللاهوت والاجتماع والتاريخ وفلسفة العلم- أصل حضاري أساسي. ولذا يقول تشارلز داروين: "أما وجود حاكم للكون فهذا مما دانت به جموع من أعظم العقول التي وُجدت على الإطلاق".[1]

فالدين لم يكن يومًا عائقا لعلم أو حضارة إلا بمقدار ما فيه من إلحاد ووثنية. بل إننا نزعم أن الإلحاد هو الإعاقة الحتمية للعلم؛ انظر إلى تصور العشوائية في الكائنات -الإلحاد- وانظر إلى تصور التصميم في الكائنات -الدين-، واربط بين كلا التصورين لحظة اكتشاف الدنا الخردة junk DNA، هنا سيتوقف أصحاب التصور الأول -الإلحاد- عن البحث، وسيظل خردة مدى الحياة؛ لأن العشوائية شيء متوقع، بينما أصحاب التصور الثاني -الدين- لن يتوقفوا حتى

---

[1] Darwin, charles (1902), "The Descent Of Man", p131.

يعرفوا مغزى الدنا الخردة، فالله لم يخلق شيئا عبثا، وبالفعل انتصرت الأبحاث العلمية مؤخرًا لصالح أصحاب التصور الثاني، وتبين أنه لا حياة للإنسان بدون الدنا الخردة؛ إذ أنه المسئول مباشرة عن توجيه عمل الجينات، حتى ظهر مؤخرًا علم جديد مستقل لوظائف junk DNA، يسمى علم التحكم في الجينات Epigenetics، وهذا دليل مباشر على أن الدين يدفع نحو العلم والبحث، بينما الإلحاد يدفع نحو الجهل والتخلف والتوقف عن البحث العلمي.

إن الإلحاد الجديد يضعنا أمام خيار الإيمان بالله وفهم الكون، أو التخلي عن الإيمان والتخلي معه عن فهم الحياة والكون، ولو كان العقل نتاج مادة فكيف نثق في معطياته؟

وهذا يعني توقف العلم بالكلية، وانهيار الثقة في معطياته.

٣٨) يقول الملحد: الدين سبب الشرور في العالم!

عاشت البشرية مع ديانات التوحيد آلاف السنين، ومع الديانات الإبراهيمية الثلاث الكبرى أربعة آلاف سنة، ولم تمثل هذه الديانات خطرًا مباشرًا على الجنس البشري، بل قدمت للبشرية قيمًا أخلاقية عليا، يتفق عليها المؤمن والملحد، وأسست لحضارات أصيلة. بل يمكن أن نزعم أن كل خير في الأرض هو من آثار تلك النبوات، في حين أن قرنًا واحدًا اقتربت فيه بعض الدول من الإلحاد كانت البشرية كلها على شفير هلاك.

ثم يأتي الآن هؤلاء ويحدثونا عن خطر الدين على البشرية، وعن ضرورة التخلص منه!

لم يعرف التاريخ البشري دينًا أشد بؤسًا وأخطر إفزاعًا للبشرية كلها من الإلحاد، فلم تكن مذابح الكولاج في الاتحاد السوفيتي السابق على يد الملحد ستالين وقبله لينين، وإبادة الأقليات الاثنية في ألمانيا النازية، وتفريغ ربع كمبوديا من البشر على يد الملحد Pol Pot، وقتل ٥٢ مليون صيني في الثورة الثقافية الكبرى على يد الملحد ماو تسي تونج Mao Zedong، وظهور رابطة الملحدين العسكرية League Of Militant Atheists في أوروبا، والتي أغلقت رسميًا ٤٢ ألف مؤسسة دينية –كنائس ومساجد– وقتلت عشرات الآلاف من المتدينين إلا إفرازات إلحادية صرفة.

بل إن الحربان العالميتان الأولى والثانية كانتا حربين علمانيتين؛ تحكمهما تصورات إلحادية للأجناس البشرية، وخرافات السعي نحو النقاء العرقي، فكانت النتيجة إبادة قرابة ٥% من

سكان العالم، وأرجعت الحرب كلًا من المنتصر والمهزوم ثلث قرن إلى الوراء، وقام الفلاسفة بوضع مبولة في وسط باريس بدلًا من تمثال الجندي المجهول؛ كناية عن نهاية الحضارة.

وخلفت المعارك الإلحادية ترسانات من الأسلحة النووية، تكفي لإزالة الجنس البشري كله مرات عديدة. إن قراءة بسيطة لحروب القرن العشرين تُظهر مدى بؤس الإلحاد، ولذا لم ينتهي القرن العشرين إلا بتراجع الإلحاد، وأضحى رسميًا لا يتجاوز معتنقوه أكثر من ٢% من سكان العالم.

ولم تبق دولة تعلن أنها ملحدة إلا كوريا الشمالية North Korea Is Officially Only Atheist State، التي يتم الإعدام الفوري فيها لكل صاحب ديانة وكل حامل كتاب مقدس وكل مستمع لبرامج كوريا الجنوبية.

لقد خلفّ الإلحاد ورائه فكرة أن زوال الجنس البشري في أية معركة قادمة هي فكرة قائمة، هذا هو الإفراز الذي يمكن أن نجعله حكرًا على الإلحاد والملحدين.

٣٩) يقول الملحد: الليبرالية قرينة بالتقدم!

بتسوانا وناميبيا وجامبيا وموريشيوس والسنغال كلها دول إفريقية تُدار بأنظمة ليبرالية علمانية رأسمالية ديموقراطية تمامًا منذ عشرات السنين، لكن بما أنها من أفقر دول العالم، لذا لن يذكرها الملحد العربي، بل سيتعامل مع هذه الدول وكأنها غير موجودة. دولة ليبريا الإفريقية تعمل بالدستور الأمريكي مباشرة، وعملتها الدولار، وبها مجلس شيوخ ومجلس نواب منذ أكثر من نصف قرن من الزمان، وهي علمانية ليبرالية عتيقة، وأهلها ليبراليون، ومع ذلك دولة ليبريا مُصنفة كأفقر دول العالم على الإطلاق!

بل إن دولة ليبريا العام الماضي لم يدخل بها طالب واحد إلى الجامعة على الإطلاق؛ حيث فشل جميع الطلبة في اجتياز اختبار دخول الجامعة، تخيل!

فالملحد العربي لن يُقدِّم لك إلا بعض النماذج الغربية التي يرى أن صورتها مشرقة دائما، وطبعًا لابد أن تكون مشرقة دائمًا؛ لأن ثرواتها جاءت نتيجة ٥٠٠ عام من الاستعمار، و٥٠ عام من صندوق النقد الدولي.

ولا ننسى أن المسروقات التي سرقتها إنجلترا من الهند تفوق كل ما أنتجته منذ الثورة الصناعية، بل حتى الماسة التي تُرصع التاج البريطاني مسروقة من البنجاب بالهند!

ولذا يرى المفكر الكبير روجيه جارودي أن "على دول العالم الثالث أن ترفض جماعيًا سداد الديون المزعومة لصندوق النقد الدولي، فعلى الغرب للعالم الثالث دين رهيب، فمن الذي يعيد لبيرو ١٨٥ ألف كيلوجرام من الذهب والـ١٦ مليون كيلوجرام من الفضة، والذي اعترف بيت العقود التجارية لإشبيلية بنزحها ما بين عامي ١٥٠٣م و١٦٦٠م، مَن الذي يعوض الهند ملايين أطنان القطن المنهوبة بأسعار بخسة، من الذي يعيد لإفريقيا حياة الملايين من أبنائها الأشداء الذين نُقلوا عبيدًا للأميركتين ليعملوا بالمزارع الشاسعة؛ فتراكم الثروات في الغرب هو تراكم إمبريالي -استعماري- وليس تراكمًا رأسماليًا".

٤٠) يقول الملحد: الغرب متفلت من الدين، ونحن لن نتقدم إلا لو تفلتنا من الدين!

حقيقة الأمر نحن لا نبخس سعي الغرب في الجملة للتفلت من عقال الدين، فليس من الإنصاف أن نغض الطرف عن جملة العوامل الموضوعية التي برّرت لهذا التفلت، فبالنظر لطبيعة النصرانية واستبداد الكنيسة، وإشكالات الكتاب المقدس والعقيدة الثالوثية؛ بما فيها من استحالات عقلية -وليس مُحارات عقلية-، وبالنظر للإرث الأفلاطوني الأرسطي وما أحدثه من انحرافات في البنية المعرفية للعقل الغربي والجدل الاسكولائي الفارغ، أمام كل ذلك كانت ردة فعل الغرب متوقعة.

إن الغرب الآن يعيش حالة نفسية تجاه الدين لا ننكر دوافعها، وإن كُنَّا نعترف بمبالغتهم، وأصبحوا الآن يعانون عقدة مبهمة من الدين؛ كالفرد الذي لدغه ثعبان فصار يخاف من الحَبْل! إن هؤلاء ربما يكونون مُحِقون في الخوف من دينهم، لكن نحن ما ذنبنا وقد جنينا من الدين أطيب الثمر؟!

٤١) يقول الملحد: الملحدين أيضًا يفعلون الخيرات، أنجلينا جولي "مثلًا" تساعد الفقراء وتؤمن بالقيم!

إنَّ الملحدين يروجون كثيرًا لهذه الدعايات، ومع أن أنجلينا جولي -كمثال- لا يوجد جزم بإلحادها أصلًا، والحديث عن الإلحاد في المجتمع الأمريكي شيء ممجوج ومستقبح للغاية ويدعو للغثيان -ولذا نادرًا ما يُعلن شخص عن إلحاده-.

ومع ذلك فتصرفات أنجلينا جولي الأخلاقية تؤكد على قيمة الأخلاق ومطلقيتها، وأن الجميع يعتنقونها بوعي وبغير وعي، فالبشر ليسوا مُخيرين في رفض التكليف الإلهي، فالأخلاق

يعتنقها الجميع ويؤمنون بمعناها، مع أن هذه الأخلاق ليست ربحية، فقيمة الأخلاق ليست من هذا العالم، إنَّ الأخلاق الأصلية تأتي دائمًا ضد المصلحة الشخصية وضد المادة، وفي هذا تأكيد سامق على استحالة رد الإنسان للنموذج المادي، أو تحليله في إطار حتميات مادية.

فالقيمة لها معنى غير مادي تستمده من عالم آخر، ولا تعتمد على نزوات البشر أو طموحاتهم، فهي غير مادية وغير مصلحية وغير عقلية، بل إن الأخلاق والقيمة على المستوى المادي ضارة، ويقرر ذلك ماندفيل Bernard Mandeville –أستاذ علم الأخلاق الإنجليزي– حين سُئل: ما أهمية الأخلاق لتقدم المجتمع والتطور الحضاري؟ فأجاب ببساطة: لا شيء، بل لعلها تكون ضارة.

بل إن قصور الإنسان في القوة ناتج عن التزامه الأخلاقي القيمي، فالقيم لا معنى لها من هذا العالم، فهي تحمل في طياتها معنى التكليف الإلهي؛ لذا فحتى الملحد لا يستطيع أن يرفض ذلك التكليف الإلهي، ثم إن الملحد يفترض مسبقا مطلقية القيمة، ولهذا يُعطي أحكامًا ويطرح رؤيةً ويقرر الصواب والخطأ، وينتقد ويمتدح بناءً على هذا الوعي الفطري داخله بمطلقية القيمة، وفي هذا الحجة الأولى والأكبر للدين.

لكن هنا قد ينتفض الملحد العربي ويعترض ويفضل نسبية القيمة، ولتذهب أعمال أنجلينا جولي إلى الجحيم، في مقابل أن يحتفظ بأسس إلحاده سليمة دون تشكيك، وهنا –طبقًا لرؤية الملحد العربي ذاته– تصبح أعمال أنجلينا جولي الخيرية مستهجنة، ولا معنى لمدحها أو حتى التفكير فيها، لأن المسألة في النهاية نسبية.فإما أن تكون أعمالها الخيرية عظيمة فعلا، وساعتها لا معنى للإلحاد، وإما أن تكون أعمالها الخيرية بلا معنى، وساعتها لا مجال لمدحها.

٤٢) يقول الملحد: الإيمان وراثة لا أكثر، و لو أتيح لكم الشك والاطلاع على الشبهات سيلحد منكم الكثيرون!

أولًا: هناك إيمان عن اقتناع، وهناك إيمان عن تقليد، وهناك إيمان عن مزيج من الاثنين معا، وإيمان لسبب خارج عن المسألتين، ولا ننسى أن الكفر كذلك بنفس الدرجات.

إذًا هناك إرادة حرة مبنية على اقتناع عقلي Objective باستحالة وجود الكون بلا خالق، وهناك إيمان نتيجة الأخذ بطريق السلامة والتقليد Subjective، لكن النتيجة واحدة في النهاية؛ وهي أن العقل يختار أحد الطريقين، فهنا يوجد عمل للعقل، وقرار يتخذه المقلد وغير المقلد، وإن كان تحري الدليل أفضل وأحكم.

ثانيًا: المقلدون الذين يقلدون مجتمعهم المؤمن؛ هذا فيه دليل على أن الإيمان في أصله لا يعارض الفطرة السليمة، وإلا لاصطدم بفطرة أغلبية البشر -المؤمنة بالخالق-، لكن أيضًا الذي يكفر هو بصورة ما مُقلد؛ يقلد مَن سبقه بالكفر والتمرد، ويقلد ما يدور في عقله من أماني، مثل: أنه جاء إلى العالم عبثا، وأن لا بعث ولا نشور، بل إن أغلب الملحدين في بلادنا يلحدون على صيت إلحاد بعض العلماء في أوروبا.

ثالثًا: التقليد أقرب منطقيًّا من ترك التقليد إلى إيمان بعقيدة إلحادية أبعد ما تكون عن العقل.

رابعًا: الإيمان في الجملة يبدأ فعليًا وراثيًا، ثم يمر بمرحلة اختبارية -في الغالب-، ثم ينتهي باعتقاد يتخلله الكثير من الاختيارات في كل لحظة وفي كل موقف يمر به الإنسان، وفي كل شيء يراه ويقيس عليه أصول دينه وعقيدته، وهل يجد فيها تحليلًا متكاملًا لما يراه، وهل ثمة تناقض جوهري أم صوري؟ وهكذا إلى أن يُقبض، ويوم القيامة يفصل الله بينهم فيما كانوا فيه يختلفون.

خامسًا: إن لم يكن في الإيمان اختيار، وإن لم يمر الإنسان بمرحلة اختيارية، فلماذا يوجد الملحدون والكافرون؟

أما قولك: " لو أُتيح لكم الشك والاطلاع على الشبهات سيلحد منكم الكثيرون".

فهذا ادعاء مناقض لأُسس علم النفس؛ ففي علم النفس ما يسمى (قابلية المحل للتلقي)، والمحل هنا هو النفس الإنسانية، فلو كانت النفس الإنسانية تقبل الشبهة وعُرضت عليها الشبهة ستتشربها، ولو لم تُعرض عليها ستتشرب ما بيدها، المهم أن تصل إلى قعر القابلية.

وبالتالي ففي التحليل الأخير؛ كل إنسان يصل إلى قعر ذاته بغض النظر عن التعرض للمؤثرات الخارجية، ويمكن أن يكفر مَن لم يسمع بالكفر قط، ويمكن أن يؤمن مَن لم يسمع بالأيمان قط، ويدخل الجنة مَن لم يعملوا خيرًا قط -كما في الحديث-، وأول من تُسعر بهم النار بعض أئمة الدين.

٤٣) يقول الملحد: أنتم فقط تؤمنون خوفًا من النار وطمعًا في سعادة أبدية، وحور عين، وجنة!

أولا: يمكننا نحن أيضًا أن ندعي بالمثل أن الكافر يكفر حتى لا يشعر بالذنب، وحتى يستطيع أن يتفلت من تكاليف الشرع، وأن يستمتع بشهواته بلا قيد، فللكفر لذة، لكن هذا منطق ضعيف فيه حكم بالظن، لا بما يعتقد هو.

ثانيا: ليس معنى وجود أشياء جيدة في الإيمان؛ كالجنة والسعادة الأبدية والبعث، أنها غير صحيحة، وليس معنى الموت بلا بعث، والفناء الأبدي الذي يجمع البشر على قبحه أنه صواب؛ فالقضية لا تقاس بهذا المعيار.

ثالثا: الإيمان بالجنة والسعادة الأبدية هو إيمان تابع لإيماننا بالرسالة الدينية؛ أي أنه ليس إيمانًا مستقلًا، وليس مبررًا للإيمان، وإلا فهل نترك إيماننا لمن يدعي أنه سيعطينا جنتين بدلًا من جنة واحدة؟!

القضية الأخروية بكل معالمها نفس الشيء؛ فهي قضية تابعة لعقيدتنا وليست إيمانًا مُستقلًا، ولا يستقل العقل بالوصول إلى تفاصيلها ولا التسليم بوجودها، لولا التضمين الديني للقضية واعتبارها أحد مسلمات وجودنا.

رابعًا: ما المانع العقلي في نعيم أُخروي؟ بل أليس هو الأقرب عقلًا ومنطقًا لمن تعفف في الدنيا ابتغاء رضوان الله أن يُرزق بنعيم أُخروي.

هل يوجد مانع فكري أو فلسفي أو مادي أو ديني يمنع من الزواج في الجنة؟ ثم إن لكل رجل في الجنة زوجتان فقط، إلا الشهيد الذي يُزوج بـ٧٢ من الحور العين، وتُغفر ذنوبه مع أول قطرة دم، ونتحدث عن الشهادة في سبيل الله في مواطنها. وتتفق جميع دساتير العالم أن أعلى تكريم مادي ومعنوي يناله إنسان في أية دولة هو ذلك الذي خاض غمار معركة، ولو قُتل في سبيل وطنه فإن أعلى درجات التكريم تنال ذريته مدى الحياة من بعده، فما بالنا بذي الفضل والمنة -سبحانه وتعالى-؟

خامسًا: وجود المؤمن والكافر والملحد في هذه الدنيا هو أكبر دليل عقلي على الاختيار الحر والإرادة، وأن النعيم الأُخروي ليس دافعًا مستقلًا للإيمان.

٤٤) يقول الملحد: المسلمين لا يحركهم لعمل الخير إلا الإيمان باليوم الآخر!

لا ينبغي هنا للمسلم الذكي أن يرد حقيقة الإشكال إلى تصور امتناع الالتزام بالأخلاق دون حافز أخروي، فالقرآن أخبر عن إمكان وقوع الخير من أجل الدنيا وإمكان وقوعه من أجل الآخرة ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾.[1] فمن الناس مَن يكون أمين رجاء

---

[1] سورة آل عمران: ١٥٢.

مصلحة دنيوية، ومن الناس مَن يلتمس الأمانة وإن تعارضت مع مصلحته الشخصية، فالأول يريد الدنيا والثاني يريد الآخرة.

لكن هل بالفعل عمل الخير قرين بإرادة الآخرة فقط، أم ربما إملاء فطرة وطبع؟

أولا: الله فطر الخلق على فطرة مستقيمة. فلا غرو أن يحب كل إنسان مبادئ الأخلاق، ولو كان غير مؤمن بالآخرة -كما فصلنا من قبل-، وكما وقع من مشركي قريش، ومن بعض الملحدين انفسهم اليوم.

ثانيا: الخير لا ينتمي في معناه إلى هذا العالم؛ فلو كنّا أبناء هذا العالم فلن يبدو فيه خير أو شر، قداسة أو نجاسة، فهذه إضافات تستمد معناها من عالم آخر. فلا يوجد تفاعل كيميائي يفرز الضمير، ولا توجد وصلة عصبية تُعطي القيمة أو تُحرر المعنى، ولا يؤدي تبادل أيونات الصوديوم والبوتاسيوم على جدران الخلايا العصبية إلى ظهور الأخلاق، فالقضية متجاوزة في معناها وفي سماتها، ويعتنقها كل إنسان بوعي أو دون وعي، وفي هذا حجة كبرى للدين.

ثالثا: سِمَة الإسلام الأساسية هي تعبيد كل شيء لله خالقه، فتعبيد أخلاقك التي فُطرت عليها وجعلها مقصودة لله هو مقصد الإسلام الأسمى، وهو محك العبودية، أما الذي يستخدم فطرته الأخلاقية ويلتزم بها من أجل مصالح دنيوية ودوافع أنانية؛ مثل الشهرة وحب الناس والمنصب، فهذا ممن لا يريدون إلا الحياة الدنيا.

ومن العجيب أن الدافع الدنيوي لفعل الخير لا يكفي لتبرير شعورنا الضروري بحسن ما نفعل وقبح ما نترك، والذي يزعم أن الأخلاق تجربة بشرية لا يعي أنه ليس لدينا مبرر مستقل عن التجربة البشرية يطمئننا بأن ما نؤمن به من قيم، وبالتالي لا يمكن التأسيس للأخلاق في إطار كهذا، ولا يمكن استيعاب وجودها الضروري في كل نفس بشرية إلا بالإحالة إلى الماوراء.

ومن أراد الآخرة اكتسبت الأخلاق عنده قيمة إضافية وأبعادًا معنوية جديدة، وكما قال الإمام الشاطبي -رحمه الله-: "المقصد الشرعي من وضع الشريعة إخراج المكلف عن داعية هواه، حتى يكون عبدًا لله اختيارًا كما هو عبد لله اضطرارًا".[1]

---

[1] الشاطبي، "الموافقات"، ٢-٢٨٩.

٤٥) يقول الملحد: الأخلاق نابعة من مبدأ الصراع من أجل البقاء!

الإنسان لا يلتزم بمبدأ الصراع من أجل البقاء، بل يلتزم بالمبدأ الأخلاقي في أحلك الظروف، وهذا ما أثبته المؤرخ الرسمي للجيش الأمريكي صامويل مارشال Samuel Marshall في كتابه (Man Against Fire)؛ إذ أثبت أن ٧٥% من الجنود لا يطلقون نيران أسلحتهم بشكل مباشر لقتل أحد الأعداء، حتى وهم مُعرضون للخطر، بل إن رادعهم الأخلاقي الرافض للقتل يجعلهم يتوقفون. وقد عُرفت هذه النسبة بمعدل مارشال لإطلاق النار في الحروب.

يفترض الدراونة أن الالتزام الأخلاقي هو فقط لمصلحة مستقبلية، لكن شرط الداروينية هو عدم الإعداد للمستقبل، فالتطور ليست له بصيرة مستقبلية؛ وأمام هذا التحدي افترض هربرت سيمون Herbert Simon الاقتصادي الحائز على جائزة نوبل أن السلوك الأخلاقي نابع من محدودية العقل، بلفظ آخر (الأخلاقيون في هذا العالم هم الأكثر غباء).

وهذا التحليل من هربرت سيمون يعني الفشل في تحليل معنى الإنسان؛ ففيه تصريح مباشر أن الإنسان شيء والتحليل المادي شيء آخر تماما، فالأكثر أخلاقًا هم دومًا الأكثر ذكاء وعبقرية وقيادة.

الخلاصة: الإلحاد لا يصلح لتفسير ظاهرة الوجود الإنساني، ولا حتى الاقتراب منها. في الواقع الإنسان فقط هو الذي يستطيع التمرد على طغيان جيناته؛ لأنه ليس ابن المادة.

٤٦) يقول الملحد: الالتزام بالأخلاق ناشئ عن المصلحة!

نحن نلتزم بالأخلاق اضطرارًا لأنها الفطرة، صبغة الله التي صبغ الناس عليها، فحتى أفجر الملحدين يؤكد إيمانه بصورة ما من صور الأخلاق، فالأخلاق فيها المثالية المتجاوزة –مثالية اللامادة واللامعنى واللاعقل–؛ لأنها تستمد معناها من عالم آخر، وتستمد قيمتها من عالم غير مادي، وإلا لما كان لها معنى.

بل إن الملحد لا يُلحد إلا بسبب الأخلاق المثالية التي يفتقدها في الدين؛ بسبب عيب في الدين، أو عيب في تصوره هو للدين، فلو لم يكن للأخلاق معنى فلن يكون للإلحاد وجود.

بل ولنا أن نسأل: هل الملحد يلتزم بالأخلاق بسبب المصلحة؟!

٤٧) يقول الملحد: الأخلاق إفراز الطبيعة المادية!

عندما تنظر إلى صراع الغابة والحشرة التي تتغذى على بدن اليرقة تشعر ساعتها أن أخلاقك البشرية تحتوي على مطلقية وشمولية لا تُحللها الداروينية القاصرة، إن ذلك ليس إفرازًا ماديًا، فالأحكام الأخلاقية تتجاوز محيط الخبرة البشرية ومحيط استعدادها بالمنظور الدارويني، إنها أحكام مطلقة متجاوزة ثابتة.

بل وليس كفر الملحد واعتراضاته إلا انفعالات في ضوء التصورات الأخلاقية المطلقة التي فُطر عليها.

فالمفترض لو كان الإنسان ابن الطبيعة أن يكون قاصرًا بقصور الطبيعة المادية، ومحكومًا بحدودها وقوانينها، ولا تتجاوز خبراته الذاتية حدود العالم المادي، لكن نحن حين نتحدث عن الأخلاق فالأمر قبلي؛ أي يسبق الخبرة الذاتية ويتجاوزها، ويعطي تقييم مبدئيًا مطلقا، فمن أين أتى الإنسان بهذه الأحكام المطلقة والبرهان الضروري إلا بتقرير كُمُون الحسِّ الأخلاقي لحظة خلق الإنسان، بوازع الروح التي وهبها الله له.

٤٨) يقول الملحد: أنا ألتزم بالأخلاق لأن ضميري يدفعني لذلك وليس الدين!

ما مصدر إلزامية الأخلاق؟ لماذا هي صالحة من الأساس؟ ماذا نجني من وعينا بضرورة قبح ضدها وحسنها في ذاتها؟ ولماذا يستمر هذا على نحو كوني Universal دون أدنى تغيير منذ الإنسان الأول؟ لماذا نشعر شعورًا ضروريًا بمطلقية القيمة الأخلاقية في ذاتها؟ ثم ما معنى الضمير الذي نتحدث عنه؟ وهل تبادل أيونات صوديوم وبوتاسيوم على جدران خلية عصبية في الدماغ تفرز ضميرًا أو قيمة أو معنى؟

القضية هي تكليف إلهي بداخل الإنسان، وليس بوسعه التمرد عليه. فالله تعالى خلق الوجود كله بالحق، على هيئة تُمكن الإنسان من فهم الأمانة والقيام بها، فالأخلاق وكونيتها لها استقلالية تامة عن أي سياق زماني أو مكاني، ودعائم الأخلاق الثلاثة التي لا تنفك عنها هي؛ (وجود الله واليوم الآخر وخلود الروح)، فلو لم يوجد يوم آخر ما كان للأخلاق معنى ولا قيمة، ولو لم توجد روح فلن نستوعب الأخلاق، وقد جمع الله –عز وجل– هذه الدعائم الثلاث في آية واحدة، فقال سبحانه: ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.[١]

---

[١] سورة الجاثية: ٢٢.

٤٩) يقول الملحد: ما هو مصدر القيمة، وما المانع أن تكون إنتاجًا بشريًا؟

القيمة والمعنى والأخلاق كلها أمور لا تستند إلى ركيزة مادية أو جينية، بل هي كما قلنا من قبل تُمثل عبئا ماديًا، فالأخلاق والقيم موضوعية لا ذاتية، ولا تعتمد على رغبات البشر أو نزواتهم، فالخير خير عند الصالح والطالح، والشر شر عند الصالح والطالح، إنَّ الأخلاق تعتمد على شيء خارج الذهن البشري، تعتمد على إرادة الله التي يريدها لهذا العالم، فالأخلاق لها غرضية كونية فيها استقلال عن أفكار البشر ورغباتهم، والقيم الأخلاقية يعتنقها كل إنسان بوعي أو بغير وعي. وقد دخل الإنسان التاريخ برأس مال أخلاقي مبدئي هائل، وهذا يؤكد على أصالة ظهور الإنسان، **ثم لو خلق الإنسان القيم بعقله فقد يتشكك فيها؛ قد يقول لنفسه: ما الذي يُلزمني بها؟ ولماذا أُضحِّي بسعادتي ولذتي السريعة وجميع الفوائد الأُخرى من أجل بضعة أفكار؟ لو كان للأخلاق والقيم معنى فلن تكون من هذا العالم.**

ولو لم يكن لها معنى، لما كان للالتزام بها مزية خاصة! يقول الكاتب نجيب محفوظ: "الله هو الذي يُعطي القيم معناها، الله هو الذي يعطي الوجود معناه، بدونه لا معنى للوجود، لا معنى للقيم، وبديله هو العبث، اللا معنى".[1]

٥٠) يقول الملحد: الإيمان عاطفي؛ وبالتالي ليس عقليًا!

للعاطفة دور أساسيٌّ في قيادة منظومة التفكير؛ فالعقل ليس غريزة فقط، ولا قضايا ضرورية مجردة فحسب، وإنما فعل يُكتسب وأخلاق تُجتلب ومعانٍ تُركب وأفكار عاطفية، وهذا خلاصة ما انتهى إليه أنتونيو دماسيو وجورج لاكوف وفيليب جونسون وغيرهم، وهو التصور الذي يلتقي مع المفهوم القرآني النبوي للعقل.

وابن الجوزي مثلاً يعد علو الهمة من كمالات العقل، والإمام مالك يرى أن رأس الحكمة معرفة الدين والعمل بالدين، فالوضع المعرفي هو حالة مُركبة من فكرة وعاطفة وعادة، وله أساس فكري وآخر عاطفي وثالث سلوكي، والحالة المعرفية ثمرة نهائية لعمل العقل في تكامل مكوناته، وهي حالة خالصة من تراكب العادة بالعاطفة بالفكرة، ومن العاطفة ينشأ باعث الفكر، وبالعاطفة تتأثر هيئة الفكرة. فالذي يُنكر دور العاطفة في العملية العقلية هو أجهل الناس بالعقل.

---

[1] نجيب محفوظ، "وطني مصر"، دار الشروق، ص٦٣.

وعندما يعمل العالم في مختبره، فإن الفكر يسيطر عليه –لا إشكال في ذلك–، لكن هل ينطلق فكره من عاطفة؟ الجواب: نعم؛ إنه ينطلق –مهما ادعى وصلًا بالموضوعية– من أساس عاطفي؛ أي حاجة تدفعه لفعل ما يعمل وحب ما يعمل ومحاولة البروز والتميز والتفرد فيما يعمل، بل إن الدافع العاطفي هو الآكد والأصل والجوهر.

يقول جيمز مثلا: "كلما زادت خيبة الأمل في تقديم براهين على نظرية التطور، زاد الباحث التطوري إيمانًا بنظريته، لأنها تتطلب منه المزيد من الجهد".[1]

وهكذا يكون الدافع عاطفي في الأساس؛ فالعملية العقلية مركبة من عاطفة ومنطق وفكر، ولا يستقل أحدها عن الآخر. إنَّ العاطفة جزء لا ينفصل عن العملية العقلية السليمة.

٥١) يقول الملحد: العقل هو الحصن الموضوعي لأية مشكلة فكرية!

تصور العقل أنه يتمتع بكينونة وجودية مستقلة Ontologically Independent —حيز أنطولوجي من الجسد المادي– هو تصور يقبع في دائرة الخرافة العلمية الآن؛ فالعقل عملية وظيفية للروح، وليس عضوًا جسديًّا أو إفرازًا لعضو جسدي، ولا يوجد في الطب جزء من الجسد يُسمى عقل. ولذا لم ترد صيغة العقل في القرآن الكريم ولو لمرة واحدة بصيغة اسمية –عقل–، وإنما وردت أكثر من خمسين مرة كلها بصيغ فعلية؛ يعقلون، نعقل، يعقل..

والعقل ليس حصنًا موضوعيًّا عديم الصلة بأي مضمون ذاتي، بحيث نفزع إليه متى أردنا الفرار من ذواتنا صونًا لأحكامنا، بل هو جزء من الرؤية الذاتية وانعكاس لها، لذا فالعقل العاطفي –مثلًا– هو وظيفة عقلية سليمة –كما فصّلنا قبل قليل–، وليس شيئا مجانبًا للعقل.

خطأ ديكارت الأكبر أنه قام بفصل العقل عن الجسد، ثم أسقط الفكر المجرد على العقل وأعطاه قداسة ذاتية، واعتبر أن الإنسان إنسان فقط بالعقل، وأن الجسد لا قيمة له. في الواقع هذا الخلل أثر جدًا على العقل الغربي فيما بعد؛ فإهمال بقية خصائص النفس شيء غير جيد، وإهمال معنى الجسد ظلم يترتب عليه تشوه التصور فيما بعد، وأول الأخطاء في الفكر الغربي اعتبار أن العاطفة شيء منفصل عن التفكير، بينما هما متآزران متكاملان، والعاطفة تفرض معنى معينًا على التفكير ولا تلغيه. فالعقل ينبوع الفكر والعاطفة، وليس مجرد آلة منطقية أرسطية، إنما عملية حية متكاملة وغير برمجية.

---

[1] James, w., "The Sentiment Of Rationality", p95.

العقل ليس آلة ذات خوارزميات خطية منطقية محايدة ومنعزلة عن حقائق النفس الأخرى، بل الكل متداخل، والعاطفة في أقصى درجاتها تحتوي على مكون معرفي. فالعاطفة مُضمنة في تضاعيف عملية التفكّير والعكس. والعقل مشتق من مطالب الجسد ومعبر عنها. ويوجد في العقل مكان للبصيرة Insight، ومكان للحكمة Wisdom، فالعقل لا يخضع لعملية البرهان المنطقي المنظم فقط، وإنما يسيطر عليه الوجدان والعاطفة والبصيرة والحكمة، وكلها وظائف عقلية سليمة لا تقل قيمة عن وظيفة العقل المنطقي، بل ربما تكون أهم.

٥٢) يقول الملحد: الإيمان مسألة ذاتية وليست موضوعية!

هذا أيضًا من تداعيات تصور العقل بالرؤية الديكارتية، فالموضوعية والذاتية ينطلقان من ذات واحدة؛ هي ذات الإنسان، فلا سبيل للانفصال عن النفس للاتصال بالموضوعية مثلا. فالموضوعية حالة عقلية، وليست حصنًا نلوذ به من الذاتية، كذلك الذاتية حالة عقلية وليست حصنًا نلوذ به من الموضوعية. إنه لخطأ كبير أن ننظر إلى الموضوعية على أنها صديقة الحقيقة، بينما تكافئ الذاتية الوهم.

فالموضوعية والذاتية موقعان إدراكيان طبيعيان متكاملان متآزان ومشروعان للعقل، فالذات والموضوع يتداخلان في كافة مستويات الوعي، ولن تجد –إطلاقًا– موضوعية مستقلة تمامًا عن الذاتية، لأن المعرفة التجريبية المنطقية الحسية في أكثر صورها مادية هي معرفة قائمة بالذات وناشئة عنها.

والرصد التجريبي مقترنٌ بالذات المؤمنة؛ فالموضوعية ممكنة، لكنها متصلة بالذات، وهي مع الذاتية حالتان للعقل تعتوران الوعي، فينفتح على ضروب مختلفة من الخبرات والمعاني.

أما مبادئ العقل الأولى –أو بدهيّاته– فهي في مأمن؛ لا علاقة لها بالذاتية ولا الموضوعية، بل هي مستقلة. وقد أثبت كانط استعدادًا إدراكيًا أصِليًا متمكنًا في النفس البشرية منذ البداية، وربما هذا نظير قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ﴾.[1] فإن قدرة الإنسان على التعرف على الأشياء وتمييزها بالتسمية فرع عن ثبوت ملكة تمكّنُه من ذلك، فإمكانية المعرفة تكون بفضل تمتعنا بنظام إدراكي إيجابي فاعل، لا لوحة سلبية منفعلة لمدخلات الحس.[2]

---

[1] سورة البقرة: ٣١.

[2] Lavine, T. Z., From Socrates To Sartre, P.193.

٥٣) يقول الملحد: القضية الدينية قضية غير علمية!

لا تكون النظرية علمية إلا لو كانت قابلة للنفي Falsifiable، وهذا أصل النظرية العلمية كما يقرر كارل بوبر Karl Popper فيلسوف العلوم، وهذا ما قاله أينشتاين نفسه يومًا ما حين قال: "لا يمكن لأي عدد من التجارب أن يثبت أنني على صواب، ولكن تجربة واحدة تستطيع أن تثبت أنني مخطئ".[1]

فمثلًا النسبية العامة لأينشتاين تم إثباتها على يد رذرفورد؛ حيث تم رصد تحدب شعاع الضوء، لكن يوم أن نكتشف خطأ الرصد أو خطأ القياس، ستصبح النسبية العامة خرافة؛ لأنها قابلة للنفي في أية لحظة، لذا فالنسبية العامة نظرية علمية محترمة. هذا هو أصل النظرية العلمية، ويرى كارل بوبر نفسه أن الانتخاب الطبيعي ليس نظرية علمية؛ لعدم قابليته للنفي، فما هي اللحظة التي نستطيع فيها أن نقول أن الانتخاب الطبيعي خاطئ؟ هذا غير موجود في الإطار العلمي؛ لأن الانتخاب الطبيعي -كما يقرر أنصاره- لا يمكن إثباته تجريبيًّا أو رصده، ولا يوجد عليه دليل واحد مباشر حتى الآن، ولا نطمع أن نجد هذا الدليل يومًا ما، إنما هو مُعطى دوغمائي لا أكثر، لا نستطيع نفيه لأننا لا نملك أدوات رصده، وبذلك يكون الانتخاب الطبيعي خارج إطار النظرية العلمية؛ لعدم قابليته للنفي.

وفي هذا الإطار يمكننا القول أن الإيمان الديني نظرية علمية محترمة لقابليته للنفي، فوجود خطأ في النص الديني مناقض لقانون كوني -مثلًا- يعني خطأ الإيمان الديني؛ وبالتالي فقابلية الإيمان الديني للنفي تجعله يدخل في إطار النظرية العلمية المحترمة، ويُنعت أتباعها بالأكثر عقلانية.

٥٤) يقول الملحد: المعجزة لا يمكن استيعابها، مما يجعلها خرافة!

"لا توجد ضرورة عقلية تُحيل إمكان تبدل المعهود من القوانين إلى هيئات لا تخطر على العقل البشري، فيما اعتاده من ظواهر العالم الطبيعي".

وسبحان الله! قائل العبارة السابقة هو (ديفيد هيوم) أشهر منكري المعجزات، قال هذا الكلام في معرض نقده لقانون الاستقراء والنتائج المنتزعة منه.

---

[1] كريم فرحات، "لست ملحدا، لماذا!"، نهضة مصر، الطبعة الأولى ٢٠١٣.

فعدم العلم بالإمكان ليس علمًا بعدم الإمكان، فيلزم وقوع المعجزة بناء على ما يلزم من قول هيوم إزاء الاستقراء، فالمعجزة لا مانع عقلي منها، والعقل يستطيع أن يستوعبها، وإذا كان الله موجودًا فما المانع من المعجزات.

٥٥) **يقول الملحد: الصدفة والزمن يفسران كل شيء!**

يعتمد الإلحاد الحديث على ألوهية الصدفة وألوهية المدة الزمنية، ويجعلون من ذلك وثنًا يُعبد. وهنا مغالطة منطقية شهيرة؛ فهناك فرق جوهري بين الممكن العقلي والمستحيل العقلي، فأي رقم مضروب بصفر ناتجه صفر، لكن الملحد يتوقع أن الزمن كفيل بإعطاء رقم إيجابي مع تكرار العملية الحسابية! وهذا هو الوثن الإلحادي الذي نتحدث عنه، فاحتمال ظهور الشيء يعتمد على العناصر المستخدمة في التجربة قبل التجربة، فما معنى وجود تجربة دون وجود عناصر لتجربة أصلا؟ وأيّة تجربة عناصرها العدم ناتجها العدم أيضا.

فالكافر مؤمن بإله مفاجئ عشوائيّ؛ هو (الصدفة)، إلهًا يقع في إطار المستحيل العقلي، أما نحن فنؤمن بإله حكيم خبير، وعقليًا الإيمان به هو الاختيار الذكي والمسئول.

٥٦) **يقول الملحد: الإيمان الديني هو أدلة متراكمة، فهل هذا يوصل لليقين؟**

تقديم الأدلة المتراكمة والشواهد يضيف إلى رصيد الحجة بما يوصلها إلى البرهان القطعي Evidence Based، وأنت حين تدخل على عملية جراحية كبرى، تعرض فيها حياتك للخطر، فأنت فقط تستخدم دليل اطراد نجاحات سابقة، بل حتى مخاطرة ركوب طائرة يستخدم فيها العقل نفس القدر من الحجية، وهو اطراد نجاحات سابقة لرحلات طيران ذهبت وعادت بسلام، هذا دليل واحد يكتفي به العقل ليتقدم إلى مخاطرة كبرى مثل إجراء عملية جراحية أو ركوب طائرة، فعندما يأتي نفس العقل ويزعم أن أدلة كبرى متزاحمة ومحتشدة مثل النظام والإيجاد والعناية والضبط والسببية والغائية، والفطرة والرسالات، لا تكفي كدليل على وجود منظم وضابط وخالق ومسبب، فهذا من أكذب العقول وأفجرها، وإن زُعِمَ خلافُ ذلك.

٥٧) **يقول الملحد: الغاية من الوجود ظهرت بعد وجوده!**

هل الغاية تسبق الوجود –الفكر الديني–، أم الوجود يسبق الغاية –الفكر الإلحادي–؟

الذي يُسلِّمُ -مثلًا- بأن الغاية من الأعضاء في الكائنات الحية توجد بعد ظهورها -الرؤية الداروينية-، وليس بسبب خطة مسبقة من حكيم خبير -كالرؤية الدينية-، يسلم بمغالطة العربة قبل الحصان. إن وجود الأوكسجين وتوفره لا ينتفع به جسم الإنسان إذا لم يوجد لديه جهاز يستقبله، فخلق الله جهازًا دقيقًا في جسم الإنسان وهو في بطن أمه؛ وهو الجهاز التنفسي الذي يعمل منذ أيام الولادة الأولى حتى الوفاة -باستمرار- دون كلل أو ملل أو توقف، ويعمل في كل مكان، وفي حالة النوم واليقظة! فمن رحمة الله أن يسّر لنا أخذ الهواء بطريقة سهلة لا تعيينا ولا تؤلمنا، ولا تكلفنا جهدًا أو مشقة، فالذي خلق لك هذا الجهاز وأنت جنين في بطن أمك وهيأه لاستقبال الهواء الصالح -الأوكسجين- الذي لا وجود له وأنت في بطن أمك، وهيأه لطرد الهواء الفاسد -ثاني أكسيد الكربون- الذي لا يوجد أيضًا في بطن أمك، لا شك أنه عليم بأنك ستخرج من بطن أمك إلى عالم فيه ذلك الهواء، وله غاية من خلقه قبل خلقه، وإلا لم يخلقه، إنه خبير بأن الهواء يتحول إلى هواء فاسد -ثاني أكسيد الكربون-، فأعد لك ما تحتاج إليه على الأرض وأنت لا تزال جنينًا في بطن أمك. ومن هذا المثال البسيط يتضح أن الغاية من وجود أي شيء تظهر قبل وجوده بداهة؛ وهذا يبين مدى الفرق بين الرؤية اللامنطقية اللاعقلية الإلحادية، والرؤية المنطقية العقلانية المنضبطة الدينية.

٥٨) يقول الملحد: استيعاب وجود الخالق صعب، ولا أتصوره عن نفسي!

إن الخالق سبحانه ليس شيئا ممتنعًا لذاته، ولا يحكم العقل بضرورة انتفاء وجوده؛ لأنه لو كان كذلك لانتفت الحاجة لتجشم إثبات امتناع وجوده، لكن الحكم فرع عن التصور، فيستحيل أن يخوض الملحد في قضية ممتنعة لذاتها، إلا لو كان خوضه من باب الرجم بالغيب؛ فإنكار الملحد للخالق عائد على تصور معين، لا إلى عدم وجود الخالق، والممكن لا يمكن الحكم عليه بنفي أو إثبات إلا بدليل، والمثبتون يحشدون الأدلة ليل نهار، فلم يبق إلا التدليل على دعوى النفي، وهي دعوى الملحد، الدعوى التي لم يتقدم عليها بدليل واحد إلى الآن، وإنما غاية اتجاه الملحد نقد التصور، وليس نقد وجود ذات الخالق.

٥٩) يقول الملحد: كل المعارف مُكتسبة؛ وبالتالي لا معنى للفطرة!

هناك سبق للأوضاع المعرفية على المتصوَرات الوجودية؛ أي سبق للمعرفة داخل العقل على الوجود المادي الخارجي، فلابد من وجود مفاهيم أولية في تركيب العقل، وهذه المفاهيم يُسلطها الإنسان على العالم فيفهمه به -كما يقرر كانط-، إنّ المفاهيم الأولية لها حضور ضروري.

وهذا ما قرره عالم اللغويات الكبير نعوم تشومسكي؛ فهو يرى استحالة نشأة اللغة دون وجود معارف أولية -فطرية- لدى الإنسان، ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا﴾.[1]

وهو عين ما أثبته روجر بنروز من أزلية الحقائق الرياضية بالنسبة للوعي البشري؛ ما يعني سبق الأوضاع المعرفية.

والمفاهيم الأولية هي صمام أمان عملية الإدراك لدينا، ثم تأتي المعرفة المكتسبة نتيجة تفاعل المفاهيم الأولية مع العقل مع الوجود المادي، وهنا يلزم المعرفة المكتسبة الاتساق مع بعضها البعض على الدوام، لكن تظل المفاهيم الأولية مصدر ثقتنا في تصوراتنا عن الأوضاع المعرفية المكتسبة وحُكمنا عليها.

فالوضع المعرفي سابق على المتصَور الوجودي عند إرادة الحُكم، وأقل مطلب يمكن أن يحققه الإيمان بوجود خالق هو مطلب الثقة في عقولنا، وطمأنتنا -على الأقل- بأن قيمة الحق صادرة عن حقٍّ هو أصلُ كلِّ الحق، كل هذا نتحصل عليه من مجرد الإقرار بوجوده سبحانه فقط.

٦٠) يقول الملحد: إذا كان موجودا، فلماذا لا يجيب دعائي؟

يظن البعض أنهم قد بلغوا منزلة من العلم تؤهلهم للاقتراح على الله، ويظن الملحد أنه بلغ منزلة من العقل تؤهله لطلب أنواع من البيّنات والأدلة، التي تكون مقبولة عنده، ولو أجاب الله لاقتراح المقترحين لازدادوا عنتا، ولأصبحت سمة كل كافر ومعاند وملحد؛ فهذا يقترح أن يقتل الله خصومه، وهذا يقترح أن يحيي الله ميتًا أمامه، وذاك يقترح أن يحيا ألف عام، وآخر يقترح أن يمتلك قوة ألف رجل، ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾.[2]

فلو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السُّنَنُ، لكن من فضل الله سبحانه أنه لا يقبل تعنت الجاهلين، فقد أقام الله تعالى ما يكفي من الدلائل والبيّنات والبراهين، فانتفع بها من انتفع، وعاند واستكبر مَن عاند ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾.[3]

---

[1] سورة البقرة: ٣١.

[2] سورة المؤمنون: ٧١.

[3] سورة المؤمنون: ٧١.

فلا حُجة للكافر عند ربه بعد أن آمن الناس بالبينات وشهدوا للبراهين ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.[1]

أيضًا لا يقبل الله دعاء المتعنت؛ لأن فيه كبر، بينما يجيب سبحانه دعوة المضطر لأن فيها إيمان وتذلل وخضوع وحاجة، ولا يكاد يوجد إنسان على ظهر البسيطة -كافر أو مؤمن- إلا وجرَّب دعاء المضطرين ووجد جوابه حقًّا وواقعا ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾.[2]

والبشر حين يصيبهم البلاء العظيم ينكسر غرورهم، وتبطل حججهم، وينسون تعنتهم، وساعتها يعلو صوت الفطرة، ويُخبتون لله ويدعونه دعاء المضطرين، لكن ما أن يأمنوا ويصلوا لبر السلامة يعودون لجحودهم ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾.[3]

فالواقع أنه لا يوجد ملحدون في الخنادق "There Are No Atheists In Foxholes".[4] فالإلحاد يختفي في أوقات الكرب والشدة، والكل ينكسر لله.

وكما أخبر الدكتور المسيري -رحمه الله- في كتابه (رحلتي الفكرية) أنه اكتشف أن التروتسكيين[5] -رفاقه القدامى- في إحدى المعارك، وبعد أن أُحيط بهم، إذا بكل واحد منهم يتلو أدعية دينية، ويطلب العون من الله ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾.[6]

---

[1] سورة الشورى: ١٦.

[2] سورة النمل: ٦٢.

[3] سورة لقمان: ٣٢.

[4] There Are No Atheists In Foxholes – Wikipedia.

[5] التروتسكية هي تيار شيوعي وضع على يد ليون تروتسكي.

[6] سورة العنكبوت: ٦٥.

وبعد؛

سرت معك ذلك الطريق الوعر الذي اخترت أن تأخذنا إليه، لا لشيء، إلا لأني أحب لك الخير الذي أحبه لنفسي.

لكن رحلتنا لم تنتهي عـد هذا الحد، وما زال أمامنا -في طريق العودة إلى الإيمان- عدة محطات نتوقف عندها، عسى أن نصل في النهاية سويا إلى بر الأمان..

الباب الثالث

العودة إلى الإيمان

الإحالة إلى الماوراء

بما سبق يتقرر أن الإحالة إلى الماوراء شرط لضمان المعنى، وتأسيس الإمكان الأنطولوجي للحقيقة، ومن ثَم تسويغ بحث إمكانها الإبستمولوجي.[1]

إنَّ شرطَ الإحالة إلى الدين شرطٌ معرفيٌّ إبستمولوجيّ، وشرط مادي أنطولوجي، وشرط عقلي أوليّ، لأنَّ إدراك الوجود يفيد تغيره وعرضيته، وعدم اكتفائه بذاته، وهذا الإدراك -إدراك عدم اكتفاء الوجود بذاته- يستوي فيه البدائيُّ وعالِمُ الفيزياء والفلسفيُّ البارع، فالإحالة إلى الدين هي قضية عقلية منطقية في الأساس، قبل أن تكون نزعة أخلاقية أو تجردًا روحيًا.

والموقف الإلحاديّ من هذه القضية موقف مدهش للغاية؛ لأنه يفترض التأسيس الماهوي لحقيقة الوجود مجردة، وبعد أن يعجز عن هذا التأسيس يقوم بالعودة إلى الماوراء، لاستقاء المعرفة والبحث عن اكتفاء الوجود، لكن هذه المرة بصيغ غير عقلية أو منطقية، فيفترض الوعي في العدم، والأزلية في المُحدث، والشيئية في اللاشيء. كما يفترضُ ذاتية الانتقال إلى الحياة في اللاحيّ، وذاتية التنسيق والضبط والعناية والانتقال للأفضل على مستوى الكاوس - الفوضى-، فتصير قضية الإلحاد الكفرية قضية جحد للعقل في المقام الأول، ومعاندة للوجدان في الجوهر ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾.[2]

وأصل الإحالة إلى الماوراء هو أصل عقليّ، هدفه الأسمى بحث الوجود الحق الذي يفصح عنه عالم الحس إفصاحًا ناقصًا. ويصبح الانتقال من عالم الحسّ إلى عالم المُثُل الماورائي هو مقصد الوعي الوجودي كله، لذا ارتسمت صورة المفكر في كلّ الحضارات شخصًا منعزلا عن المجتمع الماديّ، لأنّه مشغول بالكليات.

ولذا كانت المعرفة الماورائية عند المفكرين أعلى المعارف وأشرفها، لأنها النوع الوحيد المنوط بتفسير القضايا الكلية والوجودية، والأسئلة الكبرى، فنجد ديكارت مثلاً يقول "الفلسفة كشجرة جذورها الميتافيزيقيا، وجذعها الفيزياء وأغصانها بقية العلوم..".[3]

---

[1] د. الطيب بوعزة، "في دلالة الفلسفة وسؤال النشأة"، مركز نماء للبحوث والدراسات، ص١٩.

[2] سورة الملك: ١٠.

[3] René Descartes, "Principes De La Philosophie. Première Partie; Sélection D'articles Des Parties 2,3et 4; Lettre-Préface", Vrin 2009, P266.

وكان أكثر الناس انشغالًا بالماورائيات هم المفكرون وعلماء المادة، لأنهم لا يجدون في المادة اكتفاء ذاتيًا يبرر وجودها، فطاليس كان فيزيائيًا ورياضيًا وفيثاغورس عالم فلك، وأفلاطون مؤسس الحركة الميكانيكية، وابن رشد فيزيائيًا وطبيبًا، وجابر بن حيان الكيميائيّ الأول وواضع أُسس المنهج التجريبي في البحث العلمي، والكندي رائد تحليل الشفرات. ولم ينشغل بعلوم المادة إنسان إلا وأدلى دلوه في الفكر بمقتضى بحثه في المادة، فالإحالة إلى الماوراء شرط فكريٌّ وعقليّ، مبررها المعطى الماديّ نفسه.

إنّ تصوّرَ وجود الإله ليس حاجة مشروعة، بل حاجة مُلحة، فالعقل هنا لا يبتدع فرضية، وإنما يُعبر عن حاجة ضرورية ضرورة الماء والهواء، إن استيلاء سؤال الخلق على خواطر الأطفال ما إن يبتدئون في النطق والحكي أمرٌ معلوم، فضرورة معرفة الصانع مغروزة منذ وقت مبكر جدًا، قبل تشكل الوعي ذاته. والعقل في أقصى درجات فطريته لا ينفك يسأل عن صانعه، وبلهجة طفلتي الصغيرة "مين طيب؟"

بل إن فرضية الخالق -بتعبير الملاحدة- هي الأفضل على كل المستويات النفسية والوجودية معًا، وهي الجواب عن سؤال لماذا، والجواب عن معنى تطلعنا لماوراء الزمان والمكان، وعن الأسئلة الوجودية الكبرى. ومع ذلك فالملحدَ يعمل على إخراس كلّ تلك الأسئلة، بيد أن هذا لا يغير من الواقع شيئا، وتظلُ الحاجة الملحّة لمعرفة الجواب عن تلك الأسئلة.

إنّ معرفة الله ضرورة يفرضها الواقع الماديّ على العقل. إذا رأيت سيارة تتحرك بين المنحنيات والطرق الدقيقة بمهارة، فإنّك تتأكد تلقائيًا من مهارة السائق الذي يقودها، فخروج الوجود من اللاوجود بمنتهى المعايرة الدقيقة لحظة الخلق الأولى يدل على خالق عليم قدير حكيم عظيم.

المعايرة الدقيقة للكون

ظهر الكون إلى الوجود بمعايرة دقيقة للكثير من الثوابت الفيزيائية والطبيعية، والتي لو اختل ثابت منها بمقدار جزء من مليار مليار مليار جزء لاختل الكون قبل أن يبدأ أو لتوقف عند مرحلة البيضة الكونية Cosmic Egg.[١]

يقول الفيزيائي الشهير ستيفن هوكينج Stephen Hawking في كتابه موجز تاريخ الزمن[٢]: "إن سرعة توسع الكون سرعة حرجة جدًا إلى درجة أنها لو كانت في الثانية الأولى من ظهور الكون أقلّ من جزء من مليون في مليار جزء لانهار الكون حول نفسه قبل أن يصل إلى وضعه الحالي".

إنَّ كلَّ الثوابت الفيزيائية ظهرت في نفس اللحظة بنفس المعايرة الدقيقة[٣]، فمثلًا:

١) نسبة كتلة الإلكترون Electron Mass إلى كتلة النيوترون Neutron Mass تساوي (٥.٤٣٨٦٧٣٤٤٦١x١٠^-٤^) ، ولو اختل هذا الرقم بجزء بسيط لما تكونت الذرّة.

٢) كُتلة البروتون Proton (١.٦٧٢٦٢١٧٧٧٧x١٠^-٢٧^ كجم) لو كانت أثقل مما هي عليه الآن، لتفكّك إلى نيوترونات Neutrons، ولعجز عن الإمساك بالإلكترونات التي تدور حول النواة وبالتالي ينهار النموذج الذري. ولو كانت النسبة بين كتلة البروتون إلى كتلة الإلكترون أقل قليلًا مما هي عليه الآن، لما وجدت نجومٌ مستقرّة، ولو كانت أعلى قليلًا لما ظهرت الأنظمة التشفيرية في خلايا الكائنات الحية DNA، لأن الأنظمة التشفيرية تعتمد على توازن ذرات الكربون التي تُشكّل القواعد النيتروجينية في أنظمة التشفير، وذرات الكربون تحتاج إلى توازن كتلة البروتون مع كتلة الإلكترون حتى يصبح الكربون ذرة مستقرة، وبالتالي لن يظهر الكائن الحيّ.

٣) عندما تلتحم ذرتان من الهيدروجين لتكون ذرة الهيليوم –فيما يعرف بالاندماج النووي– فإن ٠.٠٠٧% من كتلة الهيدروجين تتحول إلى طاقة، فلو كانت هذه الكتلة هي ٠.٠٠٦% بدلا من ٠.٠٠٧%، لما التَحَمَ البروتون بالنيوترون ولما أصبح الديوتيريوم مستقرًا، وبالتالي فلن يتكون الهيليوم؛ فيظل الكون مجرد هيدروجين فحسب، ولما وجدت باقي العناصر. أمّا لو

---

(1) Brad Lemley, "Why Is There Life?", Discover Magazine. Retrieved 23 August 2014.

(٢) ستيفن هوكينج، "موجز تاريخ الزمن"، الهيئة العامة المصرية للكتاب، ترجمة د. مصطفى فهمي، ص١٢١.

(3) Martin Rees, "Just Six Numbers", Basic Books 2000.

كانت الكُتلة المتحوّلة إلى طاقة هي ٠.٠٠٨% بدلاً من ٠.٠٠٧%، لأصبح الالتحام سريعًا للغاية، الأمر الذي سيؤدي إلى اختفاء الهيدروجين فورًا من الكون، واستحالة الحياة.

٤) النسبة بين القوى الكهرومغناطيسية والجاذبية هي ١٠^٣٦، وهو رقم مهول لا يمكن استيعابه، كذلك الفرق بين القوى النووية القوية وقوى الجاذبية، هو أيضاً رقم مهول للغاية، ولو افترضنا أن الأرض -التي تجذب الإنسان بقوى الجاذبيّة- قامت بجذبه بالقوى النووية القوية، فإن وزن الإنسان على الأرض سيُعادل مائة مليون نجم!، والسؤال الآن: ما الذي يجعل قوى الجاذبية بهذا الضعف الشديد، والقوى النووية بهذه القوة الشديدة؟ مع أن هذا الفارق الرهيب في موازين القوى ليس من شروط ظهور الجسيمات الأُولى، ولا من مُعطياتها!

٥) يقول ماكس تيجمارك Max Tegmark عالم الكونيات الأمريكي: "لو كانت القوى الكهرومغناطيسية أضعف مما هي عليه بـ ٤% فقط، لانفجرت الشمس فور تكونها، وستصبح نفس النتيجة إذا زادت القوة الكهرومغناطيسية عما هي عليه، إن ثوابت الطبيعة تبدو مُعدَّة بعناية عند مستوًى ما، فلو كانت القوى النوويّة أضعف مما هي عليه الآن لما تكون الهيدروجين، ولظلَّ الكون مجرد غبارٍ كونيّ، ولو كانت أقوى قليلاً لما استطاعت جسيمات النيوترينو Neutrinos مغادرة المستعرات العملاقة -السوبرنوفا Supernova-، وبالتالي لن تنتقل العناصر اللازمة للحياة خارج المستعرات العملاقة -النجوم المُنفجرة-".[١]

٦) قوى الجاذبية لو كانت أقوى قليلا مما هي عليه الآن لما استغرقت حياة الشمس -التي ستتكون بعد ذلك- أكثر من عشرة آلاف سنة. فهذا ضبط غير قابل للاختزال أو التأجيل، فسبحان بديع السماوات والأرض!. ولذا، يرى ليونارد سوسكايند أستاذ الفيزياء النظرية بجامعة ستانفورد والمؤسس لنظرية الأوتار الفائقة، أن مُعطياتنا عن الثوابت الكونية، مثل النسبة بين الإلكترون والبروتون، تقف كلها على حد سكّين، وكلها مُستقلة عن بعضها البعض، وفي الوقت نفسه تتلاقى لتسمح فقط بإحداث الحياة. وتغيُّرُ أيِّ مُعطى من هذه المعطيات التي نشأت مستقلة لم يكن يسمح لها بالتلاقي، فضلًا عن إمكانية إيجاد حياة أو حتى منظومة كونية.[٢]

(1) Max Tegmark, "Parallei Universes". In "Science And Ultimate Reality: From Quantum To Cosmos", Honoring John Wheeler's 90th Birthday. J. D. Barrow, P.C.W. Davies, & C.L. Harper Eds. Cambridge University Press (). V1 90 (2003).

(2) John Brockman, "Smolin Vs. Susskind: The Anthropic Principle" Edge.Org ; The Third Culture, 18 August 2004, Retrieved 30 October 2014.

لو افترضنا أنّنا نرغب –مثلًا– في رؤية الذرات الموجودة داخل رأس دبوس صغير، فإننا بحاجة إلى تكبير رأس الدبوس بحيث يصير بحجم الكرة الأرضية وفي تلك الحالة لن يتجاوز حجم الذرّة كرة قدم صغيرة، لمَ تكون الذرّات بهذا الحجم المدهش؟، وإذا افترضنا أننا نرغب في رؤية النواة داخل تلك الذرّة، فإننا بحاجة لتكبير كُرة القدم السابقة لتصير بحجم ملعب كرة قدم كبير، وفي تلك اللحظة فلن يتجاوز حجم نواة الذرة حبة غُبار صغيرة للغاية، فحجم نواة الذرّة يساوي جُزء من عشرة بلايين جُزء من حجم الذرّة، ومع ذلك توجد كُتلة الذرة كلها في النواة ٩٩.٥%!

هنا يطرأ سؤال هام؛ كيف تكون كتلة ملعب عملاق موجودة كلها في حبة غُبار منه فقط، والباقي فراغ تام؟!

إن هذا النظام الذريّ بهذا الشكل وهذا التوازن بين كتلة النواة في مقابل حجمها داخل الذرة، هو النظام الوحيد الذي يسمح بتشكيل الكون وبحدوث التفاعلات الفيزيائية. ولا يُمكن استيعاب حدوث الأمر بالصُدفة أو الخبط العشوائي، إنه تدبيرٌ وإحكام، لذا كان أمر الله لنا بالتفكر في آيات خلقه وشواهد قدرته.

الشاهد في النهاية أن الثوابت الكونية جاءت في كوننا بمنتهى المعايرة الدقيقة والضبط بحيث تتيح كل صور الحياة والاتزان، وكل ثابت منها يمثل معجزة بحد ذاته، وأروع هذه الثوابت هو "الثابت الكوني" الذي لو اختلفت قيمته –بأقل من جزء، من صفر يليه ١٢٢ صفر ثم ١ من الواحد[١]– لانهار الكون بأكمله!

إنها معايرة دقيقة وضبط بعناية ولولاها لما ظهر الكون!، فالأمر لم يتوقف عند الخلق، فلابد أن يستتبع الخلق إعداد بعناية "Fine Tuning" وهذا المصطلح Fine Tuning Of The Universe دخل إلى الفيزياء من طريق الفيزياء، وليس من طريق الدين.

---

[١] John D. Barrow, "The Value Of The Cosmological Constant", Arxiv:1105.3105, May 17, 2011.

صدفوية نشأة الكون

أصلُ العلم الحديث يقوم على العلاقة بين السبب والمؤثر، فرصد القوانين يتم عبر الاستدلال بأثرها، والجاذبية هي رصد لأثرها وليس قياسًا للجاذبية ذاتها، فنحن إلى اليوم لم نرصد جسيم جاذبية واحد Graviton[1]، ومع ذلك نُسلم يقينًا بوجود الجاذبية، بل كل علوم المايكرو تقوم على الملاحظة والاستدلال بالأثر، فلا يوجد شيء في العلم الميكروي يسمى مثلاً مشاهدة الإلكترون، وإنما ملاحظة أثره.

وهنا شاهدان؛ **الأول**: أن السببية أصل العلم وأقوى من البرهان والقانون، والذي ينكر السببية لمجرد مخالفتها لعقيدته الإلحادية معاند لبديهة عقلية مستقرة في عقول جميع البشر منذ اللحظة الجنينية؛ إذ ثبت أن الجنين يؤمن بالسببية وهو ما زال في بطن أمه، فلو ضغط الطبيب على بطن الأم أثناء الفحص يعطي الجنين رد فعل حسب مكان الضغط، وحسب التأثير، فهو يؤمن أن لكل سببٍ مُسَبِّبٌ، ويحاول التواصل مع هذا المُسَبِّبِ تلقائيًا.

الثاني: أن الاستدلال بالأثر هو استدلال علمي منطقي، يقبله العقل ويقوم بمنزلة البرهان على وجود المؤثر.

والآن لدينا كون مخلوق بمعايرة دقيقة للغاية Fine-Tuned Universe[2]، من اللازمان واللامكان إلى المكان والزمان، مع أن قانون العلم يقول بحفظ الطاقة[3]، وأنّ الطاقة لا تُستحدث من عدم، لكن نحن أمام طاقة هائلة استحدثت من العدم في لحظة واحدة، فكل طاقة الكون وكلُّ مادته ظهرت في أقل من مليار مليار مليار جزء من الثانية[4]، ألا يدل ذلك على وجود خالق؟! أليست هذه بديهة لا يجد العقل لها ردًا؟!

أما القول بالصدفة فهو جهل بأصول الاحتمالات؛ لأنَّ للصدفة شرطين لا ينفكان عنها، هما: الزمان والوجود، فالصدفة تشترط زمانًا تقومَ فيه بإحداث أثرها، وتشترط وجودًا ماديًا مكانيًا تقوم عليه ليُنتج مفعولها، فكيف نقول بدور الصدفة في إيجاد الكون، مع أنَّه جاء من

---

[1] Carlo Rovelli, "Notes For A Brief History Of Quantum Gravity", 23 Jan 2001 Arxiv.Org/Abs/Gr-Qc/0006061.
[2] Alister Mcgrath, "A Fine-Tuned Universe: The Quest For God In Science And Theology", Westminster John Knox Press 2009.
[3] First Law Of Thermodynamics - Wikipedia.
[4] Chronology Of The Universe - Wikipedia.

اللازمان واللامكان؟! كيف يظهر أثر الصدفة دون ظهور الصدفة نفسها؟ كيف تُعطي الصدفة أثرًا قبل وجودها ووجود الزمان والمكان اللذين هما شَرْطَي الصدفة الأساسيين؟

أيضًا للصدفة أركان لا تنفك عنها؛ مثل:

– أولاً: العشوائية؛ لكنّ كوننا مخلوق بمعايرة دقيقة للغاية!، فالكون وُجد بآلاف الثوابت الفيزيائية، التي لو اختل واحد منها بمقدار ضئيل للغاية ما ظهر الوجود.

– ثانيًا: اللامعنى؛ بينما المعنى هو الأصل في كل حركة وفعل، على الأقل بالنسبة للإنسان الذي يستوعب ذاته، إذ لو لم يكن للوجود معنى فلا معنى لردّ الاغتصاب –مثلا–، وسيبدو مجرد حركات ديناميكية وانثناء أربطة وشد أوتار لا أكثر!

– ثالثًا: اللاقيمة؛ فكلنا يبتغي القيمة، وتُوجّه أفعاله، حتى الملحد يبشر بكهنوته الإلحادي منطلقًا من وجود قيمة لتبشيره، وهدف مرجو منها.

– رابعًا: اللاغاية؛ بينما لكل فعل غاية، ولو لم يكن لوجودنا غاية، لما كان للسعي لإنقاذ الفتاة المُغتصبة في المثال السابق معنى!

– خامسًا: اللامعيارية؛ فمعيارية الأخلاق مثلاً مهما صنعها الإنسان أو المجتمع لن تخرج خارج الإطار المادي النفعي، بينما الأخلاق لا مادية، ولو رأى مجموعة من الشباب الفتاة في المثال السابق تُغتصب، وعلموا أن إنقاذهم لتلك الفتاة قد يؤدي إلى مقتلهم، وقاموا بإنقاذها، فهؤلاء في عُرف الإنسانية أبطال يجب أن يُكرموا، بينما ماديًا لا معنى لتصرفهم، بل هو تصرف ضد المادة وضد المصلحة الشخصية، وهذا يؤكد لامادية الأخلاق، وانفصال معنى الإنسان عن هذا العالم المادي، وقيمة الفعل الإنساني وغائية تصرفه ومعنى وجوده؛ إنَّ الإنسان يستمد معناه وقيمته من عالم آخر. وهذا مثال يوضح مفارقة الانسان بمفاهيمه وقيمه للعالم المادي، ويؤكد وجود المعنى والقيمة والهدف والغاية، إذ كيف يستطيع كون خالٍ من الغائية أن يخلق إنسانًا يتحرّك وفقَ غائية وهدف؟ بل إنه لا يشذ عن الإيمان بغائية التصرف الإنسانيّ إلا الملحد.

ما سبق دلائل مباشرة، تدلُّ على وجود الخالق القادر الحكيم، وتدل على معنى وجود الإنسان، وقيمة أفعاله، واستحالة أن يكون الكون نتيجة صدفة.

الصدفة وأزلية العالم

القول بصدفوية الظهور المفاجئ لوجودنا -كما حرّرنا- يعد كارثيًا من وجهين:

١) الصدفة تفتقر إلى الزمن، والذي يفتقر إلى شيء يأتي بعده، فالصدفة جاءت تالية للزمن، لأن الزمن شرط وجودها، وكوننا ظهر من اللازمن، أي من اللاصدفة.

٢) الصدفة بدورها تفتقر إلى المادة التي ستطبق نفسها عليها، فالمادة سابقة على الصدفة لأن شرط وجود الشيء سابق عليه، فكيف يُفسر ظهور مادة الكون بالصدفة، مع أن الصدفة لم تظهر إلا بعد ظهور مادة الكون، والكون كله ظهر من اللامكان أصلاً. فمطلق وجود المادة هو أصل لتصور الزمن، الذي هو أصل لتصور وجود الصدفة.[١]

إلا أن الملحد قد يقول إنّ المادة -كمادة- لا تفتقر إلى تفسير، ويدّعي أزليتها وتسلسلها اللانهائي، لكن هذا غير مقبول من ثلاثة أوجه:

١- لقد قلنا في حق الخالق نفس هذا الكلام؛ من أنه لا يفتقر إلى تفسير، ثم أنكرتموه وأبيتم قبول ذلك، فهل كان هذا محض تحكم لا أكثر؟!

٢- قبولكم لمبدأ عدم التفسير في وجود الكون ورضوخكم له، هو قبول لمبدأ يخالف أصلكم العظيم؛ الذي يقضي أنه ما من شيء إلا يمكن تفسيره، وأن القوة التفسيرية تبلغ ذروتها وتكمل إحاطتها في نظرية كل شيء TOE.[٢]

٣- أما قولكم بالأزلية والتسلسل اللانهائي فهذا لعنة Anathema على العلم الطبيعي؛ لأنه يقضي على أي أمل في تفسير العالم، وهذا يعني أنكم بدوجمائيتكم الإلحادية تقضون على كل علم وفكر.[٣]

فالذي يقضي بالأزلية يقضي بلا غائية العلم الطبيعي وعبثية سعيه، لذا يقول فتجنشتاين Ludwig Wittgenstein: "معنى العالم لابد أن يقع خارج العالم، في داخل العالم كل شيء على ما هو عليه، ويقع كما يقع، في داخله لا توجد قيمة، وإن وجدت فستكون بلا قيمة. وعندما تكون هناك قيمة ذات قيمة، فلا بد والحال كذلك أن تقع خارج نطاق مجموع الحوادث ووجود الأشياء في ذواتها. ذلك أن مجموع الحوادث ووجود الأشياء في ذواتها أمر

---

[١] عبد الله بن سعيد الشهري، "ثلاث رسائل في الإلحاد والعلم والإيمان"، مركز نماء للبحوث والدراسات، الطبعة الأولى، ص١٤.

[2] Steven Weinberg, "Dreams Of A Final Theory: The Scientist's Search For The Ultimate Laws Of Nature", Knopf Doubleday Publishing Group.

[٣] المصدر السابق.

اتفاقي. الشيء الذي يجعل ذلك أمرًا غير اتفاقي لا يمكن أن يقع داخل العالم، وإلا أصبح بدوره أمرًا اتفاقيًا، لا بد أن يقع خارج العالم". [١]

ما بالنا ومظاهر التصميم واضحة في كل شيء أينما نظرتَ؟! في واقع الأمر إنّ لعبة أزلية الكون قد انتهت تمامًا، فبداية الكون في الزمان والمكان صارت الآن كما يصفها الجميع أصح التفسيرات التي لدينا، ويكاد يُجمع عليها المجتمع العلمي كله، ولم يعد يُنادي بأزلية الكون إلا القليل من الملحدين.

وهنا يتجلى الصراع بين العلم والكهنوت الإلحادي، الصراع بين المعطيات العلمية والدوجما الإلحادية، فلن يتقبل الملحد –ببساطة– أن يتنازل عن أي أصل من أصول إلحاده مهما ارتفعت وثوقية العلم ووثوقية الأدلة التي يحملها، لأن القضية أصبحت قضية دين، يتشربه قلب الملحد، ويصير مع الوقت إيمانًا ودينًا يكرز–يُبشر– له ويدعو إليه. يقول الفيزيائي البريطاني دينيس شياما Dennis Scaima "لم أُدافع عن نظرية الكون المُستقر لكونها صحيحة، بل لرغبتي في كونها صحيحة، ولكن بعد أن تراكمت الأدلة تبين لنا أنّ اللعبة قد انتهت". [٢]

اللعبة قد انتهت فعلا، وبذلك يعترف أنتوني فلو Antony Flew فيلسوف الإلحاد في القرن العشرين قائلا: "يقولون إن الاعتراف يفيد الإنسان من الناحية النفسية، وأنا سأُدلي باعترافي؛ إنّ نموذج بداية الكون شيء محرج جداً بالنسبة للملحدين، ذلك لأنّ العلم أثبت فكرة طالما دافعت عنها الكتب الدينية". [٣]

وبعد كل هذا سيظل الكهنوت الإلحادي هو المسيطر، والدوجما الإلحادية هي الصوت الأعلى رغم العلم والرصد، فالأمر أصبح دين.

---

[1] Ludwig Wittgenstein, "Tractatus Logico-Philosophicus", Routledge & Kegan Paul LTD, London, Eighth Impression 1960, P 183.

[2] Dennis William Sciama, "The Unity Of The Universe", Doubleday, N.Y., Introduction.

[3] Henry Margentau, Roy A. Vargesse, "Cosmos, Bios, Theos. La Salle IL", Open Court Publishing, 1992, P 241.

الأكوان المتعددة

وأمام إشكال المعايرة الدقيقة للكون، افترض الملاحدة وجود أكوان متعددة لا نهاية لها، ظهر كوننا من بينها بقانون الاحتمالات. وهذه مغالطة تحتوي على أخطاء علمية ومنطقية، لكنه الحل الوحيد المتاح من وجهة نظر البعض.

يقول ريتشارد دوكنز في حواره مع ستيفن واينبرج: "إذا اكتشفت هذا الكون المدهش المعد فعليًا بعناية، أعتقد ليس أمامك سوى تفسيرين اثنين؛ إما خالق عظيم، أو أكوان متعددة".[1]

افتراض وجود أكوان متعددة يعدُّ افتراضًا ميتافيزيقيًا، لا يدعمه دليل تجريبي أو ميثودلوجي واحد! وإذا رأيتَ عقل الملحد يدعم هذا القول، ويقوم باستخدامه؛ فهذا يعني أنَ العقل يدعم الفرض الميتافيزيقي ولا يستبعده، إذًا عقولنا مُهيأة لاستيعاب الماورائيات. ولا مانع من قبول فكرة الميتافيزيقا عمومًا، إنما المانع يكون عند الملحد -فقط- عندما يتصل الأمر بغيبيات دينية! فمشكلة الملحد مع الخالق تحديدًا، وليست مع المعطيات أو مع تركيبة عقله.

وجود أو عدم وجود أكوان أُخرى لا يجيب عن السؤال، ولا يُفسر المعايرة الدقيقة لكوننا، المشكلة أنّ الملحد في رد، هذا يتصور أن كوننا مثل النرد -الزهر- الذي رُمي بلايين المرات -ولا ندري مَن الذي يرمي النرد في كل مرة-، إنّهم يتصورون أنّه من البساطة بمكان أن يأتي كون واحد من بعد بلايين الرميات العشوائية بشكل منظم، وبتوليف دقيق كامل لثوابته الفيزيائية، والخطأ هنا أنهم يتصورون أنّ ذلك التوليف الدقيق المدهش يشبه أنْ يرمى النرد ألف رمية متتابعة، وتكون نتيجة كلّ رمية الرقم ٦ مثلًا، فبلايين الرميات ستأتي كل مرة بتوليفة دقيقة تسمح بوجود ثوابت كونية مدهشة! والمشكلة الأُخرى؛ ثبات هذه التوليفات والحفاظ عليها صحيحة. فكل ثابت من الثوابت الكونية هو توليفة دقيقة بين بلايين الرميات، وليست القضية في التوليفات فحسب؛ بل بقاء هذه التوليفات ودقتها.

وفكرة الأكوان المتعددة هي فكرة نتجت لحلّ معضلة الإعداد المسبق لكوننا بعناية Fine Tuning Of The Universe، فهي كحل تفترض أن هناك أعداد هائلة من الأكوان الأخرى،

---

[1] Richard Dawkins, Steven Weinberg, Lawrence Krauss, PZ Myers, "Voices Of Science DVD", Richard Dawkins Foundation (Oxford, UK).
"If You Discovered A Really Impressive Fine-Tuning ... I Think You'd Really Be Left With Only Two Explanations: A Benevolent Designer Or A Multiverse".

تبلغ ١٠ أس٥٠٠ كون طبقا لستيفن هوكنج في كتابه الأخير "التصميم العظيم"، لكن في الواقع نحن لم نشهد أيّ كون آخر غير كوننا، فضلا عن باقي الأكوان -المزعومة- التي لا تحصى!، ثم إنّ هذا لا يحل مشكلة التصميم المسبق بعناية، بل ربما مع الوقت يطرح تساؤلات فلسفية أعمق، تبعًا لتقدم علوم الفيزياء.

وللمرء أن يتساءل: لماذا الإقدام على فرضية غاية في الغرابة والدهشة والبعد عن التجريب والاختبار، فقط لمجرد الهروب من معطيات كوننا، التي تطرح تساؤلات فلسفية عميقة؟

يرى علماء الكونيات الداعمون لتلك الفكرة، من أمثال ليونارد سوسكايند، أنّ رصد كون آخر مستحيل علميًا ومنطقيًا، والسبب في ذلك يرجع لما يُعرف بأُفق الجسيم[١] The Horizon، وهو أقصى مسافة من تلك الجسيمات التي تحمل المعلومات، والتي ما أن تصل للراصد يكون عمر الكون قد انتهى منذ مليارات السنين الضوئية، وأيّ كون آخر لابد أن يكون خارج أُفق الجسيم.

وبما أنّ فرضية الأكوان المتعددة طبقا لأفق الجسيم يستحيل رصدها أو حتى اختبار وجودها، فإنها تخرج خارج دائرة العلم المادي النظري، لأنّ حجرَ الزاوية في العلم هو الرصد والاختبار والتجربة، وتتحول إلى فرضية فلسفية لا تخرج خارج هذا الإطار.

ولذا يقول عالم الكونيات جورج إليس George Ellis إنّ فرضية الأكوان المتعددة ليست من العلوم، ولا توجد داخل دائرة العلم، إنّها تقع في إطار الفلسفة. [٢]

ثم إنّنا بحاجة إلى رصد كون يختلفُ عنّا في قوانينه الفيزيائية، ويكون قاصرًا في معطياته، حتى نفخر بكوننا المميز، وهذا يطرح إشكالات أعمق بكثير، إذ لابد من التصميم الدقيق لكل كون قبل خروج هذه الأكوان بمعطياتها، وفي كتابه "التصميم العظيم" يقرر ستيفن هوكنج أن فكرة الأكوان المتعددة هي فكرة مزعجة للغاية .

عملية إبداع أكوان متعددة عملية مدهشة وتحتاج إلى قوانينها الخاصة هي الأخرى، وثوابتها الفيزيائية الخاصة التي ربما لا تشبه ثوابتنا تماما، وهل لهذه الأكوان المتعددة كون "أُم"؟ ثم مِن

---

(1) Particle Horizon – Wikipedia.

(2) George F. R. Ellis, "Does The Multiverse Really Exist?". Scientific American, 1 August 2011, 305 (2): 38–43.

أين أتى هذا الكون الأم؟ وبالتالي ربما نكتشف أن الذين افترضوا أكوانًا متعددة سيجابَهون يومًا ما بإلزامات ماورائية أعظم بكثير مما لو كانوا تخلّوا عن تلك الفكرة. إنّنا نخطو خطوة ماورائية واسعة؛ عندما نتحدث عن أكوان متعددة!

إذًا الأكوان المتعددة لم تحل مشكلة الإعداد بعناية، بل طرحت مشكلة الإعداد بعناية لكن على أبعاد أخرى ربما لا يجرؤ العقل البشري على استيعابها في الأمد المنظور.

أيضًا هذه الطريقة الفلسفية –الأكوان المتعددة– للهروب من مُشكلة المعايرة الدقيقة للكون تناقض شفرة أوكام Occam's Razor، فطبقا لشفرة أوكام فإنِ أبسط التحليلات لمشكلة معقدة هي الصحيحة، وينبغي اختيار أبسط نظرية تناسب حقائق المعضلة، لكن هؤلاء الفيزيائيون يختارون أعقد نظرية إنهم يختارون ١٠ ^٥٠٠ كون، وخمس معادلات صحيحة، وملايين الطرق لكل معادلة! كل هذا حتى يتسنى لهم –أمام هذه الأكوان التي لا حصر لها– أن يفترضوا صدفوية نشأة كون مميز للغاية ككوننا.

الخلاصة؛ لقد سقطت المقولات الإلحادية القديمة التي كانت تقول أن الكونَ كافٍ نفسه بنفسه، واضطُرَّ الملاحدة إلى عبور بوابة الكون بحثًا عن أكوان متعددة، للخروج من مأزق الثوابت الكونية.

الكون الدوريّ

تبقى نقطة جانبية عتيقة قد يثيرها الملحد هنا، وهي فرضية الكون الدوري Cyclic Model؛ والتي تقوم على تكرر انكماش الكون ثم انفجاره، إلى أن يظهر كون جديد بمعايرة صالحة لنشأة حياة -كأمر صدفويّ-. لقد انصرفَ العلماءُ -الآن- تمامًا عن فرضيّة الكون الدوريّ، لأنّها تجاهلت القانون الثاني للديناميكا الحرارية، والذي يتطلب إعادة ضبط الأنتروبيا في كل كون جديد متكون، وإلا فإنّ درجة الأنتروبيا ستزداد مع تكوّن كلّ منها، وبالتالي تصير درجة الحرارة لا نهائية طالما كان الانكماش والانفجار لا نهائيين، لكنّ معطياتنا العلمية تقول إنَّ درجة حرارة الكون الآن ٣.٥ درجة مطلقة، مما يقضي على فرضية الانكماشات المتتابعة.

وقد أثبت العلم حديثًا أنَّ الحدَّ الأدنى من الأنتروبيا كان موجودًا لحظة نشأة الكون، وهو ما يؤكد أنّ الكون لم تسبقه انكماشات، ولا يوجد ما يُعرف بالكون الدوريّ، وأنَّ الكونَ ظهرَ على غيرِ مثالٍ سابق. ثم إنَّ كلَّ انفجارٍ سيتطلبُ نفس الثابت الكونيّ المدهش، والإعداد بعناية لكلّ نموذج كونيّ متكوّن، وإلا لن يتمّ شيء، وهذا يدلُّ على الأخطاء العلمية الفادحة في هذه النظرية.[1]

[1] Paul J. Steinhardt And Neil Turok, "A Cyclic Model Of The Universe", Science V296 (2002-04-25).

ظهور الحياة على الأرض

وبعد أن يظهر الكون وتمضي السنون، تظهر الحياة على الأرض، وهنا يطفو على السطح سؤال لماذا مضت كل هذه السنون، حتى تظهر الحياة على الأرض؟

لله الحكمة البالغة، ونريد أن نحرر هنا ردًا مجملا لكل الأسئلة التي تحمل معنى؛ ما الحكمة من كذا؟

يقول ابن القيم –رحمه الله– في مسألة وجود ذَنب الدابة، مع عدم الحاجة ظاهريًا إليه: "وعسى أن يكون فيه حِكَمٌ أُخر تقصُر عنه أفهام الخلق، أو يزدريها السامع إذا عُرضت عليه، فإنه لا يُعرف موقعه إلا في وقت الحاجة".[1] ويقول أيضًا في موضع آخر من كتابه: "ما حكمةُ هذا النبات المبثوث في الصحاري والقفار والجبال التي لا أنيس بها ولا ساكن؟! وتظن أنه فَضْلةٌ لا حاجة إليه ولا فائدة في خلقه".[2] ثم ردَّ –رحمه الله– المتشابه إلى المحكم فقال: "وهذا مقدار عقلك ونهاية علمك، فكم لباريه وخالقه فيه من حِكمة وآية؛ من طُعم وَحْشٍ وطيرٍ ودواب مساكنها حيث لا تراها تحت الأرض وفوقها، فذلك بمنزلة مائدة نصبها الله لهذه الطيور والدواب تتناول منها كفايتها، ويبقى الباقي كما يبقى الرزق الواسع الفاضل عن الضيف، لسعة رب الطعام وغناه التام وكثرة إنعامه".[3]

ويقرر ابن الجوزي –رحمه الله– منطقية رد المتشابه إلى المحكم فيقول: "تأملت حالًا عجيبة؛ هي أن الله –سبحانه وتعالى– قد بنى هذه الأجسام متقنة على قانون الحكمة، فدلَّ بذلك المصنوع على كمال قدرته ولطيف حكمته، ثم عاد فنقضها، فتحيرت العقول بعد إذعانها له بالحكمة في سر ذلك الفعل؟ فأعلمت أنها ستعاد للمعاد، وأن هذه البنية لم تخلق إلا لتجوز في مجاز المعرفة، وتتجر في موسم المعاملة، فسكنت العقول لذلك..

ولو قيل للعقل: قد ثبت عندك حكمة الخالق بما بنى، أفيجوز أن يقدح في حكمته أنه نقض؟ لقال: لا؛ لأني عرفت بالبرهان أنه حكيم، وأنا أعجز عن إدراك علل حكمته، فأسلم على رغمي، مقرًا بعجزي".[4]

---

[1] ابن القيم، "مفتاح دار السعادة"، تحقيق عبد الرحمن بن حسن بن قائد، دار عالم الفوائد، المجلد الثاني ص٦٨٤.

[2] المصدر السابق ص٦٦٥.

[3] المصدر السابق ص٦٦٥.

[4] ابن الجوزي، "صيد الخاطر"، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٩٩٢، ص٤٥.

وهنا عاد ابن الجوزي يقرر ردَّ المتشابه إلى المحكم، فقال: "فأما من يقول: لمَ فعل كذا؟ وما معنى كذا؟ فإنه يطلب الاطلاع على سرِّ الملك، وما يجد إلى ذلك سبيلًا، لوجهين؛ أحدهما: أنَّ الله تعالى ستر كثيرًا من حِكمه عن الخلق، والثاني: أنْ ليس في قوى البشر إدراك حِكم الله –تعالى– كلها، فلا يبقى مع المعترض سوى الاعتراض المخرج إلى الكفر".[1]

يقول ديكارت في كتابه "التأملات": "ليس لدي أدنى سبب يجعلني أتذمر من أن الله لم يمنحني قدرة أعظم على الفهم، أو أنه لم يهبني نورًا طبيعيًا أكثر مما وهب، فمن الطبيعي أن تظل هناك أشياء غير مفهومة بالنسبة لفهم محدود، ومن الطبيعي أن يظل الفهم المخلوق محدودًا، عوضًا عن هذا يتوجب علي أن أشكر له أنه لم يجعلني مدينًا له بقدر كرمه عليّ، بدلًا من أن أظن به أنه أخفق في إعطائي، أو أنه أخذ مني تلك الأشياء التي لم يعطني إياها في الأصل".[2]

وقد جلَّى الله الحِكمة في أفعال الخضر مع سيدنا موسى، رغم أنها أفعالًا تُعدُّ –ظاهريًا– مُنكرة وغيرُ مستساغة، لكنها تشتملُ على خير عظيم، وقصة موسى والخضر لم تأتِ في القرآن من باب السّرد والحكايا، لكن من باب التدبر والإخبات، والإقرار بقصور النفس البشرية وحكمها المُتعجل.

ولا يجوز لملحد أن يحتجَّ في باب الحِكمة الإلهية بشيء، لأنَّ الملحدَ –بداهة– ليس كُلي العلم، ولا يعرف ماذا غدًا حتى يُقرر، إنّه يعطي نظرة شمولية لمسألة لم يستوعبها.

ذكر الأصبهاني أنَّ نبيًا من أنبياء بني إسرائيل كانَ يجلس بالقربِ من بئر ماء، فجاء فارس ليشرب، ثم وهو خارج من البئر سقطت حافظة نقوده ولم يلتفت إليها، فجاء راعي غنم يرِد الماء، فوجد حافظة النقود فوضعها في جيبه، ثم جاء شيخ كبير ليشرب من البئر، و جلس على حافة البئر يلتقط أنفاسه، فعاد الفارس باحثًا عن ماله، فلم يجده، فاتَّهم فيه الشيخَ الكبير فقتله! فقال النبي: يارب ضُرِبت عنقُ الرجل ولم يأخذ المال، إنما أخذه الراعي، فجَّلِّ –فأظهِر– لي الحكمة. فأوحى الله إليه أنَّ والدَ الفارس أخذ هذا المال من والد الراعي، فرددت المالَ إلى الوارث، وأنَّ هذا الشيخ قتلَ والدَ الفارس، فاقتصصت منه!

---

[1] المصدر السابق ص٣٣٩.

[2] René Descartes, "Meditations And Other Metaohysical Writings", P.49.

الخلاصة: حُكم الملحد على الأمور التي تخفى فيها الحِكمة قاصرٌ بقصور الطبيعة البشرية نفسها، وبقصور نظرتها الإدراكية، فالاستيعاب الشموليُّ، والحُكم الكُليّ، ليس مجال النفس البشرية، ولا يقع في نطاق قدرتها القاصرة، وبالتالي فلا يحق للملحد أن يتحدث في باب الحِكمة الإلهية بشيء. ﴿هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ﴾.[1]

السيانوبكتيريا

وظهرتْ الحياة على الأرض. تدب الحياة في عضيات السيانوبكتيريا –أو البكتيريا الزرقاء– وهي أولى الكائنات ظهورًا على وجه الأرض –وفقًا للداروينية نفسها– وهنا لابد أن نُدرك حقيقة في غاية الأهمية, وهي أن الوقت المنصرم منذ نشأة الكون إلى وقتنا الحالي غير كافٍ لنشأة عضية واحدة من مئات العضيات الموجودة داخل السيانوبكتيريا Cyanobacteria، أول الكائنات الحيّة ظهورًا على الإطلاق، وطبقًا للداروينية؛ لو لم يظهر هو لما ظهرَ أيُّ كائن آخر، فهو مصدر الأكسجين الذي سمح لبقية الكائنات بالظهور!

والعضية الواحدة من عضيات السيانوبكتيريا بها تشفير معلوماتي داخل الشريط الوراثي يتجاوز ١٥٠٠ بت –أو حرف– –والبِت هي وحدة تشفير–، لو ظهرت وِحْدَة مكان أُخرى ما نشأت السيانوبكتيريا، ولا قامت بوظيفتها. هذا يعني ١٥٠٠ حرف بمنتهى التنسيق والضبط، في حين أنّ عمرَ الكون كله لا يسمح إلا بظهور ٣٤ بت –بحساب نظرية الاحتمالات–، لأنه قد مضى منذ الانفجار الكبير ١٠ أس ١٧ ثانية فقط! وهي تعادل ١٤ مليار سنة، و٣٤ بت تحتاج إلى ١٠ أس ١٧ ثانية، من أجل الوصول إلى الترتيب الصحيح وهو عمر الكون، هذا في حال افترضنا أن هناك بتِ جديدة تضاف كل ثانية!

لكن عضية واحدة من مئات العضيات التي تعمل معًا داخل السيانوبكتيريا تحتاج كحد أدنى ١٠ أس ٧٥٠ ثانية لتشكيل ١٥٠٠ بت، وهو ما يعني أضعاف عمر الكون.

---

[1] سورة آل عمران: ٧.

أمام هذه المعضلة افترض الملحد ريتشارد دوكينز بصحبة برنامج "ريتشارد هارديسون"؛ أنّ هناك برنامجًا سيحتفظ بالحروف الجديدة الصحيحة -البتات الصحيحة-، ثم يبني عليها بعشوائية، وهكذا إلى أن يصل إلى الحرف الجديد الصحيح، حتى تكتمل الـ ١٥٠٠ بتٍ الأولى، في أوّل عضية من عضيات السيانوبكتيريا.

لكن لم يقل لنا ماذا سيحدث لو تم الاحتفاظ بحرف خاطئ؟ ألا يعني ذلك توقف التجربة، لأن العضية لن تتشكل، وستهلك السيانوبكتيريا فورًا؟ ولم يقل لنا ما هي الآلية التي ستعيد الحروف مرةً أخرى؟ وكيف نسي أن برنامج الكمبيوتر يحتاج لوعي وتصميم، وإرادة وصنع، وضبط ومعايرة دقيقة. فلماذا اشترط ذلك في تجربته، ورفض أن ينسبه للخالق في بيئة الأرض الأولى؟

بل إن ظهور الشيء لا يعني دوام استمراره. فما معنى تشكيل عشر بتات؟ ما الذي يضمن استمراريتهم أو وجود معنى لهم أصلا، وما قيمتهم الوظيفية حتى تحتفظ بهم السيانوبكتيريا التي لم تتشكل بعد، وكيف تتحول بتات ملتصقة إلى وظيفة حياتية تخصصية داخل كائن آخر؟

ألا تدل آلية خلق الحياة إلى خالق يعجز كل جهابذة الأرض عن محاكاة أبسط خلقه، ثم يفترضون ظهورها بالصدفة في كل مكان؟ لماذا أمام كل هذه البدهيَّات يرفضون الخالق ويفترضون المستحيل العقلي؟

كيف تخلق لنا مجموعة من البتات منظومة معرفية تُعطي وظيفة؟ فالبتات كالكلمات المكتوبة على ورق، تصف هيئة وظيفية بطريقة رمزية. كيف تتحول هذه الرموز إلى وظيفة حيوية داخل الكائن الحيّ الأول، كيف يتم فكُّ الترميز، ثم إنتاجُ معطى وظيفيّ حيويّ، والسؤال الأهم: مَن الذي قام بالترميز قبل أن يتم فكّه، وما أدرى الكائن بحاجته إليه ليتم ترميزه واستخدامه في المستقبل وقت الحاجة؟

ثم كيف يكون الكائن الحي على علم مسبق بمجموعة البتات المطلوبة -١٥٠٠ بت- في كل عضية، وهو لم ينشأ بعد ولم يقم بأيّة وظيفة؟ وكيف يكون على علم مسبق بما يريد، بحيث يحتفظ بالبتات الصحيحة ويترك الخاطئة؟ ولو لم تكن هناك خطة مسبقة كاملة للسيانوبكتيريا، فكيف توجد الخصيصة الوظيفية للعضيات؟

أيهما أقرب للمنطق والعقل؛ الإيمان بهذه المستحيلات العقلية، التي مستحيل عقلي واحد منها كفيل بترك القضية بالكلية، أم الإيمان بالخالق الذي توافرت الأدلة والقرائن على روعة صنعه وضبط خلقه وقدرته؟

نعلم أن الإيمان بالمستحيل العقلي لا يكلف شيئًا، لذا هو أسهل في عقل كاره الدين والهارب من تكاليف الشرع، وهذا هو المبرر الوحيد للإلحاد. فبرنامج الكمبيوتر الذي يفحص المتتابعات، ويختار أكثرها شبهًا بالتتابع المطلوب -الذي تم تحديده مسبقًا-، يعني أن العملية تجاوزت التطور العشوائي إلى تصميم واختيار ذكي، للوصول إلى تتابع تم تحديده مسبقًا بتوجيه من عقل خارجي، فهذا خلق موجه نحو غاية محددة، يهيمن عليه عقل ذكي، وهذا غاية ما يريد المؤمن من الملحد الاعتراف به.

إنَّ التطورَ عشوائيٌّ وليس عقلانيًا، وليس له أيّ دور إنشائيَ، ثم إن المحاولات المتكررة لجمع ١٥٠٠ بت هي وقائع مستقلة Independent Events، ومحاولات لا يؤثر بعضها في بعض، فمثلاً؛ لو تضخمت الأحماض الأمينية مليارات مليارات المرات، فستظل النسبة الاحتمالية هي نفسها في كل مرة، لأنّ المحاولات وقائع مستقلة، وكل مجموعة أحماض أمينية تتصرف بانعزال عن بعضها البعض، فتظل نفس الاحتمالية بنفس القيمة قائمة، وهذا يُسقطُ مفهوم الصدفوية ككل.

المشكلة أن ريتشارد دوكينز ببرنامج "ريتشارد هارديسون" يطلب هدفًا مُحددًا منذ البداية، يسعى البرنامج إليه، وفي كل مرة يقوم الكمبيوتر بمقارنة النتائج وفحصها، للاحتفاظ بالحروف المبرمجة لديه واستبعاد الباقي، إنه تدبير موجه برعاية خاصة وعناية وعقل ذكي، وهذا غاية ما يحدثكم عنه المؤمن في قضية الخلق.

- جدليّة التصميم

وهنا قد يدّعي الملحدُ أنّ تفسيرنا لوجود الخالق بناء على وجود التصميم، هو مجرد قياس على خبرتنا البشرية، فإذا قلنا له الساعة معقدة تدل على مصمم لها، يقول الملحد: هذا قياس على الخبرة البشرية لا أكثر، مستوحى من القياس -Analogy- على سلوك البشر ككائنات عاقلة، لكن في واقع الأمر نحن نقول إنَّ التصميمَ وإدراكَ التصميم لا يعيه الإنسان فحسب، بل كلُّ كائن آخر أيضًا، فالتلازم بين شيء يحمل مظاهر التصميم وبين كائن يتمتع بالإدراك

شيء متواتر في الطبيعة وجميع أنظمة الحياة، فهو تلازم موجود قبل أن يوجد الإنسان، وكامن في مظاهر أجناس الحياة، فالقول بأنّ التصميم مرتبط بالقياس على الخبرة البشرية لا أكثر هو محض ادعاء، تفنده كلّ مظاهر الحياة في كل مكان، بغضّ النظر عن وجود الإنسان -ليفرض ذلك الفرض المشتق من سلوكه ككائن عاقل مدرك-، فكلّ الكائنات الحية يصدر عنها من آثار التصميم بقدر ما تحمل من إدراك، كالنحل والعنكبوت والأميبا ونواة الخلية والإنزيمات الهاضمة والهرمونات وكل شيء، فهناك تلازم بين أيّة درجة من درجات الإدراك، والسلوك التصميميّ الناشئ عن ذلك الإدراك، لهذا نستطيع أنْ نعمّمَ هذا التلازم، لأنه لا يوجد ما ينفيه، بل هو الأصل في كل أنظمة الوجود، فتقريرنا بوجود المُصمم ليس تحكمًا، وإنما بناء على مشاهدات مطردة لم يخرمها استثناء حقيقي، فهو أصل نقطع به حتى يرد ما ينفيه، نفيًا لا تقل قوة أدلته عن تواتر قوة الأدلة الإثباتية التي نحملها، فقضيتنا هي قضية عقلية ومنطقية من الطراز الأول، أمّا قضية الإلحاد فلا تتسم بالعقلية أو المنطقية.

إنّ التصميم الموجود يشتمل على تعقيد وتنظيم وغاية معقولة، وهذا يشمل جميع أنظمة الحياة، ولا ينكره عاقل، بل إن سِمَة التعقيد لا تنفك عن موجود، وهي دليل مباشر على الإرادة، فالتعقيد مرتبة زائدة على مرتبة وجود الشيء.

فتفسيرنا لا يرتبط بواقع الخبرة البشرية فحسب كما يظن الملحد، مع عدم سذاجة الاحتكام إلى الخبرة البشرية، لكنه تفسير لقياس بعض الطبيعة على بعض، إنَّ ديناميكية طيران طائر العُقاب هي أفضل ديناميكية طيران على الإطلاق، وهي المُلهمة لتطوير الأنظمة الحركية لطائراتنا، إذًا فالقياس في حال ديناميكية طيران طائر العقاب لم يعد على شيء معهود للخبرة البشرية، إذ ليس للخبرة البشرية هنا سابق عهد بمثل تلك الديناميكية المُكتشفة، وإنما قياس للخبرة البشرية على مظهر جديد من مظاهر التصميم.[1]

ونفس الأمر ينطبق على نظام التنظيف الذاتي الذي تستخدمه زهرة اللوتس، فبنية نظام النظافة الذاتي في زهرة اللوتس يحاول البشر مُحاكاته في واجهات ناطحات السحاب حيث يصعب تنظيفها، ومُركّب Lotusan من إنتاج شركة "إسبو" يعتمد على تقنية اللوتس، وإن كان أقل كفاءة وفاعلية! حيث تجفُّ أنهارُ خبرة أمهر علماء البيولوجيا الجزيئية وأمهر المهندسين أمام ما يتم اكتشافه في الطبيعة من إبداع تلو آخر ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ

يوقِنُونَ﴾.[1] إنَّ الخبرات البشرية تعجز عن الوفاء بشرح للتصميم الكامن في أدق الأنظمة الحية كالخلية، أو أدق الأنظمة المادية في الذرة ونواة الذرة وحديقة الجسيماتParticle Zoo، ولكي نُحيط بما بقي من أسرار، علينا أن نُحيط بكلمات الخالق ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً﴾.[2]

بل في واقع الأمر إنّ الصدفة التي يروّج لها الملحد، ويدفع بها في وجه الخصم، هي التي تعتبر من قبيل القياس على خبرتنا البشرية لا أكثر، فهي حالة ذهنية تتبع طريقة نظرنا للأمور في تفسير ما حولنا، إنها لم تخرج خارج نطاق الحالة الذهنية حتى يومنا هذا، فالعلم التجريبي لم يثبتْ أيَّ دورٍ للصدفة في أيِّ نظام تعقيديّ، إذ لم يتم رصد أيّ دورٍ لها في تعقيد نظام حياتيٍّ بسيط، بل هي محض افتراض عقلي، وحالة ذهنية غير مرصودة أو واقعة.

وحتى إذا تركنا المنظومة الحياتية وذهبنا إلى المنظومة المادية المجردة، فالتعقيد موجود منذ البدء في الذرة وفي بناء الذرة، ولا دور للصدفة في تحديد كتلة الإلكترون أو كتلة البروتون – حيث العلاقة بين كتلتيهما هي العلاقة المثلى لتشكيل ذرة مستقرة–، كذلك حجم نواة الذرة، لذا لن تجد حديثًا عن الصدفة في الفيزياء، لأنَّ شرطَ الصدفة كما فصلنًا قبل ذلك هو الزمن، والزمن لم يظهر إلا مع ظهور العالم، والشرط الثاني للصدفة هو وجود المادة التي تُطبق نفسها عليها، وظهور المادة كان معقدًا، قبل أن توجدَ الصدفة، هذا في حال وجودها أصلا.

ولذا لم يتردد داروين نفسه في نفي الصدفة حين قال: "لقد عبّرت عن قناعاتي الداخلية بطريقة واضحة وناصعة، إنَّ الكونَ ليس نتاج صدفة".[3] بل ويُقر داروين بأنّ مظاهرَ التصميمِ ودلائله شعورٌ يغمرُ الإنسانَ بقوة ساحقة.[4]

عندما يتمرد الملحد على الاحتكام لخبرتنا البشرية وقياسنا نسأله: بأيِّ دليلٍ من خارجنا نحن مطالبون بالتمرد عليها، وعدم الاحتكام لها؟

فالذي يرى أنَّ قياس تصميم الكون على الأشياء التي صممها الإنسان قياسٌ قاصر–مثل ديفيد هيوم– قد أبعد النجعة؛ لأنَّ العلاقة بين الكون وما يصنعه الإنسان قائمة، باعتبار أنَّ

---

[1] سورة الجاثية: ٤.

[2] سورة الكهف: ١٠٩.

[3] Darwin, Francis Ed. 1887, "The Life And Letters Of Charles Darwin", Charles Darwin To W. Graham, Vol.1, P.285

[4] المصدر السابق.

كليهما وجودٌ حادثٌ، يتكوّن من المادة، ويحتاج إلى طاقة لتشغيله وإنشائه، كذلك فعلامات التصميم في كوننا من الوضوح بحيث لا تحتاج لمقارنة بكون آخر.

ثم إنَّ برهان التصميم والخلق يعتمد على أدلة الإدراك المباشر لكشف التصميم، وليس على أدلة القياس، فمثلا؛ عندما تنزلُ على أحد الكواكب المهجورة وترى آلة معقدة، حتمًا ستُدرك أنَّ الآلة تم تصميمها، فهو إدراك مباشر، وليس دليلًا عقليًا له مقدمات يمكن طرحها للتفنيد.

بل إن كارل ساجان -الملحد الشهير- يعتبر في مسلسل "Cosmos" الكونيّ أنَّ رصد أيّة إشارة معقدة من الفضاء الخارجيّ سيعني أن حضارة عملاقة تحاول التواصل معنا. مجرد إشارة تحمل بضعة بتات-حروف- توفِّرُ دليلًا عقليًا يكفي الملحد للاستدلال على وجود حضارة عملاقة، وحياة وتقانة عالية في ناحية ما من الكون، في حين أنَّ نفس الملحد يتظاهرُ بأنَّ ٣ بليون رسالة داخل الجينوم تحمل شفرات ورسائل وظيفية غاية في التعقيد لا تمثل أيّة حكمة أو إرادة! وإذا وجد علماء الحفريات إناء في منطقة ما من العالم، فإنهم يبحثون فورًا عن حضارة مندثرة في تلك المنطقة، لمجرد وجود إناء!

إنّ برهانَ التصميم طرحٌ يقوم بذاته، دون الحاجة لمشابهة ما نرى أو قياسه على ما نقوم به، فالتشبيه بمصنوعاتنا يكون لتسهيل التصور بالنسبة للعقل لا أكثر. لذا فأدلة القرآن -في أكثرها- لا تدعو إلى دليل قياس عقليّ، لكنها تستخدمُ المنهجَ الأقوى دلالة؛ وهو لفت النظر مباشرة لأدلة الصنع والتصميم والعناية والخلق ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.[1]

تعاقب الكائنات الحية

وبعد أن ظهرت الحياة على الأرض، وتتابعت الكائنات الحية؛ تطفو على السطح أشهرُ القضايا الإلحادية على الإطلاق؛ الداروينية. ويظهر التنظير الأشهر في الملف الإلحاديّ؛ وهو تنظير "خلق أم تطور"؟

وبداية، ليس في العلم الرصدي ما يدفعنا للاعتقاد بالتطور، وليس في البحث التجريبي ما يعضد موقف التطور، بل ليس ثمة دليل واحد على الإطلاق قائم بذاته يُثبت وقوع التطور، ولا يوجد أب -سلف- واحد موثق علميًا لملايين الكائنات الحية على وجه الأرض الآن، ولا يوجد

---

[1] سورة فصلت: ٥٣.

تطور كبروي واحد Macro-Evolution –انتقال من نوع إلى نوع– مُثبت حتى الآن، علميًا أو تجريبيًا أو رصديًا، ولا توجد طفرة Mutation واحدة مفيدة أثبتها العلم حتى الآن، ولا يستطيع العلم التجريبي التعامل مع الفرض الفلسفي التأويلي المسمى (انتخابًا طبيعيًا Natural Selection)، ولذا يقرر فيلسوف العلوم الأشهر كارل بوبر Karl Popper أنّ قضية الانتخاب الطبيعي تقبع خارج إطار العلم بالكلية لأنها لا تخضع لمبدأ (القابلية للتخطئة Falsifiability) –وهو إحدى الشروط التي من خلالها يمكننا الحكم على نظرية ما بأنها علمية أم لا– فالقضية بالكلية فلسفية تأويلية من الطراز الأول.

أصل أدلة التطوريين هي؛ تناظر الأطراف والتشابه الجيني وتناظر الأجنة، وهذه الأدلة تقوم على مغالطة الاستدلال الدائري (الأصل المشترك يفسر التناظر، والتناظر يفسر الأصل المشترك)، هذا أصل مغالطة الاستدلال الدائري، والأصح عند المناطقة رصد التفريع من السلف المشترك أولا، أما ما يحدث هنا فهو استدلال دائري وفلسفة تأويلية افتراضية.

وجاءت البيولوجيا الجزيئية –فك التشفير الجيني– لتضرب هذه الفلسفة التأويلية في مقتل، يقول جوناثان ويلز في معرض حديثه عن أيقونة التشابه في أطراف الفقاريات كإحدى (أيقونات التطور)[١]: "التناظر الجزيئي يولد الكثير من النتائج المتضاربة كتلك الناتجة عن التناظر الشكلي، أو كما صرح علماء الأحياء كولن باتيرسون وديفيد ويليام وكرستوفر همفريس عام ١٩٩٣م بأن: "التطابق في نتائج التاريخ الجزيئي مُوهِمٌ مثل التطابق في شكل الأعضاء". لكن عندما تتضارب نتائج التاريخ الجزيئي تبقى الطريقة الوحيدة لترجيح إحدى هذه النتائج على غيرها هو تحديد الأصل المشترك بطريقة مستقلة، وهذا يعيدنا لنفس المغالطة المنطقية في الاستدلال الدائري التي كان من المفترض أنْ نتجنبها".

ويقول أيضًا[٢]: "الداروينية الحديثة تفسر البُنى المتناظرة بأنها الأجزاء التي تمت برمجتها بجينات متشابهة موروثة من أصل مشترك، فإذا ظهر لنا أن الأجزاء المتشابهة في كائنين مختلفين نتجا عن جينين متشابهين، وأن الأجزاء المتناظرة لا يمكن أن تنتج عن جينات مختلفة، حينها يمكننا أن نمتلك دليلا على استمرارية تدفق المعلومات التي كتب عنها فان فالين. لكن الحقيقة ليست كذلك، وعلماء الأحياء يعرفون ذلك منذ عقود، ففي عام ١٩٧١م كتب جافين دو بيير يقول: "لأنَّ التناظر يعكس اشتراكا في الانحدار من الأصل المشترك،

---

[١] جوناثان ويلز، "أيقونات التطور"، ترجمة: د. موسى إدريس وآخرون، دار الكاتب، الطبعة الأولى ٢٠١٤، ص٦٠.

[٢] المصدر السابق ص ٦٥ – ٦٦.

فيجب أن نعتقد أن علم الجينات بمقدوره تزويدنا بمفاتيح لحل مشكلة التناظر، وهنا حدثت أسوأ الصدمات؛ لأن الصفات التي تتحكم فيها جينات متطابقة ليست بالضرورة متناظرة، والأجزاء المتناظرة لا تتحكم فيها بالضرورة جينات متطابقة". ثم خَلص إلى أن: "توارث البنى المتناظرة من سلف مشترك لا يمكن أن يُعْزَى إلى هوية الجينات".

ولكي يشرح دو بيير وجهة نظره -أنَّ البُنى المتناظرة يمكن أنْ تنشأ من جينات مختلفة- اقتبس تجربة واحدة فقط لتطور العين عند ذباب الفاكهة، ولكن في الحقيقة هناك أمثلة أخرى كثيرة اكتشفت بعد ذلك، ومنها تكون التقاسيم على جسم الحشرات، تحتاج أجنة ذباب الفاكهة إلى الجين Even Skipped من أجل تطوير تقاسيم جسمها بشكل سليم، لكن حشرات أخرى مثل الجراد والدبور لها نفس التقاسيم دون الحاجة لذلك الجين، ولأنَّ تقاسيم جسم جميع الحشرات متناظرة -سواء كان ذلك لتشابه التركيب، أو للسلفية المشتركة- فيبدو أن الصفات المتناظرة لا تستدعي بالضرورة أن تكون محكومة بمورّثات متطابقة، ومن الأمثلة الأخرى مورثة تسمى Sex Lethal؛ وهذه المورثة تعمل على تحديد الجنس في ذباب الفاكهة، لكن غيرها من الحشرات التي تتمايز إلى ذكور وإناث لا تحتاج إلى هذه المورثة.

ومن الجهة المقابلة سنجد بُنًى غير متناظرة تنشأ من جينات متطابقة، وهو الأمر الأكثر شيوعا والأكثر إذهالا، فهاهم علماء الوراثة يكتشفون أن هناك العديد من المورّثات -التي تحتاجها ذبابة الفاكهة من أجل نموها بشكل سليم- تتطابق تماما مع مورثات لدى الفئران وقنفذ البحر وحتى الديدان. في الحقيقة لقد أظهرت تجارب نقل المورثات إمكانية استبدال المورثات المسؤولة عن النمو الجنيني لدى الفئران أو البشر بتلك المورثات الشبيهة الموجودة في ذبابة الفاكهة، وهنا يبرز السؤال: إذا كانت المورثات تتحكم في بنية الجسم، وإذا كانت المورثات الخاصة بالنمو في الفئران وذباب الفاكهة شبيهة جدا ببعضها البعض، فلماذا لا ينمو جنين الفأر ليصير ذبابة، ولماذا لا ينمو جنين الذبابة ليصير فأرا؟".

ثم خلص إلى[1]: "وفي نهاية سواء كان التناظر يعود للنشوء والارتقاء أم لا، فإن الآلية المحددة المسؤولة عن حدوثه لا تزال مجهولة. كَتَبَ العالمُ (جافين دو بيير) عام ١٩٧١م باستهجانٍ يقول: "ما هي تلك الآلية التي تنتج عنها أعضاء متناظرة على الرغم من اختلاف المورثات المسؤولة عنها؟ سألت هذا السؤال عام ١٩٣٨م، ولم أجد جوابا بعد". واليوم بعد أكثر من ستين عاما على طرح السؤال، لم يجد سؤال دو بيير مجيبا بعد!"

(١) المصدر السابق ص٦٨.

ويستأنف ويلز متسائلا[1]: "كيف تمدنا أطراف الفقاريات بدليل على التطور الدارويني؟ وإذا كانت الطرق بين الكائنات غير متصلة سواء الجينية منها أو الجنينة، فكيف نعرف أنها قد جاءت من النشوء والارتقاء؟ وهل يمكننا أصلا أن نستنتج وجود أصل مشترك من التناظر؟ إن رسخنا تعريف التناظر بأنه صفات منحدرة من أصل مشترك، فكيف نستخدمها كدليل على التطور؟"

هذا هو التطور، وهذه هي الداروينية؛ لا علاقة للقضية بالعلم وإنما هي فلسفة تطرح نفسها بأدلة مراوغة يومًا بعد يوم، ونظرًا لأنّي قد فصّلتُ القضية في أبحاثي قبل ذلك، خاصةً في كتابي "كهنة الإلحاد"، فإنّني أكتفي هنا بهذا الطرح على أن يعود من شاء استعراض مزيد من التفاصيل إليه. أما الآن، فننتقل إلى الإنسان، ذلك الذي خلقه الله بيده، وجعله والدينَ -منذ اللحظة الأولى- جنبًا إلى جنب، فلم يكن الدين إلا جزءًا أصيلًا من الظهور والتاريخ البشريّ.

[1] المصدر السابق ص٦٨ - ٦٩.

الإنسان والدين

إنّ مطلبَ الألوهية مطلبٌ توافرت عليه الفلسفات والنبوّات، براهينه ماثلة في الأنفس والآفاق، وبواعثه مركوزة في العقل وفي الوجدان، ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾[1]، لكنَّ هذا المطلبَ الوجوديَّ -الذي لا ينفصل عن الإنسان- يؤرِّقُ الملحدَ، ولا يجدُ له في فلسفته المادية تفسيرًا، فيفترض أن نشأة الدين كانت عبر نظرة الإنسان البدائيّ إلى صفحة الكون، وعدم قدرته على معرفة أسباب الظواهر الكونيّة، فقامَ بنسبتها إلى خالق غيبي![2]

ولنا أن نتساءل هنا: كيف يكونُ النظرُ إلى الكون أو ظواهره سببًا في إيقاظ الشعور الدينيّ العميق عند جميع الأُمم؟ ما علاقة حدوث ظاهرة كونيّة بظهور دين له مراسمه وطقوسه؟

إن استمرار أيّة ظاهرة كونية على نسق واحد يجعلها أمرًا مألوفًا، لا يلفت النظرَ، ولا يحتاج لتعليل. بل إننا لو استخدمنا هذا المقياس الاختزالي -القاصر- في تحليل الأمور، فإن العكس هو الحاصل دومًا؛ فباعث كل الديانات هو روح العظمة والقوة، وليس الاستسلام أو الجهل أو الخوف!

من جهةٍ أُخرى؛ لو كان مبعثُ العقيدة هو المَشَاهِدُ الكونيّة، وكان هدف الطقوس هو استرحامُ الطبيعة، لمَ استمر الناس على التدين بعدما ظهر أنّها محاولات عابثة؟ وبما أنّ الديانات لم تنقطع يومًا، ولم تنفصل عن الجماعة الإنسانية عبر كل التاريخ وكل الجغرافيا، فلابدَّ أن يكون لها مَنْشَأ مستقلٌ عن هذا التحليل الاختزالي القاصر -الذي يطرحه الملحد-.

لكن هل كان باعثُ الخوفِ -عند الإنسان الأول- مبررًا لنشأة الدين كما يقولون؟

إذا افترضنا هذا التصور؛ فكيف نُفسر عبادة الأحجار والحشرات وأتفه الأشياء التي لا توحي بمثل هذا الشعور؟ بل كيف نُفسّرُ داخل هذا الإطار التحليلي للقضية الدينية الفصلَ التامَّ بين الأمورِ المقدسة والأمور العادية؟ وكيف يؤسس الخوف البدائيّ لكل الطقوس والديانات والعبادات؟

---

[1] سورة الروم: ٣٠

[2] Durkheim, "The Elementary Forms Of The Religious Life, A Study In Religious Sociology", G. Allen & Unwin (London) 1915.

إنّ أصل علم النفس يقوم على أنّ استمرارَ المُؤثِّرات على نسقٍ واحد يُضعفُ باعثَ التفكير والخوف.[1] ونظرًا لقصور هذا التصوّر في تحليل الظاهرة الدينية، فقد افترض دوركايم Émile Durkheim أنّ المجتمع والجماعة والعلاقات القبلية كانت مصدرًا أصيلًا لنشأة الدين، أضِف إلى ذلك تقديس الأجداد، واشتراكَ العشائر في لقبٍ واحد فيما يُعرف بالطوطم Totem، وهذا الطوطم في الغالب يكون لقبًا حيوانيًا، اتّخذته العائلاتُ البدائية لقبًا لها، وتحوّل مع الوقت إلى البذرة الأولى للدين![2]

لكن أثبتت الدراسات الميدانية التي أجراها روبرت شميت Schmitt للقبائل البدائية، أنّ هناك أُممًا كاملة وحضارات وقارّات لا تعرف شيئًا عن الطوطم أو الطوطمية، ولا يوجد عندهم نظام الألقاب الحيوانية، ومع ذلك توجد عند هؤلاء جميعًا عقيدة الإيمان بالله الأعلى بصورة واضحة.[3]

بل إنّ أبحاثًا أحدث قام بها لانج Lang وفريزر Frazer أثبتت أنّ الطوطمية منظومة اقتصادية مدنية، وليست دينية كما كان يتخيل دوركايم، وفكرة الدين نشأت بعيدًا تمامًا عن هذه التصورات الساذجة والتحليلات الواهية.

فالطوطمُ شعارٌ قوميٌّ، ورمزٌ يُعرِّف القبائلَ بأنسابها لا أكثر، ويبعث على التعاون والقومية، لكنّ القبائلَ كانت أذكى بكثير من أن تعبد تلك الرسوم أو مدلولاتها، بل كان لهم معبود روحيّ آخر –مستقلّ تمامًا– يعتمدون عليه.[4]

ولا ننسى أن دوركايم كان له الدور الأكبر في تدليس المعرفة عند الأوربيين خلال عقود طويلة، عندما طرح حفلات القبائل البدائية كمظهر دينيّ عندهم، حيث ثبت أنّ هذه الحفلات كانت تمردًا على هيكل الحياة الاجتماعية والدينية للقبيلة، وليس العكس، وأصبحت الآن هذه الحقيقة من أشهر أخطاء دوركايم.[5]

---

(1) Rowe MK, Craske MG, "Effects Of Varied-Stimulus Exposure Training On Fear Reduction And Return Of Fear", Behav Res Ther. 1998 Jul-Aug;36(7-8):719-34.
(2) Ibid.
(3) Andrew Lang, "The Making Of Religion", AMS Press (New York) 1968.
(4) Ibid.
(5) د. محمد عبدالله دراز، " الدين: بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان"، دار القلم للنشر والتوزيع ٢٠٠٨، ص١٤٩-١٥٠.

فالنظم القبلية في كل المجتمعات تقوم على الفصل التام بين الجنسين؛ إنه لمن السخرية أنْ يعرضَ علينا دوركايم –ولعقود طويلة– هذه الحفلات الماجنة وهذا المسرح البدائي المتهتك باسم المحراب المُقدّس للأديان، ويجعل التمرد على الدين مظهرًا دينيًا، ومظاهرَ التمرد معيارًا للدين عند الأولين![1]

– لكن هل الدين بالفعل ظاهرة اجتماعية، هل يمكن تحليل ظهور الدين في هذا الإطار؟

الذي يتفق عليه علماء الاجتماع أنّ الظاهرة الاجتماعية الحقيقية –كما نشاهدها في القوانين والقواعد الاقتصادية– ذاتُ وجودٍ خارجيّ مستقلٍ عن أفراد الجماعة، في حين أنَّ الدينَ ظاهرة فردية في المقام الأول، ظاهرة داخلية ذاتية مستقلة، تأتي على عكس الظاهرة الاجتماعية تماما، فكيف تقاس عليها؟[2]

فافتراضُ أنَّ العقلَ الجمعيَّ هو الذي أنشأ الدينَ يُسوغ لنا أنْ نقولَ: إنَّ المعدة هي التي تنتجُ الطعام، والبصرَ هو الذي يبعثُ الضياء! هل سمعَ أحدٌ بديانة ناشئة تحملُ تعاليمَ جديدة؛ يكون موقفُ الجماعة منها موقفَ حملِ الأفرادِ عليها، وإلزامهم بها، هل سمع بهذا أحدٌ من قبل؟ أم أنّ العكسَ هو الحاصل؛ فيكون الموقف المعتاد هو المناهضة والمقاومة العنيفة للداعين لها، أليس هذا أصلًا تاريخيًا يا دعاة التاريخ والتجربة؟!

مِن أين جاءت فكرة الإله الأكبر فاطر السماوات والأرض يا دُعاة التحليل الماديّ، وعلى غرار أيّة جماعة طُبعت هذه الصورة، وكيف قامت الدعوات لها عبرَ كل التاريخ وكل الجغرافيا؟ هل عندكم من تحليل واحد ماديّ لهذه الحقيقية الأولية في الوجود الإنساني؟

إنّ الذي يقرره علماء تاريخ الأديان أمثال لانج Lange وباسكال Pascal وشميت Schmitt وبروس Bruce وكوبرز Coopers وغيرهم، أنّ التوحيدَ وعبادة الله الواحد كانت سابقةً على التعدد وصناعة الآلهة الوثنية.[3](9)

إنّ التحليلَ الماديَّ للظاهرة الدينية هو تحليلٌ أجوفٌ وقاصرٌ إلى أبعد حد! فالحقيقة التي يجب أنْ نُحرِّرَها هنا؛ أنَّ الأديانَ هي التي سارت إلى الإنسان ونزلت إليه، وأنَّ الناسَ لم يعرفوا ربَّهم بافتراض العقل البدائيّ، وإنّما بنورِ الوحي.

---

(1) المصدر السابق ص١٥٦.

(2) John Markey, "A Redefinition Of Social Phenomena: Giving A Basis For Comparative Sociology", American Journal Of Sociology Vol. 31 (1925-26): 733-743.

(3) Ibid.

نعم؛ إنَّ الناسَ لم يكونوا –جميعًا– أوفياءَ بالوصية المقدسة، لكنّ هذا التعليمَ الإلهيَّ لم يُمح أثرُه محوًا تامًا من البشرية، ولذلك ظلّت فكرة الألوهية والعبادة والتوحيد واختلاط المقدس بالوثنيّ سمة ظاهرة في الحضارات والأمم.

الدينُ تجربة وجدانية فطرية أولية خالصة، بل أسبق في العقل من كل الأوليّات، وهو جماع كلّ الحقائق الإيجابية، وأصل المعرفة وأصل الأخلاق، وكما قال شيخ الإسلام بن تيمية –رحمه الله–: "وإن كل خير في الأرض فمن آثار النبوات".[١] وقال ابن القيم –رحمه الله–: "لولا النبوات، لم يكن في العالم علم نافع البتة".[٢]

ولا يُعرف ما الإنسانُ ولا قيمته، ولا يتمُّ التأسيسُ لأخلاقياته إلا تحت راية النبوات. بل إنّ مَن جحد أن يكون الله –تعالى– قد أرسل رسله وأنزل كتبه، لم يُقدره حق قدره، ونَسبه إلى ما لا يليق به، وأنّه خلقَ خلقَه عبثًا، وخلاهم سدى مهملين، وهذا ينافي كماله المقدس.[٣]

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾.[٤]

ومن نافلة القول؛ إنَّ إنكارَ الدين يعني –في حقيقته– افتراضَ أنّ الخالقَ يُطعِمُ ويَرْزُقُ ولا يحاسِبُ، وهذا ينافي كمال عدله وكمال حكمته سبحانه؛ إنَّ الدينَ حقيقة أولية في النفس الإنسانية، لا تحللها حتميات دوركايم الاجتماعية، ولا الرؤية الاختزالية لمجموعة من القبائل البدائية، إنّه جوهرُ الوجود الإنساني.

التوحيدُ، والتعدّدُ والوثنيَات

صرَّح السير م. مونيير وليامز Sir M. Monier Williams وجماعة من الباحثين أنّ: "التوحيد متقدم على كلّ صور الشرك التي ظهرت لاحقًا، فالديانة الهندية –مثلًا– بدأت بحسب نصوص الفيداس بالتوحيد، ثم تحللت إلى صور متعددة للشرك".[٥] وصرّح جماعة من

---

[١] ابن تيمية، "الصارم المسلول"، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، ص٢٥٠.

[٢] ابن القيم، "مفتاح دار السعادة"، طبعة دار الكتب العلمية، المجلد الثاني، ص١١٨.

[٣] ابن القيم، " هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى "، دار القلم– دار الشامية (جدة – السعودية)، الطبعة الأولى ١٩٩٦، ص٥٨٣، بتصرف.

[٤] سورة الشورى: ١٣.

[5] Mccabe, J. The Growth Of Religion: A Study Of Its Origin And Development, Watts& Watts& Co. London, P.191

الباحثين في دورية Primitive Man، بما نصه: "يظهر أنَّ تاريخَ الدين عبارة عن تحلل أو انحراف من صورة مبكرة خالصة ونقية من التوحيد".[١]

إنّها حقائقُ أركيولوجية أنثروبولوجية، لكنّ الملحدَ يخضع لعقيدته الإلحادية، وأحدُ أركان هذه الدوغما؛ أنّ تعدد الآلهة ظهر أولًا، ثم تطور إلى التوحيد. فكون التوحيد سابقًا على التعدد يعنى أن الدين النقي جاء أولًا، وهذا مخالف تمامًا لأطروحة الإنسان الذي خاف الطبيعة فبدأ يتعبد لظواهرها، ومع الوقت فطن إلى التوحيد. إذ لا يوجد مبرر واحدٌ لأسبقية التوحيد، إلا وجود وحي ديني مباشر، يُكسب الناس التصور الصحيح للخالق.

دولاب التاريخ (أسطورة الثايموس)

نشأ مفهوم الثايموس Thymus كمفهوم أساسيّ في أطروحة "فوكوياما" نهاية التاريخ؛ وهو في الأصل لفظ يونانيّ، يشير إلى الحيوية واندفاع الروح، فهو قوة متوثبة طموحة، نشأت وتنامت في نفس الإنسان الغربي، وتكررت في تراثه بتعابير مختلفة، ودلالات متقاربة؛ فمن ميَلِ أفلاطون لزَخَمِ وحماسِ الروح، إلى ما أومأ إليه ميكافيلي من طلب الإنسان للمجد، ثمّ ما ذكره هوبز عن الزهو والخيلاء، مرورًا بما أسماه هيجل الرغبة في نيل الاعتراف. يأتي مفهوم الثايموس ليصهر تلك المعاني في قالب واحد –بحسب فوكوياما–، هذا القالب يفسر محطة التاريخ في المرحلة الأخيرة التي ترسو عند نظام علمانيّ ليبراليّ نشهده اليوم.[٢]

يقوم الإلحاد الجديد على أنّ العقيدة الإلحادية هي عقيدة المرحلة؛ فالتاريخ يتحرك باتجاه واحد، وكل العقائد المادية قامت على هذا الفرض، إنّ أصلَ اليوتوبيا الاشتراكية التي ستظهر في المستقبل منصوصٌ عليه في البيان الشيوعي، ولا ندري كيف يقرر الإلحاد الحتمية التاريخية نحو الأمثل وفي نفس الوقت يقرر حرية الإرادة للإنسان؟

المهم أنّ الملحدَ ينظر للتاريخ نظرة خطية Linear؛ فَيَرَىٰ أنّ التاريخَ يسيرُ في خط مستقيم نحو الأفضل، وبالتالي فالإلحاد من مقتضيات المرحلة، والحاضر –دومًا– أفضل من الماضي على مستوى استيعاب الإنسان ورؤيته وحدود حريته، والمستقبل سيكون أفضل من الحاضر، هذه الفرضية الكامنة التي تسيطر على مستوى اللاوعي بالنسبة للملحد نجدها كثيرًا في تأويله لظهور الدين، باعتبار أنّ المرحلة الدينية أعقبها مرحلة ميتافيزيقية يختلط فيها العقل بالماوراء،

---

[1] J. M. C. The Origin And Early History Of Religion. Primitive Man, Vol.2, P.45.
[2] Fukuyama, F (1992) The End Of History, P.162

وانتهاء بالمرحلة الوضعية المادية. أيضًا نجدُ هذا التصور لدى الملحد في طرحه لشبهات حول الدين، مثل العبودية، وأنها شبهات مرتبطة بالماضي، ومحايثة للأجداد فحسب، وأنّ المستقبل يستحيل أن يُفرز أمثال هذه الرؤى، لأنّ الإنسانَ يتطورُ لما هو أمثل وأفضل عبر خط سير التاريخ ككل.

يقول فيلسوف التاريخ المخضرم كلنغوود في كتابه "فكرة التاريخ": "هناك مجموعة من التصورات تركت وسمًا عميقَ الأثر في وعي الإنسان الأوربي، أحد هذه التصورات، هو تأويل التاريخ على أنه تطور أُحادي الاتجاه للبشرية من بداية ضاربة بجذورها في البدائية والهمجية إلى نهاية تحتضن مجتمعًا تام العقلانية والتحضر".[1]

ذلك الحيود النفسي الذي يسيطر على ذهن الملحد، فيفترض نسقًا ثقافيًا يزدري الماضي، وينتقص الحاضر، ويضع كلَّ أمله في كمال المستقبل، للبحث عن عقيدة الخلاص بمنظور لاهوتيّ إلحاديّ.

إنه إنجيلُ البشارة بيوتبيا إلحادية، أو فردوس أرضيّ، يجعل من اليقين بمعطيات العلم ومنهجيته الملاذَ الآمن، الذي سيؤمِّنُ للإنسان فرصة الالتقاء بالحقيقة والعيش معها. إنّ افتراض أن التاريخ يسعى نحو المثالية، هو افتراض له تماس بالميتافيزيقيا. وجاءت نظرية التطور الدارويني لتُقدم ما يشبه التقعيد العلمي لهذا التصور الفلسفي.

إن ما يقوم به الملحد -في واقع الأمر- هو عملية توظيف ميتافيزيقيّ لمعطيات العلم الخام. لكن لا ننسى أيضًا أنّ الداروينية قدمت التقعيد العلمي لشرعنة نقاء الجنس الآري، وتصفية بقية الأجناس، وهو ما أشعل الحرب العالمية الثانية، التي راح ضحيتها ٢% من سكان العالم، كما قدمت التقعيد العلمي لفلسفة تحسين النسل بتطهير البشرية من الكتل المريضة والتالفة، كذلك قعّدت للداروينية الاجتماعية والبقاء للأصلح في أطروحة "هربرت سبنسر".

وأصبح الهوس بتطور التاريخ دوغما مسيطرة على العقول، فظهر علم الأعصاب التطوريّ Evolutionary Neuroscience، وعلم النفس التطوّري Psychology Evolutionary، وعلم الاجتماع التطوري Evolutionary Sociology، وأصبح من الصعب الآن التعرض لهذه الدوغما بمعول علميّ أو فلسفيّ. إنّه رسوخُ العقيدة الدوجمائية، والنظر لكلِّ شيء من خلالها، حتى أصبح من الصعب نقدها في عقل الملحد.

[1] Collingwood, R. (2005) The Idea Of History, Oxford University Press, P.88

يقرّرُ داروين في خاتمة كتابه "أصل الأنواع" العقيدة والركن الأساس للماديين الجدد؛ أنّ المستقبلَ يتجه نحو الكمال، فيقول: "بما أن الانتخاب الطبيعي يعمل كليًا من أجل مصلحة كل كائن، فهذا نزوع نحو الكمال".[١]

وإن كانت هذه الدوجما مسيطرة على العقول، فإنّ العلمَ لم يدعمها تجريبيًا إلى الآن بشيء، مما حَدَا بعالِمٍ تطوريٍّ كبير في حجم ستيفن جاي جولد، إلى رفض فرضية نموذج التطور الإنسانيّ المرافق للتطور البيولوجي.[٢] بل إنّ معطياتنا العلمية الأخيرة أثبتت خرافة هذا التحليل لسير التاريخ، فقد صرَّح الناقدُ والمؤرِّخُ التطوريُّ كارل زيمر، أن العلم الآن لا يتجه نحو فك ألغاز الحياة، وإنما يتجه نحو مزيد من الألغاز.[٣]

وقد تواترت الشواهد على خطأ هذه الرؤية الخطيّة للتاريخ، الأمر الذي حدا بكثير من التطوريين إلى نبذ التصور الكلاسيكي -للمسار التطوريّ- نبذًا كليًا، خاصة بعد ظهور أصوات تؤكد على عقم مفهوم الانتخاب الطبيعي، وخلو دلالته من معنى يتيح نفسه للاختبار والتحقق. وهذا ما حققه الفيلسوف جيري فودور في كتابه "What Darwin Got Wrong".[٤]

إنّ العقيدة التقدميّة -التاريخ الذي يسير في اتجاه واحد نحو الأفضل- المستوحاة من نظرية التطوّر في ثوبها الكلاسيكي، لم تعد ذات قيمة عند كثير من فلاسفة العلوم المتأخرين، ومن باب أولى عند الأوساط التي تمارس العلم بمعايير شديدة الصرامة. ولذا يقول جون ستيورات في كتابه سهم التطور: "لا يوجد اتفاق -حاليًا- بين التطوريين حول ما إذا كان التطور يسلك مسلكًا تقدميًا، الأكثر يؤمنون أنّ الأمر بخلاف ذلك".[٥] ثمّ يقرّرَ (فيخته) أنه لا مَزِيَّة لحقبة تاريخية على أُخرى، هكذا بإطلاق دون قيد أو اعتبار، وإلا وقعنا في نوع من الاستبداد الميتافيزيقيّ، فحركة التاريخ ليست ارتقاء نحو الكمال، وإنما فصل من الفصول متفرقة الدلالات والنتائج.[٦]

من هنا يتضح خطأ الادّعاء بأنّ التاريخَ حتميُّ التقدمِ نحو الأفضل -فضلًا عن الكمال المزعوم-، وبالتالي فالاستناد إلى الفلسفة التاريخية الخطيّة استنادٌ ميتافيزيقيٌّ لا يجد ما يدعمه، فهو مجرد وَهْمٍ يستحوذُ على عقول الكثيرين اليوم.

---

(1) Darwin, C. (1998) The Origin Of The Species, Wordsworth Classics, P.368
(2) Gould, S.(2007) Ever Since Darwin, P.56
(3) Zimmer, C. (2012) Redrawing The Tree Of Life.
(4) Fodor, J. (2011) What Darwin Got Wrong, Profile Books.
(5) Stewart, J. (2000) Evolution's Arrow, P.6
(6) Collingwood, R. (2005) The Idea Of History, P.106

فخيبة الأمل الكبيرة التي صحبت المنتَجَ العلميّ –نفسها– أعادت الإنسان إلى صرح اللايقين مرةً أُخرى، وكتب العالم الروسي الشهير إيليا بريجوجين Ilya Prigogine كتابه "نهاية اليقين The End Of Certainty".

إذًا دولاب التاريخ هو مجرد أُسطورة من جملة الأساطير التي تقوم عليها الديانة الإلحادية!

عند هذه النقطة؛ وبعد حديثنا عن نشأة الدين وتحليل سير التاريخ، نوّد الانتقالَ إلى مسألة ظهور الفلسفة، وهل الفلسفة في أصلها تدعم الدين أم الإلحاد؟ وأين نشأت الفلسفة بالضبط؟ وهل الفلسفة حكر على اليونان؟ وهل الفلسفة تدعم التوحيد أم الصياغات الوثنية التعددية؟ وهل للملحد أن يُمجد الفلسفة والفلاسفة؟

دعونا نبدأ بالإجابة عن السؤال الأخير أولًا..

انبثاق الفلسفة

أقعُ في حيرة من أمري كلما رأيتُ بحثًا لملحد يضع بجانبه تمثال المفكر Le Penseur، تلك المنحوتة الموجودة في باريس، والتي تشير إلى رجل يتأمل بعمق، أو يضع صورة لأحد الفلاسفة القدامى مكان صورته، ويجهل المسكين أنه يُمجِّدُ مَن دمّروا فلسفته الإلحادية عبر العصور، فعندما يتحدث الملحد عن الفلاسفة أو يفخر بجهودهم، فهو يُشبه اليهودي الذي يفخر بجهود هتلر وجوبلز.

إنّ أصلَ الفلسفة وقوامها هو التأسيس للدين ومحاربة الوثنية في كل مكان، وقد كان فلاسفة هليوبوليس وفلاسفة منف Menphis وفلاسفة الأشمونين يعيشون لقضية كبرى؛ وهي محاربة كهنة الوثنية في معابد مصر، وكانت جهود طلاب الفلسفة في تلك الحقبة تدور حول رد الآلهة جميعًا إلى الله الواحد الأحد، وكانت هذه الجهود قبل ظهور أخناتون بحقب طويلة، وقد انتصرت جهود هؤلاء في كثير من الأوقات، وتمّ الاعتراف رسميًا بوحدة الإله الخالق على يد فلاسفة منف وهليوبوليس.[1]

وأصبحَ للتوحيد السيادة الكلية في مصر، وصار عقيدة الجميع في الفترة من ١٥٧٥ق.م إلى ١٠٨٧ ق.م. ولا نستبعد –بل ونُرجح بشدة– أن يكون طلاب الفلسفة هؤلاء هم تلاميذ الأنبياء وأتباعهم، فمن الصعب بمكان تخيل استقلال العقل بفكرة التوحيد –توحيد الله–، والدعوة إليها، ووجود صدى لها عند جموع الشباب والمثقفين، وقيام الثورات من أجل تحقيق

---

[1] John A. Wilson, "The Culture Of Ancient Egypt", University Of Chicago Press, 1951.

ذلك المطلب الأسمى؛ نقول لم يكن ليتحقق كلُّ ذلك دون قبس إلهيّ يرشدُ إليه، وأنّ كهنة المعابد خانوا الأمانة، فوجبت الثورات المتتالية عليهم، والتي لم تتوقف يومًا حتى في عصور الاستعمار الطويلة.

يقول الشيخ نديم الجسر في رائعته (قصة الإيمان)[1]: "وإني أرَجِّحُ أنَّ كثيرًا من فلسفة الأقدمين في مصر والصين والهند هي بقايا نبوات نسيها التاريخ، فحُشر أصحابُها في عداد الفلاسفة، ولعلهم من الرسل أو اتباع الرسل".

وإذا تركنا مصر واتجهنا شمالًا؛ حيث دولة اليونان القديمة، ياقوتة الفلسفة في كلِّ العصور، ودرة الفلاسفة، فإنّ أصلَ وقوام الفلسفة اليونانية هو تحرير العقل من أسر الوثنية، والدعوة للإيمان بالخالق الواحد، وكان هذا هو السبب في الحكم بالإعدام على الفيلسوف أناكساغوراس، واضطراره إلى الرحيل عن أثينا- حتى لا يُنفذ فيه الحكم-، فقد كانت تهمته المباشرة هي الدعوة للتوحيد ونبذ الوثنية.

بل إنّ الذي لا خلاف عليه بين المؤرخين؛ أنّ غاية كل فلاسفة اليونان هي تصحيح الوثنية الإغريقية وإعادة ضبطها على النمط التوحيدي، وقد تكفل ذلك إصدار أحكام بالإعدام على كثيرين من هؤلاء الفلاسفة، بعد نقدهم لوثنية أشعار هوميروس وهيزيود.[2]

وقد انتقد كزيونفان بشدة وكذلك أفلاطون ومن قبلهما فيثاغورس.. الصورة الوثنية لآلهة اليونان، وقد كان أفلاطون ينصح بعدم تدريس أشعار هوميروس للأطفال، لما فيها من إخلال بسمو الألوهية، ولم يعترف أناكساغور وسقراط وأنتيستين وأفلاطون وغيرهم من الفلاسفة إلا بإله واحد رافضين التعدد الوثني.[3]

لقد كان تنزيه الألوهية وتوحيدها هو المطلب الأسمى لفلاسفة اليونان، فكانت الفلسفة رؤية مشغولة بهاجس الوثنية ومحاولة تنقيتها وإعادتها إلى التوحيد الصحيح، هذا ما ظهر مع نشأة الفلسفة على يد طاليس وأنكسيمندر وأمباذوقليس. لم تكن الفلسفة إلا من أجل نفي الوثنية والدعوة للتوحيد وتنزيه الخالق.

---

[1] نديم الجسر، " قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن"، المكتب الإسلامي – دار العربية، ص٣٥.

[2] د. الطيب بوعزة، "في دلالة الفلسفة وسؤال النشأة"، مركز نماء للبحوث والدراسات، ص٢٣٢.

[3] المصدر السابق.

وكانت المدرسة الإيلية التي أسسها الفيلسوف كزينوفان مدرسة توحيدية لتعليم الناس التوحيد الخالص ومحاربة الوثنية بكل صورها، ومستند محاكمة إعدام سقراط الذي جاء في صك اتّهامه أنه: "لم يكن يؤمن بالمعتقد الديني للمدينة"، فقد كان سقراط داعية التوحيد وتنزيه الله، ولم يخرج أرسطو من أثينا هاربًا إلا للفرار بالعقيدة التوحيدية، حين قال كلمته الشهيرة: "لا أُريد لأثينا أن ترتكب في حق الفلسفة حماقة أُخرى مثلما ارتكبتها عندما أعدمت سقراط".

إننا هنا لسنا بصدد الدفاع عن الفلسفة أو تبرير وجودها -في وجود النص الديني الأنقى والأسلم والأقرب والأحكم والأعلم-، لكن أنْ يتجرّدَ ملحد لتمجيد الفلسفة؛ فهذا عجيب!

إنّ الفلسفة في أصلها نزوعٌ نحو التنزيه، بل ربما الإفراط في التنزيه -التوحيد الأرسطي-، وبالتالي فهي حجر عثرة لكلِّ ملحد، ولا يليق بملحد عاقل أن يدافع عنها، فضلًا عن أن يمجدها، فالفلسفة ظلت طيلة ٢٢ قرنًا تمثلُ سندًا معرفيًا مباشرًا، ودعمًا ظاهرًا لكلِّ المدارس المؤمنة.

لكن هنا نريد أن نكمل حديثنا عن الفلسفة، وبقي أن نتسائل: كيف نشأت الفلسفة؟ ومَن أنشأها؟ وهل الفلسفة خُلقت خلقًا في قلب اليونان كما يزعم الغربيون الآن؟ أم هي طرح فطري لأسئلة النشأة -الأسئلة الوجودية الكبرى-، وبالتالي لم تخل منها مدينة، ولا أُمة ولا حضارة؟

للحوار في هذه القضية؛ أحبُّ أن أطرح رؤية دكتورنا الحبيب/ الطيّب بوعزة[1]، ونُلخص الآن رؤيته كالتالي:

- مركزية الفلسفة اليونانية مجرد وهم عِرقيَ لدى الغربيين المعاصرين

بعد التأسيس الحداثيّ للحضارة الغربية، منذ قرابة القرنين من الزمان -وفي لحظة النهوض، بدأ الوعي الأوربيّ يبحث عن قراءة أورومركزية للتاريخ والفكر والحضارة، لتمديد سيادته على التاريخ ماضيه وحاضره، فاستلهم التراث الإغريقي اليوناني، وانطلقت الكتابة التاريخية على أساس وصل النهضة الأوربية بالتراث الإغريقي، وأصبح الحديث حول المركزية الأوربية للفكر والثقافة والفلسفة قديمًا وحديثًا هو مقصد المثقفين الغربيين، ولم تعد لبقية الأعراق قيمة أو إنتاج أو ابتكار، وإنما تقليد أوروبا، فبدا الغربُ وحده في الساحة سامقًا بارزًا مُهيمنًا. وكان هاجس كلِّ مفكري النهضة؛ هو المحافظة على المركزية الأوربية، وتقطيع أوصال الثقافات

---

[1] الفيلسوف والمفكر المغربي وأحد الباحثين الذين لهم اهتمام بالملف الإلحادي، يشغل حاليا أستاذ التعليم العالي بالمركز الجهوي لمهن التربية والتكوين بطنجة، والذي يعكف الآن على مشروع ثقافيّ كبير في مدلولات الفلسفة.

الأخرى، حتى تبدو بالنسبة للإغريق كشظايا بلا قيمة، وكأنه لم تولد بقية حضارات العالم إلا من رحم الثقافة الإغريقية القديمة.

وكأنَّ التاريخَ الأوربيَّ تاريخٌ نقيٌّ من الأخلاط والمؤثرات الخارجية. وفي تلك الأثناء –أوائل القرن التاسع عشر– بدت حاجة المشروع الاستعماري الأوربي إلى نظرية تبرره، فزادت الحاجة إلى هذه الرؤية المركزية، وهنا انتشرت فكرة سمو العرق الآري، التي ستبررها لاحقًا بيولوجية داروين، والقول بالبقاء للأصلح والصراع من أجل البقاء وتباين الأعراق البشرية، واستحقاق الرجل الأبيض الأوربي قيادة العالم وتحضيره، وظهرت مصطلحات عبء الرجل الأبيض، والعبء الحضاري.

وظهر هيجل الذي قال بصراحة: "ما هو شرقيّ يجب استبعاده من تاريخ الفلسفة".[1] فقد كان هيجل مسكونًا بعقيدة المركزية الأوربية واستعلاء الأنا الغربي. ومع الوقت أصبحت قضية التفاضل العرقيّ والمركزية الأوربية هي خطاب النخبة طوال عصر النهضة.

وظلَّ الحالُ على ذلك عقودًا طويلة، ولم تنكسر هذه النظرة الاستعلائية إلا بتدمير ثلث أوروبا، وإعادتها عقودًا إلى الوراء، في حربين عالميتين كان مبررهما الوحيد هو النزاعُ العرقيُّ وسيادة الأصلح.

وبعد الحربين العالميتين عاد فيلسوف الإلحاد برتراند راسل يُغذي العقلَ الأوروبيّ بما يبرر استعلاءه، فكتب الجزء الأول من كتابه "تاريخ الفلسفة" مُخصصًا لتمجيد الغرب، وأسماه حكمة الغرب، فجعل كلَّ فكر وفلسفة إغريقية من أصل إغريقي، وكلَّ همجية إغريقية نابعة من تأثرهم بغيرهم.[2]

وهكذا تنتهي صياغة مؤرخي المركزية الأوربية إلى صياغة تفسير لاتاريخي لظاهرة نشأة الفكر والفلسفة، لأنَّ التفسيرَ التاريخيَّ يستلزمُ بحثَ السياق المجتمعيَ وصلاته بمحيطه، بينما النزعة العرقية تُقدّم تفسيرًا اختزاليًا غير منضبط مع ما حوله ولا مع ذاته.

لكن، هل بالفعل الفلسفة خلق يوناني خالص؟

---

[1] هيجل، "محاضرات في تاريخ الفلسفة"، ترجمة د. خليل أحمد، ص١٩٩.

[2] برتراند راسل، "حكمة الغرب"، ص٢٥.

هل العرق الآري هو العرق الأوحد الذي ينتج فكرًا وفلسفة؟

هل عقمت بقية الأعراق عن توليد فلسفة؟

هل العقلية التوليدية حصرية للعرق الآري، والباقي يأخذ ويقلد؟

في البداية؛ لابد أن نعلمَ أنَّ حضارة الإغريق بدأت في القرن العاشر قبل الميلاد؛ في حين أنّ الشرقَ أنتجَ حضارة منذ أربعين قرنًا قبل الميلاد.

والذي لا جدال فيه أنّ بلادَ الإغريق وَعْرَة التضاريس، مما عكس جغرافية بحرية تتلاقح مع غيرها من الحضارات المحيطة، فهذا السياق الجغرافيُّ كان يفرض عليها الانخراط في هجرات واحتكاكات وصدامات وحروب، فضلًا عن علاقات تجارية متبادلة، الأمر الذي يستلزم تجاوز القراءة الأورومركزية للتاريخ.

بل إنّ ديوجين اللايرسي -صاحب أقدم متن تأريخي للفلسفة- يعترف قائلاً أن: "الفلسفة نشأت عند البرابرة؛ هكذا كتب أرسطو في بحثه عن السحر، وسوتيون في الكتاب الثالث والعشرين من ميراث الفلسفة".[1] وأفلاطون نفسه يعترف أنَّ مصطلحَ فلسفة الذي يتكون من مقطعين-فيلو، صوفيا- ليس من أصل محلي.[2]

وقد أجمع فلاسفة اليونان أنهم تتلمذوا على حضارات الشرق، وأيونيا مهد الفلسفة الإغريقية كان يمتزج بها عشرة أعراق على الأقل، كما يقول المؤرخ اليوناني القديم هيرودوت.[3]

في مقابل إسبرطة -أنقى الأعراق الآرية- لم تُنتج فلسفة ولا فكر ولا شيء ذو قيمة. ولذا السؤال المطروح دومًا: لماذا لم ينبجس الفكر والفلسفة إلا في المناطق المتصلة بالشرق، والمختلطة به عرقيًا؟ ولماذا ظل العرق الآري النقي عاجزًا عن إنتاج فكر أو حضارة؟

---

(1) Diogene De Laerte Vies Et Dovtrines Des Philosophes P.1

(2) مصطفى النشار، "تاريخ الفلسفة اليونانية"، المحاورة مع أقراطيلوس ص١-٣١.

(3) طرابيشي: "نظرية العقل"، ص٨٨.

وأثينا لم تظهر بها الفلسفة قبل القرن الرابع قبل الميلاد؛ أي بفارق قرنين كاملين عن مناطق الاختلاط العرقيِّ كأيونيا. وإذا عُدنا إلى أوائل فلاسفة اليونان ف(طاليس) أول فلاسفة اليونان لم يكن آريًا بل كان فينيقيًا؟!

طاليس بن إكساماياس، فينيقي، حسب هيرودوت، وهو أول من حمل لقب الحكيم. وأنكسماندرس وأمكسمانس كانا من أصول فينيقية. وعندما ذهب فيثاغورس ليتلمذ على يد طاليس، أمره طاليس أن يذهب إلى مصر وبقي فيها ٢٢ عامًا يتعلم.[١]

ولذا يقول إيزوقراط: "فيثاغورس تتلمذ على يد المصريين، فكان أول من أدخل الفلسفة إلى اليونان".[٢] وطاليس لم يتعلم إلا في مصر[٣]، ويُوردُ هيرودوت الكثير من الطقوس التي كان يخضع لها فيتاغورس لكي يستحق الانتماء للمدرسة المصرية. بل إن معبد دلفي الإغريقي الذي يقوم بتدريس الفلسفة السقراطية قام الغوغاء الإغريق بإحراقه، وتبرع أحمس ملك مصر بإعادة بنائه.

ويمكننا أن نستخلص مما سبق ما استخلصه مفكر فلسفي كبير مثل جورج. جي. إم. جيمس، حين قال: "الفلسفة اليونانية فلسفة مصرية مسروقة".[٤] وأنَّ لغة اليونان هي لغة الفينيقيين، حيث استعاروا حروفهم، وأطلقوا عليها حروف الفونيقيا Phoinikeia .[٥]

إنَّ التفلسفَ والتفكيرَ والتوليد العقلي للأدلة ليس نمطًا مخصوصًا بحضارة أو بشعب، بل كما يقول ابن خلدون -رحمه الله-: "العلومُ العقلية طبيعة الإنسان من حيث أنه ذو فكر، فهي غير مختصة بملة، بل يوجد النظر فيها لأهل الملل كلهم، ويستوون في مداركها ومباحثها، وهي موجودة في النوع الإنساني منذ كان عمران الخليقة".[٦]

ويمكننا اليوم أن نقول -ونحن واثقين تمامًا- إنّ التراث الإغريقيّ بأكمله هبة الحضارة الإسلامية، فالحضارة الإسلامية هي التي أنقذت تراث فلاسفة اليونان، ونقلته من مجرد أفكار

---

[1] Jean Philippe Omotunde, "L`Origine Negro-Africaine Du Savoir", P.51
[2] Ibid, P.56
[3] Ibid, P.57

[٤] جورج. جي. إم. جيمس، "التراث المسروق"، ترجمة: شوقي خليل، ص٢٥.

[٥] هيرودوت، "التواريخ"، ص٧٧.

[٦] بن خلدون، "المقدمة"، ص٨٦٠.

ومعارف، إلى مرجعية يشتغل على شرحها وتطويرها والحوار معها، الأمر الذي أكسب الفكر اليوناني مسارًا تاريخيًا فريدًا، حيث امتد إلى المستقبل ولم يندثر كما اندثر غيره، فلولا اشتغال المفكرين المسلمين (ألكندي، الفارابي، ابن سينا، ابن رشد..) على حفظ متون الفكر والفلسفة اليونانية وتحويلها إلى مسائل معرفية حوارية؛ لانصرمت تلك الفلسفة الآن في طيِّ النسيان.

فالمتن اليوناني هو هبة اشتغال الفكر العربي عليه. ثم إنّ وجودَ الفكر اليونانيّ في حوض البحر المتوسط، وهو حوض الحضارة العالمية، وقربه من الحضارة الإسلامية التي ستنشأ بعد فترة وتشتغل عليه، هو الذي منح ذلك الفكر التداول والاستمرار والتطوير، فصار مرجعية فكرية تأسيسية، بعكس الأفكار التي نشأت بعيدًا عن حوض الحضارة العالمية، كالحضارة الهندية والصينية التي لم تكتسب سياق الحياة بنفس القدر الذي حظي به الفكر اليوناني.

لكن الواقع أنه لا توجد ثقافة حصرية بأمة من الأمم، ولا فكر خالص لعرق من الأعراق، لكن الذي يجتهد ويُبدع يُمكن أن يُنتج، والذي يستفيد ويتحصل على العلوم من غيره يختصر الكثير من الجهد والوقت لبناء معرفته الذاتية المستقلة، فالحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أولى بها.

إذًا الفلسفة ليست حكرًا على أُمة من الأُمم، بل كانت ردَّ فعل على ظهور الوثنيات في كل الثقافات، فهي ربما تتواكب مع النبوات، وربما تكون نبوات مُحرفة، وربما تكون مرتبة بين النبوة والإلهام –مثل حكمة لقمان–، فالله أعلم بأحوال عباده، وهو القاضي بينهم بالعدل، وهو الموحي بأمره ونهيه ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾.[1]

لكن هنا إحقاقًا للحق وضبطا للفهم؛ نقرر أنّ الفلسفة ما لم تهتدِ بوحي لا ينتفع بها أحد، وتصير همًا معرفيًا لا مخرجًا إيمانيًا، إذ تتحول إلى جمود منطقيّ جافّ، وهذا مُشاهد في كثير من الفلسفات –خاصّة المعاصرة–، حتى أصبحت عقول بعض الفلاسفة أكثر عقول أهل الأرض فسادًا، ويعتور عقل المشتغل بالفلسفة من الفساد بقدر ما اشتغل به من تفلسف، وهذا ما لم تكن تلك الفلسفة مهتدية بوحي يُبقي العقل في نطاق طوره الأوسع والأغنى؛ ألا وهو عقل البصيرة والحكمة والاعتبار، عقل الأخلاق والقيم والمعنى، لا عقلَ التصورات المنطقية

[1] سورة فاطر: ٢٤.

الجافة. فالحكمة أهمُّ بكثير من المعرفة الفلسفية المنطقية المجردة، بل إنّ المهارات المرتبطة بالحكمة أهمُّ من المهارات المرتبطة بالمعرفة.

والعالم المادي الذي هو مملكة كلمات الله التي لا تنفد، أرحب من قيود الفلسفة المجردة، فهو يشتمل على البصيرة والحكمة والفطرة والوجدان والحس والقيم والمعنى والتصميم والمنطق والقوانين والمادة، فقرائن العلم وطرقه لا حصر لها.

لكن مشكلة الفلسفة المتأخرة أنها قيّدت نفسها بقيود الوضعية المنطقية، فحرمت نفسها من طرق أخرى كثيرة للعلم النافع، فهي الآن تسعى لتقييد طرق التصور والحكم والفهم، لأنّ غرضها تمكين الوصول إلى معرفة محددة.

ولذا يمكن الرد على هذا الاتجاه المعاصر للفلسفة بالقاعدة التي هي نفسها أسست لها؛ والتي هي "ليس عدم العلم علمٌ بالعدم".

وربما السببُ الرئيس في اتجاه الفلسفة المعاصر هذا؛ هو محاولة تقليد طرق وقرائن العلم الماديّ المعاصر، فدخلت الفلسفة نفس الكوة الضيقة التي نحتها العلم الطبيعي لنفسه، فقصرت نفسها على المتاح، والمتاح تحت يدها فحسب، فكذّبت ما لم تُحط بعلمه، ودخلت الفلسفة جُحرًا، وضيّقت إمكانات العقل وحصرته على قرائن العلم التجريبي الحسي وطرائقه ومنهجه، ففقدت آفاقًا رحبة وطرائق جمة، ومناهج لا حصر لها، وأضحت ذيلا للعلم التجريبي بدلا عن أن تكون مصححًا لمساره وهاديًا لدربه وراصدًا لسعيه.

وهنا يأتي دور حديثنا عن كوة العلم التجريبي، وهل هذه الكوة بالفعل ضيقّت واسعًا؟ وهل حرمت الإنسان من مصادر أكثر وثوقية للقيمة والمعرفة والأخلاق؟

كُوَّةُ العِلمِ التجريبيّ

العلم الطبيعي نحت لنفسه كوة ضيقة[1] بإصراره على:

١) تفرد الخبرة العلمية عن غيرها.

٢) ادعاء انفصال الخبرة العلمية عن التجربة الذاتية.

٣) الحديث عن عالم الحياة في مقابل عالم العلم.

٤) عالم العلم حاضن العقل الوضعي ومتنكر لأي شيء آخر.

٥) عالم العلم بطبيعته يستبعد معانٍ لا تقل أهمية عن خبرات العلم الطبيعي -إن لم يكن أهم- ، مثل الغاية والقصد، والتي لا يمكن فصلها عن عالم الحياة باعتبارها لُب عملية الفهم.[2]

ولذا قرر هوسرل ضرورة وضع أُسس منهج ظاهراتي لتبدو الأشياء كما تبدو عليه في سياقها الزمكاني بالنسبة لخبرة الملاحِظ، فلابد في رأيه من الاعتراف الحصري بالبُعد التوصيفي Descriptive الموضوعي والبعد الذاتي الحياتي.

هذا المنهج الظاهراتي الأقرب للإنسان ولتحليل ظاهرة وجوده يقبل قول النبي صلى الله عليه وسلم لجبل أُحد أنه "جبلٌ يُحبنا ونُحبه"، في مقابل البعد التوصيفي للجبل الذي لا يزيد عن استيعابه كذرات متلاحمة في خضم ذرات أخرى تنفصل عنه بنيويًا، فحب الجبل هو خبرة في عين الملاحظ لا يتيحها التحليل العلمي.

ولا عيب في هذا المنهج لعدم الدليل على عيبه، بل العيب في التحليل الجاف، فالصلاة حركات مادية وانحناء أوتار وذبذبات أحبال صوتية، لكنها في الخبرة الذاتية الإنسانية الأقرب للصواب: قُرة عين أو مجرد واجب ينبغي الوفاء به أو عادة أو رياء، وفي كل هذه الخبرات الذاتية هي تحليل إنساني أقرب للعقل، في حين يظل التحليل العلمي الجاف أبعد ما يكون عن الواقع والحقيقة في أصلها، وهنا تكمن المفارقة بين الإنسان وبين العالم المادي.

---

[1] هذا الجزء من المقال من وحي كتاب: عبد الله بن سعيد الشهري، "ثلاث رسائل في الإلحاد والعلم والإيمان"، مركز نماء للبحوث والدراسات، الطبعة الأولى ٢٠١٤، بتصرف.

[2] إدموند هوسرل، "أزمة العلوم الأوروبية والفنومينولوجيا الترانسندنتالية"، ترجمة: د. إسماعيل مصدق، المنظمة العربية للترجمة، ص٣٤.

إن الاستبداد المعرفي [illegible] [illegible]

من حق، وأن كل معرفة تزعم الاتصال بغير [illegible] النطاق أو [illegible] الحاجة إليها وأقبل الوعي عليها، هي أساس كل وهم، ويجب أن نقتلها في مهدها أو أن ندير ظهورنا لها إن لم نقدر على قتلها.

فعندما نحت العلم كوته الضيقة الخاصة به اعترف بالعجز عن معالجة الأسئلة الناشئة عن صلة الوعي بمطلق الوجود –أسئلة النشأة والغاية والمعنى والقيمة والأخلاق وكل أسئلة لماذا– ،ولم يكتفِ العلم بعجزه، بل إن كهنته وصموا تلك الأسئلة بالفارغة والتي لا معنى لها، بل تم وصمها بالغير مشروعة، وهذه بعينها مغالطة الاستدلال بعدم العلم على العلم بالعدم، فإن حقيقة قولهم يمكن تصويرها هكذا: لما عجزنا عن معرفة الجواب جاز لنا أن نصف السؤال بغير المشروع والفارغ. لكن مع أدنى تأمل وتنزّل يتبين لنا أن هذه الإجابة تنطوي على مصادرة لأهم ما يميز ويشغل الوجود الإنساني بالكلية، وتنطوي على خطأ بيّن؛ فخبرة عالم العيش أوسع من خبرة عالم العلم ومشتملة عليها، ومن البديهي أن إثبات الأخص –العلم التجريبي– لا يلزم منه نفي الكل –أسئلة النشأة–، بل إن العكس هو الصحيح، ولذا الذي يملك الدين يملك العلم والآخرة معًا، بينما الذي يرضى بظاهر من الحياة الدنيا لا يجيب عن شيء ولن يصل إلى شيء، ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾.[١]

فمحاولة تبرير السكوت عن الأسئلة المطلقة الكبرى بحجة البحث في الوجود الخاص – العلم التجريبي– هو محض تحكم ورغبة في اليقين. وكما قال فريدريك شوماخر –في جمع حافل من العلماء– "محاولة ضغط كل علوم عالمنا في قالب الفيزياء الحسية، سيتحول إلى لعنة يصعب الهروب منها، والأمر أشبه بمحاولة حصر دراسة عمل فني عظيم في دراسة المواد التي يتكون منها".[٢]

العقل بطبيعته قاصر عن إدراك حقائق الأشياء كما هي عليه في الخارج، فالعقل مثلاً بالنسبة لكانط يُطل على العالم الخارجي عبر ما أسماه بال Categories؛ وتعني مفاهيم أولية للإدراك،

---

[١] سورة الروم: ٧.

[2] E. F. Schumacher, "A Guide For The Perplexed", Harper Perennial; Worn Condition Edition (May 31, 1978), P 117

وهي تفرض على العقل هيئة لا يتخطاها في فهم الأشياء، هيئة تصله بظواهر لا جواهر العالم؛ فيعجز الإنسان عن النفاذ إلى حقيقة بواطن الأشياء، وهذه طبيعة العلم ومدى قدرة الإنسان، فهناك طوق معرفي خاص على نطاق العقل وطريقة عمله، فلا يعرف بواطن الأشياء في حقيقتها إلا الله، وفي الحديث النبوي" وأنت الباطن فليس دونك شيء". وهذا يعني بمنتهى البساطة والجدّية إصابة غرور المؤمنين بكفاية العلوم التفسيرية في مقتل.

صدر مؤخرًا في (٢٠١٢م) كتاب لفيلسوف الوعي الشهير توماس ناجل Thomas Nagel بعنوان Mind And Cosmos: Why The Materialist Neo-Darwinian Conception Of Nature is Almost Certainly False، والكتاب أثار ضجة في الأوساط العلمية والإلحادية، ويمثل ردة صريحة لفيلسوف عن كفاية المذهب الطبيعي، وفكرة الكتاب كما يظهر من العنوان: التدليل على قصور التصور المادي عن الطبيعة.

فالعلم الطبيعي ليس شيء موضوعي في الخارج نفزع إليه ونتوكل عليه متى شئنا، إن عبارة "العلم سيجيب عن ذلك" تلك العبارة التي يكررها الملحد في اليوم الواحد أكثر من مرة، أضحت عبارة مستهلكة بلا معنى، تعطي للعلم لاهوت مستقل، وتثبت تصرفًا مستقلاً للعلم فهو يُعز من يشاء ويذل من يشاء ويعطي ويمنع، وهذا تدليس من العيار الثقيل فليس العلم مرجع تام الحياد، ولا يمنح سلطانًا ذاتيًا إيجابيًا، فإدراك حقائق الأشياء في الخارج قاصر بقصور العقل البشري، وإلى اليوم نحن لا نعرف ما هي المادة فضلاً عن أي شيءٍ آخر.

يقول سير بيتر مداور Sir Peter Medawer في كتابه نصيحة للعالِم الصغير Advice To A Young Scientist: "لا شيء يُفقد الثقة في العالِم أكثر من ادعائه أن العلم يمكن أن يجيب عن كل الأسئلة يومًا ما".

العلم ذاتي وليس موضوعي

لا تخرج حالة العلم عن كونها محصلة لحالة من أحوال العقل، والعقل يتلبس بأحوال وتعتريه عوامل وثيقة الصلة بكيان الإنسان كله؛ حاجاته الجسدية، مطالبه الوجدانية، إملاءاته العاطفية، اتجاهاته الفكرية، إلى غير ذلك، وبالتالي يلزم من ذلك أن العلم الطبيعي يعتريه ما يعتري العقل من صروف وأحوال، فإذا أضفنا إلى ذلك الشاهد الكانطي الذي ذكرناه قبل قليل لزم من ذلك أن العلم الطبيعي عرض من أعراض العقل غير معصوم، وهو محصلة اجتهاد يتأثر

بالاتجاهات العاطفية والمصالح الشخصية، والأهواء الذاتية، للعلماء والمؤسسات على حدٍ سواء.

وقد أحسن التطوري الكبير ستيفن جاي جولد حين قال: "لم تصل السذاجة بنا إلى حد الإيمان بخرافة أن علماء العلم الطبيعي نماذج مثالية للموضوعية غير المتحيزة، أو أنهم منفتحون بدرجات متساوية على كافة الاحتمالات، أو يصلون إلى النتائج على قدر الدليل، نحن ندرك يقينًا أن التحيزات تلعب دورًا قويًا في عملية الاكتشاف"[1]

الذاتية والموضوعية لا تنفصلان!

علينا أن نعلم أن الموضوعية ليست نقيض الذاتية، وإلا ما اجتمعتا في النفس طرفة عين، وإنما صورة من صورها ومرتبة من مراتبها، مثل أن اليقين درجة من درجات الظن.

فلا يوجد خندق فارغ بين العالم الذاتي والموضوعي، بل هما متداخلان إلى أبعد حد في النفس البشرية سواء نفس عالم أو عامي، بل إن الذاتية أصل الموضوعية وليس العكس، فنحن نقترب من الحقيقة ويمكن أن نصل إليها، وحين نصل إليها تكون مرتبة من الحقيقة تتلاءم مع تركيب عقولنا، وكما قال كانط: "إن الحقيقة تابعة لتركيب عقولنا"[2].

فاتصالنا بالحقيقة يكون على الوجه الذي تأذن به بنية العقل، وهو وطيد الصلة بما ذكره ابن تيمية من استحالة مطابقة الحقيقة الذهنية للحقيقة الخارجية من كل وجه، وهذا لا يثبت نسبية كلية للحقيقة وإنما نسبية لطبيعة إدراك النوع الإنساني من جهة، وطبيعة الأشياء في حقيقتها من جهةٍ أخرى.

إذًا إدراك العقل للعلم الموضوعي بطريقة كلية الحياد هو خرافة، مَن يتبناها يجهل طبيعة العقل وطبيعة العلم، فنحن قد قررنا أن العقل لا يعمل كبرنامج حاسوبي صرف، وإنما هو تداخل تام بين الفكر والعاطفة بحيث لا ينفصلان، ثم إن العلم الطبيعي لا يستقل بوجود خاص، وهو ليس أكثر من عرض من أعراض العقل، والعقل عرض من أعراض النفس، وبالتالي يعتريه من التدرج ما يستعصي على الحصر، ثم إن عالم الحياة سابق على عالم العلم كما فصّلنا، ثم

---

[1] Stephen Jay Gould, "Wonderful Life: The Burgess Shale And The Nature Of History", W. W. Norton & Company (September 17, 1990), P.244.

[2] يوسف مكرم، "تاريخ الفلسفة الحديثة"، مكتبة الدراسات الفلسفية، ص٢١٩.

عرجنا على الانفصام الموهوم بين الذاتي [illegible]

[illegible]

وأصل الصراع بين التنويريين والرومانسيين [illegible] الصراع بين الذاتي والموضوعي. فالرومانسيون يحاولون حماية الذاتية من جفاف الموضوعية. والتنويريين يتعاملون مع الموضوعية على أنها شيء مطلق متجاوز ترانسندنتالي.

لكن حدود العلم الطبيعي الموضوعي غير واضحة ومناهجه غير منضبطة، فمن المستحيل والحال هكذا أن نصِم العلم الطبيعي بالموضوعي فضلاً عن أن نصمه بالمطلقية المتجاوزة.

فتخوم العلم الزائف متداخلة بشدة مع تخوم العلم الطبيعي، فنحن إلى اليوم نكاد نجزم أن نظرية التطور علم زائف بلا دليل تجريبي واحد يدعمها ومع ذلك يعتبرها غيرنا علم حقيقي يمكن النقاش حوله.

ولذا يقول فيلسوف العلوم الكبير لاري لودان Larry Laudan: "لكي نُحسب في عداد العقلاء علينا أن نُسقط من معاجمنا مصطلحات من مثل علم زائف وغير علمي، إنها تعبيرات جوفاء تقدم لنا خدمة عاطفية فقط".[1]

فمن الخانق التحكم في جنس العلم ومحاكمة جنس المعرفة بناء على فرضيات ومقدمات ظنية، مثل فرضية القابلية للتخطئة عن بوبر Falsification، وهذا نفس ما نادى به لاكتوس Lakatos فالغلو في تبني افتراضات لحدود العلم الطبيعي ربما يحرم الإنسان من طرق أكثر وثوقية للمعرفة، وهذا الأمر يتفق عليه الآن كثيرون من فلاسفة العلوم أمثال بول فيرابند ونيكولاس ماكسويل وغيرهم. فمنهج العلم الطبيعي نفسه غير منضبط، مما يجعل سؤال التمييز بين العلم الحقيقي والعلم الزائف ليس مطلب منطقي.

من المهم هنا أن نوضح أن الذي يضع مناهج العلم الطبيعي هو فلاسفة العلم الطبيعي وليس علماء العلم الطبيعي، فالذي يضع الأُطر الآن فلاسفة العلم وليس العلم ذاته. وهذا يؤكد على حقيقة هامة وهي أن المنهج المعتمَد للعلم غير ذاتي؛ أي غير قادر على تبرير نفسه أو

(1) Larry Laudan, "The Demise Of The Demarcation Problem", In Robert S. Cohen & Larry Laudan (Eds.), "Physics, Philosophy And Psychoanalysis: Essays In Honor Of Adolf Grünbaum", D. Reidel. 111--127 (1983).

وضع أُطره بذاته بل يعتمد على شيء متعدي –فلاسفة العلم– لوضع أُطره الذاتية وهذه نقطة ضعف قاتلة في المنهج العلمي المعاصر، فهو يزعم المطلقية ويبرر لها من خلال شيء متعدي غير مطلق وهو فلاسفة العلم.

فكما فعل كارل بوبر من وضع معيار القابلية للتخطئة، وكما صنعت الوضعية المنطقية من وضع فكرة فحص المقولات Peer Review، وهنا ننبه على الفرق بين التحقق Verification والتخطئة Falsification؛ فالأول ألصق بالممارسة المنطقية الوضعية، ولكن لو طبقنا هذا القيد على نظرية التطور بما تحمله من استحالة التحقق Verification فهو ما يجعلنا نؤكد طبقًا للمنهج العلمي ذاته على زيفها، ومع ذلك يصر غيرنا على حقيقتها، وهنا نؤكد على اختفاء التميز بين الحقيقي والزائف.

تعتمد ممارسات العلم الطبيعي كما نعرفه اليوم على الفرضيات الكلية للمنهج التجريبي المعياري Standard Empiricism، والذي هو بحسب ماكسويل: "المذهب الذي يقول بأنه في العلم لا يمكن قبول فرضية ذات بال عن العالم كجزء ثابت في المعرفة العلمية من غير دليل، ومن باب أولى إذا انتهكت الدليل".

وعندما تم تقييم هذا المنهج المعمول به في العلم التجريبي المعاصر؛ عندما أُعيد تقييم هذا المنهج على يد ماكسويل ذاته، اكتشف عشرة إشكالات جوهرية لم يتمكن المنهج المذكور من حلها، ودعاها إخفاقات المنهج التجريبي المعياري The Failings Of Standard Empiricism، وهي موزعة كالتالي: ثلاثة إشكالات تتعلق بالاستقراء Induction، وإشكالان في طلب البساطة Simplicity، وإشكالان يمسان قضية الدليل Evidence، وثلاثة إشكالات في أطروحة تطور العلم Scientific Progress.

ثم إن المنطقية الوضعية لا تنفي إمكان المعرفة خارج الإطار الذي يوفره العلم التجريبي، لكن لما كانت الوضعية المنطقية بطبيعتها التي يمثلها البشر العاديون، فإنها تجاوزت المسموح وصارت تقلل من شأن بقية المعارف نظرًا لطبيعة دعاتها في محاولة اختزال غيرها من أدلة وطرق للمعرفة.

فالمنهج العلمي المنطقي الوضعي يفتقر إلى ضابط جامع ينفي عن الفرضيات التي تقود العلم الطبيعي خلل الاضطراب وآفة الاعتباط في قبول أو رفض النظريات. وبحد تعبير

ماكسويل نفسه، المنهج التجريبي يروم النزاهة إلا أنه ميؤوس منه وخادع، فهو يروم مثلاً النظرية البسيطة على النظرية المعقدة وكأنه صاغ فرضية ثابتة عن العالم استقلالاً عن الدليل، وهذا يعني خرق المنهج التجريبي ذاته، بل إن المنهج التجريبي بهذه الصياغة حين يتعامل مع نظرية معقدة فإنه يقوم على ما يكره.

والمدهش حقًا أن المنهج التجريبي لا يعترف بأية فرضية تستعصي أو تمتنع على الدليل، لكنه هو ذاته قائم على فرضيات من هذا القبيل، فلا يقوم المنهج التجريبي إلا على:

١- افتراض أن هناك في الخارج توجد أشياء مستقلة عنا تُسمى حقائق.

٢- أن هذه الحقائق تستحق اهتمامنا.

٣- أن هناك شيء يميز فهمنا لتلك الحقائق.

يقول الفيزيائي روبرت لالفين: "علماء الفيزياء يقومون على فرضية مسبقة أن العالم دقيق ومنظم، وأن أي فشل للعلم في تعزيز هذه الرؤية هو قلة إدراك بسبب عدم الدقة في إجراء القياسات الكافية".[1]

وعالم الفيزياء الشهير بول ديفيز Paul Davis يُسلم بمعقولية الكون قبل البدء بممارسة العلم كحقيقة خارجة مستقلة وتتيح نفسها للفهم بنفس المقدار. لا يمكن تصور قيام علم تجريبي من دون إيمان مسبق بهذه الفرضيات السابقة، وكأن هذه الفرضيات في حكم القبلية البديهية A-Priori التي لا يقوم علم تجريبي بدونها.

ثم قل لي: هل علوم مثل "علم النفس، اللسانيات، الاجتماع" هل تدخل في نطاق العلم الطبيعي أو العلم الزائف؟ إن التمييز الحاد مستحيل وغير منضبط، وفي مثالنا هذا ينهار. وحينها يصبح تخلف التناسب Incommensurability بين ما هو علمي وما هو غير علمي حقيقة، ويصبح من الصعب تمحيص إحدى النظريتين في ضوء نظرية أُخرى.

وينص مبدأ التناسب Commensurability أنه إذا كان لدينا نظريتان علميتان متعارضتان وتعذر الترجيح ساعتها لا يعمل مبدأ التناسب ويتوقف، وهل تخرج النظريتان خارج إطار العلم؟ على خلاف بين العلماء؛ يقول فيلسوف العلوم فيرابند: "لا يوجد شيء اسمه نظرية علمية

---

[1] روبرت ب. لافلين، "كون متميز : إعادة ابتكار الفيزياء من أساسها"، ترجمة: عزت عامر، المركز القومي للترجمة، ص٣٦.

للعالم، وهذا لا يمنع أن هناك أشياء نتعلمها من العلم، ولكن أيضًا نحن نتعلم من الدين وبقايا الفلسفات القديمة، لا يوجد مبدأ أو مجال موحد موضوعي يصرفنا بعيدًا عن متجر الدين".[١]

بل إن العلم الطبيعي بأشخاصه وأدواته ومناهجه وغاياته ومؤسساته صار يمارس استبدادًا فظيعًا، خاصةً عندما يدعي احتكاره لسلطة التمييز بين ما هو مشروع وممنوع في حق المعرفة، ولذا افتتح فيرابند كتابه Against Method بدعوى أن الأصل في العلم الطبيعي أنه فوضوي وغير منضبط بأصل، فلا وجود للنظرة العلمية كنموذج Paradigm متماسك كامل في ذاته، منضبط تفسيريًا ووظيفيًا، بل تخومه كما فصلنا تتداخل بشدة مع تخوم العلم الزائف واللاعلم.

- تشظي المعرفة التجريبية

جُل العلم الطبيعي مركب من أوضاع معرفية مكتسبة ومتغيرة، فهو ليس كتلة معرفية صلدة موحدة Monolithic، بل هو يعاني من انقسامات وتعتريه انشطارات، وتنتابه أزمات وينطوي على ثغرات متعددة، سواء على مستوى المنهج أو على الممارسة الفعلية لآحاد المؤسسات العلمية أو على مستوى النظريات أو على مستوى تطوره من منظور تاريخي، من هذا المنطلق يمكن أن يحدث التعارض بين الوضع المعرفي المنتمي للعلم الطبيعي والوضع المعرفي المنتمي لبقية العلوم، ولذا قفزت المدرسة الظاهراتية التي تحدثنا عنها في بداية المقال لانتشال الخبرة البشرية من براثن العلم الطبيعي، حتى تتم إعادة الاعتبار للمنطلق الأخلاقي والخبرة البشرية والوجدان والفطرة.

يقول عالم الأحياء التطوري الشهير هنري جي Henri Gee وأحد كبار المحررين في مجلة Nature الشهيرة يقول: "من الأخطاء التي يقع فيها الناس، وأنا أضع العلماء والصحفيين ضمن كلمة ناس لأنني هكذا أكون مُحسنًا، من الأخطاء التي يقعون فيها اعتقادهم أن العلم الطبيعي كله معنيّ باكتشاف الحق، بل يذهب العالم الملحد ديفيد سلون David Sloan إلى أبعد من هذا فيصف العلم بأنه دين يجعل مطلبه إلهًا، ولكن العلم ليس شيئًا من هذا القبيل، والوصول للحقائق مفهوم يُفضل تركه لعلماء اللاهوت والفلاسفة، فمن الأفضل النظر إلى العلم ليس على أنه دين وإنما على أنه عملية عقلية، ليس هدفها البحث عن الحق، وإنما هدفها قياس كمية الشك".[٢]

---

[1] Paul Feyerabend, "Against Method", Verso; Fourth Edition (May 11, 2010), P.261.
[2] Gee, H. (2012) "Different Kinds Of Truth", The Guardian, Friday 31 August 2012.

ويقرر الملحد ديفيد سلون أن الإلحاد أيضًا تحول إلى دين ويرى أن المرء العاقل "سيكون مُغفلاً إذا ما افترض أن الإلحاد يكافئ العقل الخالص لمجرد أنه لا يستدعي الإيمان بأية آلهة".[1]

نعود للعلم -موضوع المقال- ونقول: العلم يؤدلَج ويؤدلِج لأنه يرتبط بأشخاص، وليس مرتبطًا بمُثل أفلاطونية، والعلم أسير المرحلة واللحظة التي تهيمن على سياقه التاريخي، وبالتالي أوضاعه المعرفية عرضة للإخفاق والظن والمغالطات والتخمينات والأساطير والخرافات، ما يداني القدر الذي نقموا جنسه على أنواع الملل والديانات.

يُحكى أن سيجموند فرويد بعث رسالة خاصة إلى أينشتاين يسأله فيها عما إذا كان يمكن للنظريات العلمية أن تُصبح أساطير من حيث لا نشعر؟! ويعلق الفيلسوف الموسوعي إدغار موران على هذه الحادثة بقوله: "هذا التساؤل يستحق أن يُطرح، صحيح النظريات العلمية في سمائها المفتوحة والدنيوية هي الطرف النقيض للأُسطورة، ولكن في نواتها منطقة معتمة تستطيع أن تحوي خميرة تحول الفكرة التي أصبحت سائدة إلى أُسطورة، وهكذا أصبحت أفكار غاليليو ولابلاس ونيوتن عن النظام الرياضي للعالم أساطير".[2]

لكن المُربك حقًا أنه لو تحولت الأصول العلمية إلى أساطير فإن وعي الكثيرين لن يستوعب ذلك، وستتعرض الأفكار الجديدة لمحاربات من قِبل المجتمع العلمي. مثلا: نموذج بطليموس ظل قرونًا طويلة سائدًا، وكلما اتسعت الاكتشافات يتم تكييف التفاصيل حتى تنضبط مع النموذج المعياري المهيمن لبطليموس -الأرض مركز الكون-، ويمكن في أيّة لحظة أن تعود النظرية للثبوتية، فليس بمقدورنا أن نتيقن من هذا أو خلافه إلا برصد الظاهرة في علاقتها بالنظام برمته وهو متعذر.

المهم أن للعلم دجاجلته كما للوثنيات كهنتها؛ فبين وَهْمِ الفلوجستون Phlogiston وكذبة البلتداون Piltdown وأحجية البانسبرميا Panspermia وتزييف أرنست هيكل Ernest Haeckel وشطحة تيكتاليك Tiktaalik وتخرصات لورانس كرواس، بين كل هذا يقبع العلم معترفًا بوجود كهنة مكرة في كنيسته يروجون ويكرزون للسخافة بلا وعي.

---

[1] Sloan, D. (2012) "Atheism As A Stealth Religion" ; Hoffpost, Posted 12/14/07.

[2] إدغار موران، "المنهج: الأفكار: مقامها، حياتها، عاداتها وتنظيمها"، ترجمة د. جمال شحيّد، المنظمة العربية للترجمة، ص٢١٣.

يقول كارل بوبر علميًا: "أبدًا لن نتيقن تمامًا من أننا لم نقع في الخطأ، وهذا يعني أننا لن نتأكد تمامًا أننا لم نخطئ حتى لو اتخذنا أقصى قدر من الحذر".[١] ويقول الفيلسوف نورمان كامبل: "العلم درس فكري خالص، غايته تلبية حاجة العقل لا حاجة البدن، إنه لا يروق لشيء كما يروق للفضول النزيه للإنسان".[٢]

فهنا كامبل يستبعد مسائل كالأخلاق والقيمة عن العلم وهو الحق الذي لا مرية فيه. والعلم هو مجرد خبرة مجتزأة من الخبرة الإنسانية، لا يجوز أن يخرج على هذا السياق ولا أن يتضخم.

يقول نورمان كامبل: "يستحق رجال العلم الطبيعي القدر الأكبر من اللوم إزاء التخليط الذي نعترض عليه، لقد اعتادوا إلى حدٍ بعيد فرض استنتاجاتهم على مجتمع العوام والمترددين، إلى درجة أنهم مُعرَّضون لتخطي حدود ميدانهم الخاص، إنهم ينسون أحيانًا أنهم لم يعودوا خبراء فور مغادرتهم لمختبراتهم، وأنهم فيما يتعلق بالأسئلة الأجنبية على العلم لا يستحقون أن يحظوا باهتمام يفوق ذلك القدر الذي يستحقه غيرهم".[٣]

إن التداعيات التي خلفها المنهج ما بعد البنائي Post-Structuralism على التصور المألوف للعلم والدرس الذي أعطاه لدعاة موضوعية العلم التجريبي لن يُنسى، فقد أكد المنهج ما بعد البنائي أن العلم يمتنع عليه سمة التفرد التي يدعيها في تحصيل المعرفة، فالعلم يقوم على فرضيات منهجية ووظيفية ودلائلية ونطاقية، بحيث تجعل هذه الفرضيات من العلم شبحي المُعطى لا يحق له الاستبداد Tyranny بالمعطى المعرفي، أو ممارسة أيّة صورة من صور القوة، فيصدق عليه أنه مروية Arbitrary Narrative كسائر المرويات التي يؤلفها الإنسان عبر الأزمان.[٤]

ويتكئ كل مُنظري العلم الطبيعي على النجاحات المحلية Parochial التي حققها العلم في نطاق وجودي محدود Limited Ontological Sphere، مما يجعل من اعتقادهم بموضوعية العلم مجرد دوغما واهمة، من أجل ذلك نادى جورج كونجليم Georges Canguilhem فيلسوف البيولوجيا الفرنسي إلى ضرورة إدخال مفردة "أيديولوجيا العلم" إلى معاجمنا.[٥]

---

[١] كارل بوبر، "بحثًا عن عالم أفضل"، ترجمة: د. أحمد المستجير، ص١٤-١٥.

[2] Norman Campbell, "What Is Science?", Kessinger Publishing, LLC (November 3, 2007), P.1.

[3] Ibid, P.163.

[4] George Lakoff And Mark Johnson, "Philosophy In The Flesh", Basic Books (October 8, 1999) P.467.

[5] Ibid, P.44.

فالعلم لا يُغطي إلا جانبًا ضيقًا جدًا من حقل المعرفة، وهو ليس موضوعي وإنما ذاتي، يخضع للرؤية البشرية وتحلله القدرة البشرية، فعلى العلم أن يُنشئ ممارسته الخاصة وطريقة تواصله الخاصة ومجتمعَه الخاص وجماعته الخاصة، لا أن يحتكر جميع الأوضاع المعرفية، ثم يدعي الموضوعية، بل ويصم غيره بالحدسية غير المنضبطة وغير المعرفية، لذا فمطلب الألفية الثالثة هو عزل العلم عن الدولة.

فالخبرة العلمية قاصرة بقصور الإنسان، وعاجزة عن استكناه ذاتها قبل غيرها، وغايتها الرصد وليس اختراق المرصود أو الحلول فيه لتبينه. لذا فمحاولة إصدار أحكام شمولية Universalist-Absolutist هو تصرف لا مبرر له، فمِن أين للإنسان البرهان الضروري على أن خبرته هي الأساس في فهم الأشياء؟!

لذا يعبر القرآن الكريم عن هذا الشعور الوهمي بقدرة الخبرة البشرية على إعطاء أحكام مطلقة، يعبر عنه بلفظ السلطان Authority ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ﴾[1]، فهذا التخويل المقترن بذلك السلطان يُمنح من سلطان يتجاوزنا، وليس شيئًا نمتلكه ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾[2]، فمجموع قيم هذا العالم لا تجد معناها إلا خارج هذا العالم لا داخله، لأنها في ذواتها أشياء اتفاقية غير مقصودة، والاتفاقي لا يبرر ذاته بذاته.

إذًا اتفقنا على أن أحد أُسس الإلحاد الغربي تقوم على أن العقلانية لا ينتجها إلا العلم، وهذه كما قرّرنا مصادرة أو شطب على الأنماط الممكنة للعقل التي لا تنزل على شروط العقل الغربي، ولا تنزل على طرائقه ومنهجيته، بل إن مدارس ما بعد الحداثة التي نشأت في الغرب خاصّة بعد ظهور فلسفة اللايقين بشقها العلمي -مبدأ عدم اليقين لهايزنبرج-، ساهمت في الاعتراف بقصور قدرات العلم على معرفة الأسئلة الكلية والأكثر شغلا للذهن البشري، ولعل هذا يفسر اتجاه فيزيائيين كبار أمثال ديفيد بوم David Bohm -رفيق اينشتاين-، وفلاسفة كبار أمثال كن والبر، وملاحدة كبار أمثال سام هاريس؛ نحو فلسفات شرقية للبحث عن أجوبة.

بل إن واقع البنية المعرفية للعلم الطبيعي أثبت أن لها قدرة ذاتية فائقة على تغريب الإنسان، وبؤسه العقلي، وإبعاده عن يقينيات العالم الموضوعي؛ فظهر السجن الحديدي عند زيميل،

---

[1] سورة غافر: ٣٥.

[2] سورة الروم: ٣٥.

والقفص الحديدي عند ماكس فيبر، والإنسان ذو البُعد الواحد عند ماركوز، وتمّ تفكيك الإنسان وظهرت فلسفات الاغتراب والعدمية والعبثية.

ولذا لما سأل دير شبيجل هايدجر عما إذا كان في مقدرة الإنسان الوصول للأفضل والأكمل عبر مساعيه وأبحاثه قال: "الله فقط يمكن أن ينقذنا".[١] فكل ما حققه العلم الطبيعي هو في الخارج المادي الجاف البارد، في حين يُبدي عجز تام وصمت مُطبق إزاء حاجات النفس وسؤالات الذات، بل إنه يُلحق الضرر بطريقة غير مقصودة بالنفس حين يقوم بتحليلها أو محاولة الاقتراب منها. ولذا لم يكن غريبًا أن يُطلق شرودينجر -أبو ميكانيكا الكم- تصريحه العجيب؛ حين اعتبر أن العلم التجريبي عندما يتحدث عن القيمة الأخلاقية أو القيمة الجمالية فهو مُهرِج، نستمع له لنضحك لا لنأخذ كلامه على محمل الجد.[٢]

ومع كل هذا يظل نفس العناد يتأصّل عند المؤمنين بسلطان العلم الطبيعي، فالدليل الظنيّ العلمي -مهما ضعفت دلالته- مُقدم على الدليل القطعي الديني؛ حتى لو كان قطعي الثبوت والدلالة، وهذا تجرؤ آخر على وظيفة عقلية وبدهيّة أخرى تؤمِّن مسلكًا صحيحًا لتلقي العلم الضروري.

وما لا يعرفه الملحد أن مسالك العقل التي رضيت بالدليل الحسي التجريبي، هي نفسها التي رضيت بطرائقية ومنهجية النقل الديني، فمصدر المعرفة في العلم التجريبي الوضعي هو العمل العقلي في مُدخلات الحس والمشاهدة والتجريب، وفي واقع الأمر رفض الملحد للمنهجية الدينية وتشكيكه في النص الديني في حال ثبوته بأدلة وثوقية عالية -درجات الإسناد في نقل الخبر النبوي مثلا- فإن الملحد في هذه الحال معاند لا أكثر، لأنه يقبل النصَّ التاريخيَّ ذا الدرجات الوثوقية الأدنى بكثير من النص الديني، مادام مصدر النص التاريخي خارج التأريخ الديني ولا يدعمه، وهذا تعنت غير مقبول، بل إنَّ الملحدَ يقبلُ النصَّ التاريخي بنفس درجات الاستقراء وأدوات الثبوتية التي يقوم عليها المحدثون -نقلة الحديث الشريف- في حال مناقشته لشبهة من شبهات الدين، في المقابل يرفض نصوصًا أعلى وثوقية تُثبت المعجزة، إنه كما قلنا تحكم لا أكثر.

---

[1], Heidegger, The Man And The Thinker, Transaction Publishers, Only God Can Save Us, P.45.

[٢] شرودنجر، "الطبيعة والإغريق"، ترجمة: عزت قرني، دار النهضة العربية ١٩٦٢.

نعود مرةً أخرى لحدود العلم الطبيعي، لنقرر أن العلم التجريبي الرصدي غايته الأساسية: تحليل الظواهر بغية تفسيرها، وإلا فهو لن يعطي معنى ولا تحليل للقيمة ولا الحس الجمالي ولا الحس الأخلاقي، يقول الملحد الداروني المتعصب ريتشارد دوكينز: "أنا ضد الداروينية ولا أطيقها حين يتعلق الأمر بحياتنا".[1]

وللإنسان أن يتساءل: إذا كنّا أبناء الطبيعة الخُلّص فكيف نتمرد على الطبيعة التي نشأنا منها، ولا نقبل بقوانينها؟

ستبقى للعلم الطبيعي حدوده التي لا يتجاوزها، ويبقى للإنسان مجاله الرحب الذي يمارس فيه قيمه ومبادئه، ولا ينتظر الإنسان من العلم أن يعطي رأيًا في إنسانيته من حيث هو إنسان.

إذًا العلم ذاتيّ نسبويّ، وله حدوده مهما غرق الحالمون في التوقعات. لكن لماذا لا نكون أكثر انفتاحًا وأملًا؛ وننتظر من العلم في العصور القادمة ما لم يُتحه لنا في عصرنا؟

في الحقيقة جاءت نتائج ميكانيكا الكم لتحول هذا الحلم إلى هشيم تذروه الرياح؛ ففي عام ١٩٢٧م وضع عالِم الفيزياء الألماني فيرنر هايزنبرج Werner Heisenberg مبدأ عدم اليقين أو مبدأ الريبة Uncertainty Principle، وهو مبدأ فيزيائي من المبادئ التي تحكم الكون، ويُعَد أحد أهم أُسس الفيزياء الحديثة.

يَنُص مبدأ عدم اليقين على أنه: "يستحيل تحديد موقع وسُرعة الإلكترون في وقتٍ واحد "فنحن ممنوعون من معرفة موقع وسُرعة الجسيم في آنٍ واحد، وليس لنا أنْ نختار إلا نِصف الحقيقة، إما السُرعة أو الموقع، أما الحقيقة الكاملة فنحن ممنوعون من معرفتها".

يُعَدُّ مبدأ عدم اليقين قانونا صارما من قوانين الطبيعة، ولا يرتبط بأيِّ شكل من الأشكال بعض القصور الموجود في أجهزتنا، أو بقدراتنا على الرصد، بل هو قانون كوني، وطِبقاً للقانون لا يمكن تحديد خاصيتين مُقاسَتين من خواص جملة كمومية Quanta، إلا ضمن حدود مُعينة من الدِقة، أي أن تحديد أحد الخاصيّتين يستتبع عدم تأكد كبير في قياس الخاصية الأخرى، وبالتالي هو مبدأ يُعلِّمنا أنه ليس في وسع الإنسان إلا المعرفة الجُزئية، أما المعرفة الكُلية فهذه حكمة لم يُسمح لنا أن نطلّع عليها.

---

[1] اللقاء الذي أجرته قناة الجزيرة الإنجليزية مع ريتشارد دوكينز، دقيقة ٤٢.

ولذا فهذا المبدأ من أعظم المبادئ أثراً في تاريخ العلم الحديث، حيث إنه يضع حدًا لقُدرة الإنسان على قياس الأشياء، وكان لهذا المبدأ تأثيرٌ فلسفيٌّ عميقُ الأثر على العقل العِلمي، يقول الفيزيائي النمساوي شرودينجر Schrödinger: "لقد تم الحصول على صورة معتدلة لهذا العالم، بتكاليف باهظة، ولم يحدث هذا إلا بعد أن انتزعنا أنفسنا خارج الصورة، وتراجعنا إلى موقع المراقبين الذين لا مصلحة لهم".[1]

وبالتالي فالفيزياء التجريبية أكّدت لنا وجود حُدود مُحرَّمة على العلم، كما أثبتت الرياضيات نفسَ الأمرِ فيما يُعرف بمبرهنة جودل Gödel Incompleteness Theorem، وتنُص مبرهنة جودل على أنه: "ما من نظام رياضي متناسق إلا ويحوي عبارة رياضية واحدة على الأقل صحيحة، ولكن لا يمكن برهنة صِحتها بدءً من مُسلمات النظام الرياضي".

وعلى هذا؛ فحَسَب مُبرهنة جودل لا يوجد نظامٌ رياضي كامل، وقد أربكَ هذا مَن يجعلون الحقيقة حِكرًا على ما يُقاس في المعمل أو ما يُستنتج رياضيا، فالتجريدُ الرياضيُّ –مع أنه أكثر العلوم البشرية إتقانًا ونظامًا– لم يَعُدْ نظاما مُغلقا، ولم يبق في الإمكان البرهنة عليه من داخله.

إذًا العلم لا يقبل أن يكون الحَكمَ الأخيرَ على القضية الكُلية في الوجود، لأنه بذلك يكون مثل لابس ثوبي زور، وكالمُتلبس بما لم يُعطَ، والذي يتطلَّب من العلم أن يُجيب عن الأسئلة الكُلية في الوجود يكون قد قرَّر مُسبقًا أن يقف في صدام مع العقل والعلم معًا. غاية ما نصبو إليه هو مجرد معرفة نصف حقيقة ما حولنا –طبقًا لقيود مبدأ عدم اليقين الذي يحرمنا من نصف الحقيقة الآخر– وليس حقيقتنا نحن، ثم إن هذا النصف مُدنس بالذاتية والنسبية.

ولم تمر على الجنس البشري إلا عقود قليلة بعد صدمة مبدأ عدم اليقين، حتى ظهرت في ستينيات القرن الماضي نظرية جديدة، تدمر كل ما بقي لنا من أمل في تحصيل معرفة موضوعية متكاملة عن هذا النصف من العالم الخارجي، إنها نظرية تأثير الفراشة..

---

(1) [illegible] "الإحساس بالأمل، المقدرة [illegible] الكنية"، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص ٢٠٢.

تأثير الفراشة

إنها نظرية لا تُشبه أية نظرية أخرى قرأتَ عنها، إنها الصيغة المدهشة لكوننا والضربة الأقوى القائلين بالحتمية؛ إنها تأثير الفراشة أو نظرية الفوضى أو الشواش أو الكايوس Chaos. ونظرية تأثير الفراشة Butterfly Effect تعني أن رفة جناح فراشة فوق أحد سهول سيبريا قد تؤدي إلى أعاصير مدمرة بأمريكا؛ فتغيرات أولية طفيفة تقلب النتائج رأسًا على عقب.[1]

قد يبدو الأمر مبالغًا فيه، ولكنّه منطقي وعلمي؛ فأحداث صغيرة من شأنها أنْ تنتج كوارثَ كبيرةً غير متوقعة. تبدأ نظرية تأثير الفراشة من الحدود التي يتوقف عندها العلم التقليدي ويعجز، فمنذ شرع العلم في حل ألغاز الكون، عانى دومًا من اللامُتوقع والمفاجآت التي تقلب الطاولة، وفي سبعينيات القرن الماضي تألفت كوكبة من علماء الفيزياء والرياضيات والأحياء والكيمياء ووضعت نصبَ أعينها تحليلَ مُعطيات نظرية تأثير الفراشة، وكانت النتيجة أن اللامتوقع هو مبدأ كوني، وأصبحت نظرية الكايوس Chaos هي الثورة العلمية الثالثة الكبرى في القرن العشرين -بعد ثورتي النظرية النسبية والنظرية الكمومية Quantum Mechanics-.[2]

ومنذ بدايات القرن العشرين لاحظ فيزيائيو الكوانتم أن فهم قوانين الطبيعة عبر فيزياء الجسيمات لا يحمل الإجابة الكاملة لتصرفات تلك الجسيمات، وتجلت ضرورة ظهور علم جديد لسد الثغرة بين الحسابات والنتائج، فكان الكايوس Chaos الذي راج أولًا في أوساط خبراء الطقس عبر جملة (أثر جناح الفراشة).

وكان عالم المناخ إدوارد لورينز Edward Lorenz من أوائل الذين اشتغلوا على هذه النظرية، بدء من عام ١٩٦٢م، عبر استنتاجاته لأحوال الطقس التي تحمل نكهة اللاتوقع باستمرار بما تعجز عن ضبطه لغة الإحصاءات والحسابات. وكان لورينز يظن في البداية أن كل شيء حوله يدور بحتمية نيوتينية The Inevitability Of Newton؛ والحتمية النيوتينية هي ذلك التصور الكوني الذي يقتضي أنه يكفي فهم القوانين لاستيعاب العالم، فالعالم طبقًا لهذا المفهوم يسير على طريق مرسوم بدقة، وهو ما يُسمى أيضًا بحتمية لابلاس The Inevitability Of Laplace، وبدا أن هذا التصور الحتمي للوجود مجرد وهم لا أكثر، فطبقًا للنظرية الجديدة يمكن أن ينشط بركان في نجم بإحدى المجرات، بسبب حركة كرة بلياردو في إحدى صالات

(1) Butterfly Effect, Wikipedia.

(٢) جايمس غليك، "نظرية الفوضى؛ علم اللامتوقع"، ترجمة: أحمد مغربي، دار الساقي لبنان ص١٩.

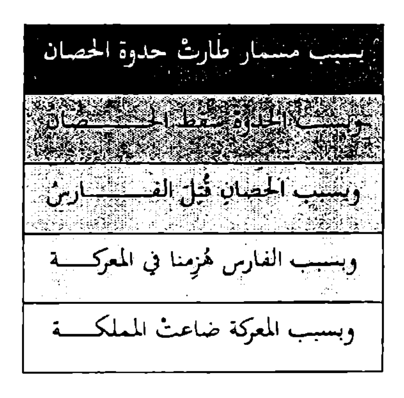
اللعب! هكذا أصبحت الدقة التقريبية التي يقوم عليها العلم الحديث يمكن أن تنهار في أيّة لحظة.

إن سقوط ورقة شجر يُفترض ألا يؤدي إلى عواصف وأعاصير في دولة أُخرى، لكن تحـ نظام المعادلات على حاسوب الطقس الذي اخترعه إدوارد لورينز أثبتت أن سقوط ورقة الشجر يمكن أن تؤدي إلى نتائج كارثية، وأحس لورينز بفرحة عارمة لهذه المعطيات؛ **لأن** شيئًا ما خرج عن التفكير النمطي وفلسفته، وهذا يعني ميلاد نظرية جديدة. وبالفعل كانت هذه النظرية هي الفوضى أو الشواش.[١]

إنّ أقلّ متغيّر أوليّ كان يضيفه لورينز على برنامج الطقس في حاسوبه. يؤدي إلى فيضانات في الصحراء وأعاصير في قلب عواصم العالم. وهكذا أدرك لورينز أن العالم أمام ثورة جديدة

وفي الواقع فإن حسابات هنري بوانكريه Henri Poincaré –آخر عمالقة علم الرياضيات ممن يستطيعون صوغ خيال هندسي عن قوانين الحركة في الفيزياء– تنبأت بظهور نظرية الفوضى؛ حيث تضمنت كتاباته إشارات كثيرة إلى استحالة التنبؤ على المدى الطويل بالنسبة لنظم تغيرات المعطيات الأولية.[٢]

تَعْبُرُ (نظرية الفوضى) الاختصاصات العلمية، وصولًا إلى تحليل الظواهر الاجتماعية نفسها، فلا تقتصر على التأثير المادي المجرد على الظواهر الطبيعية أو الكونية، بل تمتد للحياة العادية للإنسان، ويمكن تقصي فكرة تأثير الفراشة من أغنية شعبية أمريكية تقول:



(١) المصدر السابق ص٣٢.

(2) "Chaos Theory" At Polytechnic School, Last Accessed 10/10/2014, Http://Home.Earthlink.Net/~Srrobin/Chaos.Html.

فالاعتماد الحسّاس على الأوضاع الأولية يقلب كل شيء بعد ذلك، ويمكن تقريب المسألة على واقعنا الاجتماعي بالأمثلة التالية:

- محمد البوعزيزي يقوم بإحراق نفسه في تونس -مثال على رفة جناح الفراشة-، بعدها ثورات تكتسح البلاد العربية وسقوط آلاف القتلى والجرحى -مثال على إعصار في منطقة أخرى من العالم-.

- مقتل ولي عهد النمسا في سراييفو، بعدها بشهور قيام الحرب العالمية الأولى ومقتل ٢% من سكان العالم.

- مشكلة في فرامل أحدث موديلات المرسيدس، بعدها بشهور انهيار الاقتصاد العالمي وتشريد عشرات الملايين.

لم يعد تأثير الفراشة قاصرًا على الحقل العلمي، بل تجاوز ذلك إلى تحليل الكثير من الظواهر الاجتماعية والسياسية، وصارت هذه النظرية من أكبر قضايا العلم الحديث، وكُتبت فيها آلاف الكتب، وتُعيد الآن صياغة رؤيتنا للوجود بأسره.

قد يظن البعض أن تأثير الفراشة هو مجرد تغيرات أوليّة في المعطيات تؤدي إلى تغير في النتائج، وهذا تصور سطحي في فهم النظرية؛ لأنّ تلك الصياغة معروفة منذ زمن نيوتن فيما يعرف بالمدار الثالث متعذر التنبؤ.[1] فعلميًا التنبؤ بالمتغير الأولي قبل وقوعه بعيد، ورصده بعد الوقوع صعب، وفي حال الرصد من المستحيل التنبؤ بالنتائج المترتبة على هذا المتغير، هذا هو الشواش، فالقضية لم تعد رصدية ولم يعد الكون نيوتينيًا.

إذًا نظرية الفوضى ليست فجوة معرفية أو قصورًا علميًا كما قد يتبادر إلى الذهن، وإنما هي أصل أصيل من معطيات عالمنا وطبيعته، فمعرفة النتائج حتمية الحدوث، واليقين المعرفي، والتسليم للمعطيات، والرصد الكلي؛ كلّ هذه الأمور أصبحت أوهامًا.

لقد قال تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾[2]، فسقوط ورقة شجر قد يُسقط مملكة ويُنهي حضارة، لذا لابد من ضبط كليّ خارجيّ وإلا انهار كل شيء قبل أن يبدأ، فالمدبّر والفاعل الأوحد والمهيمن على كل

---

[1] Newton's Theorem Of Revolving Orbits - Wikipedia.

[2] سورة الأنعام: ٥٩.

شيء وعلى كل التوقعات هو الله، وقرارك الذي تتخذه يُغير كل شيء في الوجود، وهكذا يُعاد تشكيل المصائر والنتائج وكل شيء حولك في كل لحظة طبقًا لقرار أنت تتخذه أو قيمة تُقدمها لهذا العالم أو خطأ ترتكبه، والله وحده هو المهيمن وهو ضابط الكل وهو القيوم على السماوات والأرض وهو الذي يمسك السماوات والارض أن تزولا، لأنّ زوالهما احتمال شواشي كاوسي قائم في كل لحظة.

وهكذا أصبح الإنسان ممزقًا في عالم لن يحصل فيه على الحقيقة يومًا ما، فرجع إلى نفسه ليستكشف داخلها حقيقته الكلية، ويستسلم لمجالات العقل الرحبة؛ التي تقبل الحسّ الأخلاقيّ والجماليّ، وتقبل معطيات المعنى والقيمة والدين طالما جاءت بطرق عقلية سليمة، وهكذا يعود إنسانًا مرةً أخرى كما بدأ رحلة صراعه الأولى مع طموحه البروميثيوسي، وتطلعه لتحديد قدره بيده لا بيد خالقه.

لو كنّا أبناء هذا العالم الخُلص لما شعرنا بالمعاناة ولا الاغتراب ولا كان لهذه الكلمات معنى، لو كنّا أبناء هذا العالم لما بدا فيه شيء نجس أو طاهر، إن وجودنا يستمد معناه من عالم آخر، إننا دخلنا هذا العالم برأس مال قيمي معرفي أخلاقي مبدئي هائل، وليس في هذا العالم ما يحلل شيئًا من ذلك، ولا يبرر شيئًا من ذلك، إننا أبناء عالم آخر نقتبس منه المعنى والقيمة والهدف والغاية، ونرد إليه مطلقاتنا التي نؤمن بها ولا نجد لها صدى في عالمنا الخارجي، إن معنى الإنسان الحقيقي لا وجود له في هذا العالم، ولا معنى له إلا بمقدمة سماوية. هذا هو التنظير الأخير لظاهرة وجودنا، إن الإحالة إلى الماوراء هي مصدر اقتباس وتحليل وتعريف الوجود الإنساني كله.

لماذا العودة إلى الإيمان؟

لقد أسَّسَ القرآن الكريم لقاعدة، وشدَّدَ عليها في أكثر من موضع، قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾.[1] فالأصل في المُنْكِر عدمِ الرؤية، إنّه -جلّ وعلا- لم ينفِ عنه وجودَ الآلة، لكنّه نفى عنه الانتفاع بها، مع كلّ ما يأتيه من دلائل وبراهين؛ ذاك أنّه وضع نفسه أسيرًا لضلالاته.

ولن يستطيع الإنسان التأسيس للمعنى ولا التأسيس للقيمة إلا من خلال الإيمان، ولن يستطيع تحرير إجابة عن الأسئلة الوجودية الكبرى، أسئلة النشأة والغاية والمعنى والقيمة وكل أسئلة "لماذا؟". لن يستطيع تحرير جوابٍ لها؛ وستظل أجوبتها حِكرًا على الإيمان. فضلا عن أن الإنسان لن يتجاوز بكل علومه ومعارفه وفلسفاته الإجابة على أسئلة "كيف؟"!

والقارئ في الشأن الإلحادي يعلم أن غاية الإلحاد هي إخراس تلك الأسئلة الوجودية، بل ووصمها مرة بالتافهة -كما فعل ريتشارد دوكينز Richard Dawkins حين سُئل في إحدى الحوارات- ومرة بأنها ليست ذات معنى، ولا ندري كيف لأهم الأسئلة في الوجود الإنساني أن توصف بالتفاهة أو اللاجدوى، هل لأنَّ الإلحاد لم يستطع الإجابة عليها؟

وتتوالى المحاولات لإسكات الأسئلة الكبرى، لكن دون إجابة تُشبع إنسانًا يعلم أنه وُلد ليموت! ولا تُقدم حلاً، بل هي برهان آكدٌ وحُجة سامقة على أن كل بعيد عن الإيمان هو أعمى، غير مبصر لحقيقة وجوده أو معناه أو قيمته، ولا يعرف عن أصل وجوده شيئا.

إنَّ أصلَ النورِ هبة إلهية تقترن بالإيمان، ولن تستطيع كل فلسفات العالم أن تقتبس من هذا النور سوى بالتجرد والإيمان، كوجيتو ديكارت Cogito Descartes "أنا أُفكر" انهار على يد ديفيد هيوم David Hume، والحداثة التي أسس لها كانط Immanuel Kant ذابت على أعتاب ما بعد الحداثة، ولم يعد ثمة إمكان إبستمولوجي -معرفي- لتأسيس الوعي الفلسفي للوجود خارج الدين.[2]

فالعودةِ إلى الإيمان شرط أصيل لضمان المعنى، والحقيقة التي ينبغي التسليم بها؛ أنه لا وجود في الخارج المادي المستقل للغاية والقيمة والمعنى، ولا يمكن ضبط هذه الأمور بدون

---

[1] سورة الرعد: ١٩.

[2] د. الطيب بوعزة، "في دلالة الفلسفة وسؤال النشأة"، مركز نماء للبحوث والدراسات، ص١٩.

إيمان، فالعودة إلى الإيمان هو شرط فكري وعقلي ومبررها هو المعطى المادي نفسه، ففي الوجود المادي الخارجي كل شيء يسير وفقًا لقوانين مادية عرضية حادثة غير مكتفيه بذاتها، لذا كانت الإحالة إلى الماوراء من مقتضيات تبصر وتفحص العالم المادي ذاته.

من أجل ذلك كله، كانت العودة إلى الإيمان هي شرط استيعاب معنى الإنسان وتحليل ظاهرة وجوده، والتأسيس لقيمته وأخلاقياته ومبادئه وغاية كل عملٍ يعمله، فالعودة إلى الإيمان تملك الإجابة الوحيدة لكل أسئلة لماذا، وكل أسئلة المعنى، وداخلها يجد الإنسان ذاته، أما خارجها فلا يجد إلا مجموعة من الذرات المتلاحمة بلا معنى، التي تتحرك بلا غاية، وترتطم بلا هدف. فالعماء الكامل يصم حالة عدم الإيمان والذين لا يملكون نورًا لن يستطيعوا أن يوجدوه ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُورٍ﴾.[1]

فإن كان السؤال: لماذا جعل الله النور قرينًا بالإيمان، والعمى قرينًا بتركه؟

كان الجواب: أن الإيمان هو غاية الوجود، حقيقته، ومعناه.

- ولماذا الإسلام وليس غيره؟

الإسلام ليس فِرقة من الفِرق ولا عقيدة من بين عقائد الأرض، حتى يوضع في مجال مُقارنة مع باقي الديانات، بل هو أصل الأديان والعقائد والعبادات، وأنقى أديان التوحيد. إنّه تصحيح لمسار الديانات التي انحرفت، وإعادة لنهج أنبياء العهد القديم من لدن آدم إلى نوح وصالح وأيوب وهود وإبراهيم وموسى وعيسى..، فعقيدة هؤلاء جميعًا هي عقيدة "الرب إلهنا، ربٌّ واحدٌ" بلفظ التوراة[2] والإنجيل[3]، هذه العقيدة التي لا تعرف تثليثًا ولا أقانيم ولا موت آلهة منتحرة، ولا انبثاق آلهة من آلهة أخرى -انبثاق الروح القدس[4]-، ولا آلهة قومية، ولا إله ينسى ويفكر ويصارع ويهزم. يقول تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾[5] وقال: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا

---

[1] سورة النور: ٤٠.

[2] سفر التثنية: ٦: ٤.

[3] إنجيل مرقس: ١٢: ٢٩.

[4] قانون الإيمان – ويكيبيديا العربية.

[5] سورة الشورى: ١٣.

أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً﴾.[1]

إذًا فالإسلام ليس ديانة كباقي الديانات، إنما هو أصل الديانات جميعا، وتصحيح للخلل والعبث الذي أصابها بما كسبته أيدي المحرفين العابثين.

– ولماذا العبادة؟

العبادة هي تهذيب الغريزة وضبط النفس وانكسارها لباريها، واتباع الباري في كل ما أمر واجتناب ما نهى عنه، ولا يُصلح النفس إلا ذلك، فكما قررنا سابقًا لا يمكن التأسيس للأخلاق ولا للمعنى إلا من خلال الإيمان.

– ولماذا يقرر الله –سبحانه وتعالى– لنا طقوسًا محددة في العبادة؟

عندما قام هنري فورد Henry Ford بصناعة السيارة، وقرر كيف تعمل سيارته، ثمَّ وضع دليل استخدامها، وحدَّد الأصلح في التعامل معها، لم يعترض أحدٌ على ذلك؛ لأنه الصانع الأعلم بما صنع، فما ظنّكم بربِّ العالمين –ولله المثل الأعلى–؟!

– وهل يحتاج الله لعبادتنا؟

قال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾[2]. لكنه سبحانه يعلم أن عباده لن يصلحهم إلا عبادته، ولن تستقيم أحوالهم ومعايشهم إلا في كنف طاعته، وبقدر ابتعاد الإنسان عن الله بقدر استحلاله المحرمات، فإذا لم تكن ثمة عبادة لله فكل شيء أصبح مباحًا. وكلما ابتعد الإنسان عن الله فإنه يُقاد من بطنه وفرجه أكثر مما يُقاد من عقله وضميره، فعبادة الله صمام أمان للإنسان، والعبادة ترجع فائدتها على الإنسان فقط كما في الحديث القُدسي (يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أُوفيكم إياها فمن وجد خيرًا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه).[3]

فعبادة الله غاية وجود الإنسان، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[4]، أي لم أخلق الثقلين إلا مُهيئين لعبادتي، بما ركَّبت فيهم من العقول والحواسِّ والقُوى، فهم في حالة

---

[1] سورة النساء: ١٦٣.

[2] سورة الزمر: ٧.

[3] مسلم بن الحجاج، "صحيح مسلم"، دار إحياء التراث العربي بيروت، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، حديث رقم ٢٥٧٧.

[4] سورة الذاريات: ٥٦.

صالحة للعبادة، مُستعدة لها؛ فمن جرى على موجب استعداده وفطرته آمن بي وعبدني وحدي، ومَن عاند استعداده وفطرته واتبع هواه، سلك غير سبيل المؤمنين.[1]

- وهل يُحبُّ الله أن يُعبد؟

العبادة هي حق الله على عباده، فهل تعرف ما معنى "حق الله على عباده"؟

إن الله -عزّ وجل- هو الربُّ الخالق الملك الحق؛ الذي يستحق وحده أن يُعبد ويُشكر ويُحمد. تخيل رجلاً يسير في صحراء قاحلة ثم ظهرت فجأة مائدة فيها من أصناف المأكولات ما لا يُحصى، فأكل وشرب، وسمن جسده، ولم يشكر المُنعم عليه!، بل لم يشغل باله بمعرفة مصدر رزقه!، هل يستوي هو ومَن يعرف رازقه ويشكره على نعمه التي لا تحصى؟ ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[2] هل تستكثر أن تحمد خالقك وتشكره؟ أتترفع عن الإذعان لأمره وتدبّر آياته؟

فالله يُحب أن يعبد، ولا يرضى لعباده الكفر، ولن يَصلح الإنسان إلا عبادة خالقه

أخيرًا..

لا تجعل من جهلك مُبررًا لكفرك! لا تجعل مما لم تُحط بعلمه دليلًا على العلم! إنّ عدم معرفتك بالشيء ليس معرفة تبني عليها كفرك: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾.

لا تجعل افتراضك بديلًا عن حقيقتك، ولا ظنك غالبًا ليقينك؛ فما أكثر الافتراضات والظنون. إنه طريق يزينه الشيطان، سوقٌ وبضاعة المزجاة، وراية واحدة، فهل من رجل رشيد ينتصر على شيطانه ويستسلم لبداهة عقله ونداء فؤاده؟

﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَاء الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً﴾.[3]

---

[1] حسنين مخلوف، "صفوة البيان لمعاني القرآن"، دار الشروق، تفسير سورة الذاريات، ص٦٦٩.

[2] سورة إبراهيم: ٣٤.

[3] سورة الكهف: ٨٨.

الفهرس

الباب الثاني

ماذا يقول الملحدون؟!

الباب الثالث

العودة إلى الإيمان

في ظل المتغيرات السريعة التي تعصف بنا يومًا بعد يوم؛ يأتي هذا الكتاب. حيث يطوف بنا الباحثُ سريعًا في رحلة زادها العلم والفكر، يبدأها بالسير عبر دروب الإلحاد الوعرة، لينتهي بنا إلى المحطة الأخيرة "العودة إلى الإيمان".

وفي الطريق نجد؛ عدائية الإلحاد، أسبابه النفسية، التوظيف الإلحادي للمعطى المادي، اللاأدرية، الربوبية، تأخر ظهور الكون، السببية والخالق، هل الكفر كالإيمان؟، هل الإلحاد قوام تجربة فكرية محضة؟، هل الدين يعيق العلم؟، ما هو مصدر القيمة؟، ما هي الغاية من الوجود؟، المعايرة الدقيقة للكون، ظهور الحياة على الأرض، الإنسان والدين، انبثاق الفلسفة، والكثير من المحطات الأخرى الهامة التي يمر بها الباحث عبر هذه الرحلة.

مركز براهين



العنوان: شارع شبين الكوم - الإسماعيلية - مصر
Dar-Alkateb.com - info@Dar-Alkateb.com
هاتف: (002)01015577460 - (002)01271031218

